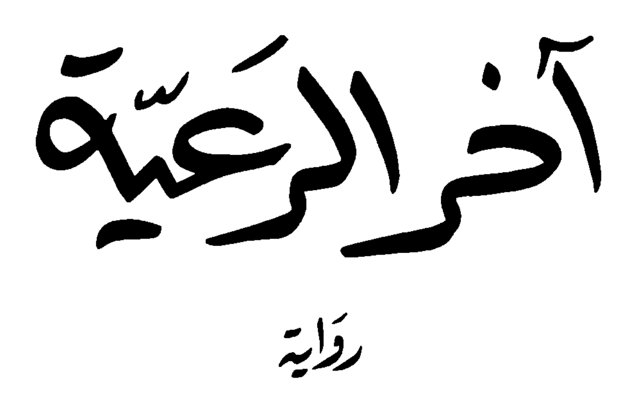
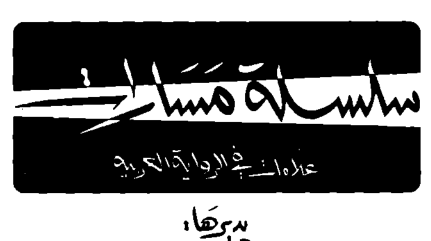

FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018
أبو بكر العيّادي
آخر الرعيّة
رواية
مسكلياني

أبو بكر العيادي



رواية





يديرها:
رمزي بن رحومة

آخر الرعيّة

الكاتب: أبو بكر العيادي

عنوان الكتاب: آخر الرّعيّة

خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9938-833-65-2

الطبعة الأولى: باريس 2002

الطبعة الثانية: تونس-بيروت 2018



مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com



مسعى للنشر والتوزيع

Masaa Publishing & Distribution

Ottawa, ON. Canada

info@masaapublishing.com

www.masaapublishing.com

عربانيـا بلدٌ منفلت مـن الجغرافيا كانما انحطّ على رمال رخوة متحرّكة. والكبير بطل هذه الأحداث، إن جاز أن نسـمّيه بطلا، لا وجود له إلا في كتب التّاريخ المقبلـة، يوم تنفلـت الأقلام من عقالِهـا وتنحلّ عقدة الألسـن المكبّلـة بألف لجام. فمن زعـم أنّ عربانيا بلدٌ بنصّـه وفصّـه، وأنّ الكبـير حاكـمٌ بعينه، هـو مدّعٍ كاذب.

أبو بكر العيادي

باب الباش كاتب

اعلم أنّ السّيف والقلم، كلاهما آلة لصاحب
الدّولة يستعين بهما على أمره.

ابن خلدون

أنا عبد الكبير الكاتب، والكبير هو المهيمِن الذي لا يتوارى عنه ما رقّ من أمر رعيّتِه في ليلٍ داجٍ ولا أرضٍ ذاتِ فِجاجٍ، يعلم الخفيّ وما فوقَ الخفيّ وما تحت الخَفيّ، حامي الحقيقة محمود الخليقة، راعي الذّمار وواهب الرّزق لكلّ من سارت به قدم، ناصر الدّين في كل ربض جامع القوم في كل شِعب فالق الحَبّ في كل أرض مسبغ النّعم في كلّ واد، رئيسنا وسيّدنا ومولانا من لا لَبيس له في مشارق الأرض ومغاربها، سلطاننا المفدّى وملكنا الوحيد الأوحد الأحد، دافع الضرّ وكاسر شوكة الشرّ ورافع لواء المجد في سوح الوغى، فاتق حجب الظّلام وناشر الحكمة في الورى، حبيب الحُرَم وقبلة المريدين، فاقع أورام الجهالة وناشل الغصص لدى الغواشي، شيخ التّقاة وأوّل الثّقات وحامي أحرامنا المقدسة. وأنا عبده وكاتبه وصفيّه ونديمه ووزيره الذي لنفوذه أوّل وليس له آخر، كاتم أسراره ومدوّن أفكاره وشارح خططه في الحرب والسّلم، ومحرّر التّقارير عن كلّ تحرّك مريب، مطلق شرر التّنديد والتأييد في كلّ المدائن إذا لاحت في الأفق خطوب أو بدا في الجوّ غمام لا يروق الكبير، وأنا ناظم المدائح والأشعار والأناشيد في كلّ عيد، وأعيادنا آخذ بعضها برقاب بعض، ما من يوم إلا ولنا فيه عيد تحتفي فيه الرّعية وتزهو،

أو لا تزهو، سيان، ما دام الكبير مزهوّ البال مرفوع الهامة قرير العين، وأنا العبد المفتقر دوما إلى رحمة سيّده وجودِه، أصطفي للكبير ما يليق بقدره من ثناء، وأنتخل من مخيض الكلام ما لو أنزِل على أكمه لأبصر وعلى أخرس لانحلّت عقدة لسانه وعلى كافر لاهتدى إلى السّراط المستقيم، والسّراط هو ما اختطّه مولانا المفدّى وحامي حمانا وناصر الحقّ والضّعيف، وجحافل الحسّاد من حولي تتكاثر يوما بعد يوم، وفحيحهم ينمو كالدّاء العتيل، حتّى صحّ فيهم قول قعنب بن أمّ صاحب:

إن يأذَنوا ريبةً طاروا بِها فرحًا　　منّي وما أذِنوا من صالح دَفنوا
صُمٌّ إذا سمعوا خيرًا ذُكِرتُ بهِ　　وإن ذُكِرتُ بشرٍّ عندهم أذِنوا

لك الله يا قعنب! كأنك معي ترى ما أرى من صدور حاميات كأنّ بها واقدة من الجمر، تلتمّ إلى أوكارها، وتفتل من ليف المزاعم أحبلا لعلّ النّاس يحتبكون بها ولعلّ الكبير يقصيني، فإذا هو يكرمني ويدنيني ويسمّيني الرّقيب أزن الكلام وأستقرئ ما بين السّطور، أتعقّب الألفاظ محوًا، وأقفو أثر المعاني بإدانة تفتح على أصحابها أبوابًا تهبّ منها رياح عواتٍ، حتّى خبرتُ اللّفظ وفهمت أبعاده الخافية، ووقفت على المعاني وأدركت أسرارها المضمرة، فأنشأت مصنّفا أسميته «نزهة اللّبيب في روضة الرّقيب»، وفيه أحصيت الكلِم المحظور والقَصاص المنذور، ليتجنّب الخلصاء مواطن الخطل ومكامن الزّلل، ويحذَر المارقون مقاتل الإثم ومرّ العواقب.

لقي المصنّف لدى الكبير استحسانا زادني حظوة، ولدى النّاس مِمّن حذقوا القراءة اهتماما لا نظير له إلاّ اهتمامهم بخطب الكبير

وأقواله، حتّى حاز جائزة الدّولة في ذلك العام، وعُدّ من عيون الكتب التي جادت بها قرائح البلاد على مرّ الأحقاب، فأثنى عليه النّقاد، وتناقلت فصوله وسائل الإعلام، وتنافس الدّارسون في إبراز مكامن القوّة فيه، وأضفوا عليه ما لم يذهب إليه ظنّي، ثمّ أدرِج بأمر في البرامج الرسميّة حتى يفصّل فيه القول للنّاشئة، ويُجلى عمّا ظهر منه وما ضمر، ويُستظهر به عند الِاختبار عن ظهر قلب، فتضمن البلاد بذلك أجيالا تعرف ما لها وما عليها، وتميّز بالسّليقة ما يقال وما لا يقال. وذاع صيته خلف الحدود وحتّى في ما وراء البحار، ونقله المترجمون إلى لغاتهم بكرهٍ غير خاف، وأقرّ الأجانب على مضض بأنه متفوّق على أمير ماكيافيلّي، وبات حديث النّاس في النّوادي والجامعات والمحافل الدّولية، ثمّ أوغر شيوعه الصّدور بنار الحقد، فتعالت أصوات منظّمات تزعم أنها غير حكوميّة تطلب سحبه من الأسواق ومصادرته وحرقه.

وفي يوم مشهود دعيت إليه الصحافة العالمية والوزراء والأعيان وكبار الضباط والموظفون السامون ورؤساء الخلايا الحزبية والسفراء المعتمدون وأرباب الصنائع وأهل الجوع، اعتلى الكبير منبر الساحة البيضاء وسط حشد من جند الحراسة ورجال الحماية الشخصية، وألهب حمية من اختنق بهم المكان بحماسة لا يتقنها أحد سواه، ثم قلّدني الوسام الذهبي، أرفع وسام في جدول أوسمة البلاد، وصوّب نظرات كأنها اللهب نحو المراسلين الأجانب وحتى السفراء وقال:

«ليس لدينا دروس نتلقاها من أحد!».

وقال أيضا: «فليكنس كل واحد قدّام بيته!».

وغشيت البلاد غاشية من حمو دافق، فأغلقت الدور والمحلات والمؤسسات والمدارس والمعاهد والجامعات، وانتشر الناس في الشوارع كالجراد يرفعون رايات التأييد لسياسة الكبير ووقفته الحازمة في وجه أعداء البلاد، ويحملون لافتات التنديد بالقوى الأجنبية، ويصرخون صرخة رجل واحد بلاءات الرفض: «لا للتدخل الأجنبي! لا للهيمنة الإمبريالية! لا للصلف الغربي!» وانبرى رجال الحكومة بمختلف درجاتهم ورؤساء الخلايا الحزبية في محافل عامة شملت المدن والدساكر والأرياف، يحللون خطاب الكبير وأبعاده، ويطرون على حنكة القائد واقتداره، ويستشهدون بمقولات توقد نار الحماسة، وتلهب الكفوف بالتصفيق والحناجر بالزغاريد والهتاف والدعاء للكبير بطول العمر.

وسرى في البلاد غقيق كأنها تتأهب لحرب، وضجت الشوارع والساحات بالمسيرة تلو المسيرة، حتى الأطفال هجروا مقاعد الدرس وانضموا بأزيائهم المدرسية إلى المتظاهرين في شوارع تمور بالضجيج والزعيق والهتاف وتغلي غليان الماء في المراجل. وفي الليل هجعت الضوضاء، وبقيت أقوال الكبير تنطلق من المذياعات والتلفزيونات عالية النبرات عميقة المعاني جلية البيان، والناس يستمعون إليها بإجلال وخشوع، يستلهمون منها القوة والثبات وروح التحدي.

ولما انجابت الظلمة، وتمزقت خيوط العتمة، وانفلق عمود الصباح، طوّفت الجرائد السيارة في كل مذهب لتبيان عظمة الكبير،

وسعة اطلاعه، وعمق إدراكه، ورجاحة تحليله، وصفاء رؤيته، وحصافة رأيه، وانهالت على القوى الأجنبية تسلقها بألسنة حِداد، وتتحداها أن تجيء بمثله، وتتالت المسيرات أياما ولياليَ لا يكاد يهدأ قطاع حتى ينهض آخر يجوب الشوارع بشعارات الولاء والتنديد، والصحف تتبارى في الكشف عن فضائح الغرب وحضارته المادية التي حوّلت البشر إلى سلعة تباع في سوق النخاسة، وعن انحلاله الخُلُقي، وتفشّي الأدواء المهلكة فيه، وانتشار البطالة والجريمة والمخدرات والانتحار... وأقوال الكبير في صدارة كل جريدة، وصوته العميق الواثق من كل أمر لا يني يطرق الأسماع كهزيم الرعد في ليلة شتوية، في التلفزيون، في الراديو، في الأبواق المتنقلة، في دور الشعب والمؤسسات الرسمية، واللافتات تملأ الشوارع والواجهات بخير ما أطلق لسانه، وصوره الملونة الضخمة عند كل منعطف وفي صدر كل ميدان، بالزي التقليدي أو الإفرنجي أو العسكري، مبتسما صارما محيّيًا أو رافعا شارة النصر.

والحقّ أنّ الصور سبقت هذا الحدث، فقد شاهد الكبير يوما على قناة سي آن آن تحقيقا تلفزيا عن بلاد لا شرقية ولا غربية، صور زعيمها، نصفية أو كاملة، صغيرة أو كبيرة أو ضخمة، لا يخلو منها مكان، في البيوت والمؤسسات والمصانع والمعاهد والكليات والمشافي والمسارح ودور السينما والمحلات التجارية والأزقة والشوارع والحدائق العامة والميادين ومحطات الأرتال وعلى جوانب الحافلات وفي المطارات والثكنات وأقسام البوليس والسجون والملاعب وعلى حافة الطرقات والخطوط الحديدية وفي أنفاق المترو... وبسؤال

الزعيم، أجاب بأنّ الشعب هو الذي أراد ذلك حتى يكون قريبا من قائده يراه ويلمسه صبحاً وعشية، وأضاف أنّ الصورة تقيم علاقة روحية بينه وبين شعبه، من خلالها يستشعر الهموم والفواقع التي تجتاح الرعية فيستجيب لنداءاته الخفية الصامتة.

وقال لي الكبير يومئذ:

- أريد أن أستجيب لدعوة الداعي قبل أن ينطق بالشكوى، أو يندّ عنه صوت أو زفير.

فجئت إلى القصر برسّام شهد له رفقاؤه بالتفوق والنبوغ، وأقام فيه معززا مكرّما يختلي بالكبير في ساعات الركود، فيلتقط دقائق ملامحه وخصائص قسماته في الضوء والظل، وينقلها إلى قماشة اللوحة في خطوط متناسقة بديعة تدقّ حينا وتغلظ حينا وتغيم أحيانا كأنها نازلة من ملكوت السماء، وهو يحس بأنّ القدر اصطفاه للقيام بدور سيسجله له التاريخ في صفحاته الخالدة بأحرف من ذهب. وما كاد يجمع فرُشه وأقلامه وألوانه حتى اتسعت عيناي وأضاء وجهي بنور الدهشة والإعجاب. كأن الكبير بلحمه وشحمه ماثل في هذا الإطار! لكأنه استوى على عرش عظيم وهاء لأمر دونه مصير البلاد! كانت الصورة تنبض بالحياة حتى لتكاد تنطق، ونظرة الكبير قوية نافذة تُنكّس لها الأبصار إجلالا ورهبة، وشفاهه تفترّ عن بسمة خفيفة فيها رضى وفيها صرامة.

هرعت إلى الكبير بالنبأ فأقبل بخطو رصين واثق، ودلف إلى القاعة بجسده الذي ارتفع في السماء، وتعلقت به أبصار الحاشية

وتابعت دخوله المهيب، وترقبت الوجوه السمينة المفرطحة هزة رأس راضية لتشرق ببسمات الِارتياح، وتطلق العنان بالهتاف لطويل العمر بطول العمر. غير أنّ الكبير ألقى على اللوحة نظرة من راعه منكر على حين غرّة، فاربدّ وجهه واتسعت حدقتاه دهشة وإنكارا حتى شعّ منهما شرر لو أصاب أحدا لصعقه، وصاح بصوته الصارم الذي يدخل الهلع من أذن المرء إلى قلبه... صوت وقفت له القلوب فلم تخفق، وجمدت له الدماء فلم تجر، وذهلت له الأنفس فما عادت تعرف هرّا من برّ. صوت ارتجّ لهوله القصر بمن فيه حتى أصاب الحاشية ذعر تخلخلت له الركب، والتجم الرسام عن الكلام ورعدة الخوف تهز بدنه الناحل هزّا، وهو يرى الكبير يمزق اللوحة إربا إربا، ويمدّ سبّابته في صمت اتخذ فصاحة البيان إلى الصدر المرتجف، ويوجهها بحركة آمرة لا تقبل جدلا ولا اعتراضا إلى جهة أخرى نحو الفراغ، والفراغ معناه السجن، والسجن في شرع الكبير معناه الموت، الموت وليس القتل، ميتة طبيعية، إن جاز أن نسمّي كذلك مصير المرء القابع في زنزانة مظلمة باردة، ليس له من طعام أو شراب في يوم وليلة سوى علبة زبادي إلى أن يلفظ أنفاسه.

لقيت من التأنيب في ذلك اليوم ما أرّقني لياليَ. رمقني الكبير بعينيه النافذتين في صمت متصل، دون أن يفوه بحرف أو يطرف له جفن، والعيون من حولنا شاخصة تترقب القضاء المبرم، والصدور تغلي بنار الشماتة والحقد، فتضاءلت حتى خلت أني أنحدر إلى جبّ غائر القيعة، وسرت في جسدي رعدة حادة كادت تحوّل غضبه إليّ. بدا كأنه أشفق أن يراني في تلك الحال من الذلّة أمام حسّادي، إذ

ارتسم على شفتيه طيف ابتسامة تكيد الشامتين وترجئ غضبه عليّ إلى حين انفراده بي. واستدار عائدا من حيث أتى، وتصاعد بعده اللغط حتى لم يعد أحد يسمع الآخر.

بتّ ليلة عسراء أتقلّب كأني راقد على الشوك، والهواجس تقيم رأسي ولا تقعده، وتاه عقلي في مهامه سود مظلمة. ومع الفجر ومض في ذهني وعي بجلية الأمر كمن استفاق بغتة من كابوس، وأدركت أنّ ذنب الرسام أمانته التي جعلته يرسم الكبير بلا تعديل، والمسكين لا يعلم أن الأمانة قد تكون مهلكة، والشقيّ من اتعظ بنفسه، ولكن أي موعظة بعد الموت. ودهمني إحساس ساحق بالندم، ليس على الرسام ، فأجله مسجّل في علم الغيب ولا رادّ لقضاء الله، وإنما ندمت على سهوي الذي كاد يكلفني حياة البذخ والنعيم، وربما الحياة. لقد سهوت عن تنبيه الرسام المسكين إلى ما ينبغي إدخاله من تعديل على صورة القائد، فالكبير يكره أرنبة أنفه المعقوفة التي ورثها عن أبيه، ويمقت الأورام التي تحوق بعينيه نتيجة مرض مزمن ورثه عن أمه وحار الأطباء في علاجه، أما التجميل في مصحات بالخارج فدونه مخاطر لا يقدّر أحد عواقبها، فالمتربصون بالكبير كثرٌ وأعداؤه لا يحصون عددا.

ولما سكنت الأصوات، وهمد الضجيج عن ذكر الرسام الموؤود، أرسلت عيوني في طلب فنان أجنبي لا أصل له ولا فصل، تحسبا للعواقب التي لا يتوقعها أحد غيري، وجيئني بعد لأي بفرنسي في العقد السادس متخصص في فن البورتري يدعى جان باتيست فريني، له هيئة تذكّر بكلوشارات باريس. شعره أشعث

موخوط بالشيب، يتصل بلحية كثيثة، آخذ فيها الشيب هي أيضا، تلتهم مساحة وجه مدوّر يبرز فيه أنف منتفخ وعينان محوقتان بهالة من الزرقة والإنتفاخ من أثر التكالب على الشهوات. رقبته غليظة كأنها رقبة ثور يطوقها بفولار أصفر فاقع، وبطنه بارز كبطنِ حامل على وشك الوضع. كان يعشق الويسكي والنساء والحشيش والصمت، حتى ظننت به الظنون، فجربته في نفسي وكانت النتيجة أبعد مما توقعت، فجعلت له جناحا عريضا فيه مرسمه وإقامته ومخدع غوانيه، وأمددته بكل الملذات التي تهفو إليها نفسه، وحذرته من مصارع الزلل وجرائر اللسان، ونبهته إلى التعديلات الواجب إجراؤها اتقاء غضب الكبير.

وفي حفل بهيج بإحدى قاعات القصر الفسيحة، أزاح فريني الستار عن اللوحة، فغشي الحاضرين صمت واجم قلق لا تسمع فيه لاغية، وعيونهم معلقة بالكبير لا تدري هل تشرق أم تغضي. ووقف الكبير أمام الصورة معقود اللسان برهة، ثم توهج في عينيه بريق أضاء وجهه، وابتسم، فانبسطت أسارير الحاضرين، وارتفع الهتاف وعلا رنين الأقداح، والكبير شاخص ببصره في الصورة لا يروم عنها حِوَلاً كأنه يقول: «هكذا كان ينبغي عليّ أن أولد». استقام الأنف وزالت الأورام واختفت التجاعيد وضاءت السحنة، حتى جعادة الشعر ولّت وحلّت محلّها ملاسة تبرق تحت أضواء خفية كنجوم السينما. وشعرت أني أرتقي سلّم المجد درجة حين وجه إليّ الكبير نظرة امتنان أثنى بمثلها على الرسام، وفريني جامد في مكان حذو اللوحة، يردّ على عبارات الثناء والتهاني بهزة رأس أو انحناءة خفيفة

وابتسامة مقتضبة. وقال لي الكبير وهو يقبض على ذقنه المدببة ويعبث بعثنونه:

- عبدو! أجزل له العطاء!

ومشى مرفوع الهامة كالعمود، يمد بصره كأنما يرى مصير البلاد أمامه. ومضى الرسام يسجل للتاريخ صورا من حياة الكبير في أوضاع مختلفة وبدل متنوعة، والعطايا من كل نوع تنثال عليه انثيالا، وفاض القصر عن حاجته من الصور فطرقت أبواب المدينة، وعنّت لي فكرة استقبلها الكبير بترحيب زادني حظوة، وأوغر صدور حسادي بحنق في مرارة العلقم.

في الصفحة الأولى من جريدة «الخلود» لسان الحزب الواحد، حزب الكبير الحاكم، نشرت قصيدة همزية طالعها:

حبيــب العالمــين لــه الثنــاءُ	فليـس لنـا بـلا هـادٍ نجـــاءُ
هو النّبراس والآنام غطشــى	وفي النّــبراس للغطشــى دواءُ
هــو الصّدر الذي يحنـو علينا	هــو الضّرغام إن حُــمّ البـلاءُ

رجوت فيها القائد المفدّى السماح لنا، نحن الرعايا، بإنشاء صندوق لدعم تعميم الصور على المدن كافة، وحتى القرى النائية الضاربة في الأرض اليباب. وتهاطلت الأموال والطلبات قبل أن يأذن الكبير، وتسابق الولاة ورؤساء المجالس البلدية والخلايا الحزبية في جمع الأموال حتى صار وصل التبرع دليلا على الوطنية الصادقة، به تفتح أبواب وتسدّ أبواب. وتراكمت الأموال حتى زادت عن الحاجة، فحوّلنا الفائض إلى خزينة الأشغال لتشييد منتجع يليق بمقام

الكبير. وفريني مثل ماكنة تفريخ يخرج اللوحة تلو اللوحة، وما هي إلا سنة أو تزيد، حتى كان الكبير في كل مكان، قريبا من الناس يسمع دعوة الداعي إذا دعاه.

امتدّت عدوى الصور إلى المدارس والمعاهد والكليات، فصارت تنظم مسابقات في رسم صور الكبير، وتجيز الفائزين بكتب وشرائط مسجلة تضم خطبه ودروسه وتوجيهاته، وتهديهم صورا مصغّرة تحمل توقيعه.

وبانتهاء مهمته انصرف فريني إلى لهوه ومجونه. كان يعاقر الخمرة كأنه كثيب أهيَم لا ترويه الدنان ولو أمطرت بها السماء بغير انقطاع، ويدخن سجائر يحشوها بسمّه الهاري الذي يجعله في حالة زوغ دائم، بين يقظة ومنام، والغواني يسلبنه نسغ الصلب والترائب وجهد الأيام، إلى أن عاف يوما حياة القصر، واستأذنني في الرحيل. وقبل أن آذن له، راجت أخبار عن نية بلد مجاور يكنّ لنا العداء الِاستفادة من خدماته، فحملت الخبر حاميا إلى الكبير، فأمر على الفور بمنعه من اجتياز عتبات القصر. وظل المسكين في سجنه الذهبي يأكل ويسكر ويسطل وحيدا، يتنقل بغير هدى في أرجاء ضاقت بما رحبت، كأنما ألم به عتَه إلى أن فاضت روحه. وشنّت في الأثناء صحافة البلد المعادي حملة شعواء عن احتجازنا الفنان الفرنسي، فتصدت لها صحافتنا المكتوبة والمسموعة والمرئية بكل الحزم المعهود، وكان قد جيء بفريني أمام الكاميرا قبل موته ليدحض بنفسه دعاوى المغرضين. ولما توفّي، أصدرنا بلاغا مرفقا بتقرير الطبيب الشرعي لإزالة الشبهات، وشيّعنا جثمان الفقيد صديق البلاد في موكب خاشع.

كذلك كان الكبير يسوس البلاد، باللين إذا اقتضت الهوادة، وبالشدة حين لا تنفع إلا القسوة، يقودها كما يقود الربّان سفينته، بحنكة من سبكته أعوام من الحكم أولها معلوم وآخرها لا يعلم طرَفه إلا الله. ولا غرو فالكبير سليل نسب عريق ضارب بجذوره في أعماق التاريخ، وأجداده رفعوا على مرّ الأزمان رايات المجد وعُقدت لهم ألوية النصر، قوم لا توسّط بينهم لهمُ الصدر دون العالمين أو القبر.

بذلك حدثنا علماء الأنساب عقب بحوث امتدت زهاء عقد من السنين، امتثالا لأوامر الكبير في تحقيق أصول شجرة عائلته. وكان العلماء قد أقبلوا على الوثائق والمخطوطات والدفاتر والسجلات القديمة ينفضون عنها الغبار ويستقرئون المتون والحواشي، ويراكمون الإضبارات ويجردون التواريخ، حتى انتهوا إلى أنه ينتسب إلى محمد الفاتح العثماني من جهة أمه، وأبي زكرياء الحفصي من جهة أبيه. وبرغم ما في هذا النسب من فخر ومجد، فإنّ الكبير لم يقنع بما أفضت إليه البحوث، فأمر بمواصلة التقصي والتنقيب من جهة أبيه بخاصة، ولكن جهود العلماء باءت بالخيبة والفشل الذريع، كأنما اصطدموا بصخر عنيد تكسرت على صلابته أسنانهم، ومن ثمّ رقابهم، فقد زجّ بهم الكبير في غياهب السجون بتهمة التقصير وانتحال صفة لا يستحقونها، وفار به الغضب حتى هدد بإغلاق هذه الكليات التي لا تنتج في رأيه إلا الجهل، حقنًا للتبديد.

عندئذ أخرجت من عبّي عالما جليلا لامع الذهن ليّن العريكة يقال له محمد علي العيّاط، يهتك المجاهل كما يفقأ النطاسي الخُرّاج، وسرعان ما نفذ إلى ما وراء الصخر الذي أهلك قبله فريق العلماء

كأن في رأسه مِثقبا، وعندما بلغ الأعماق أعلن، ووجهه الناحل الغائر يتورد بالبِشر، أنّ الكبير من سلالة صلاح الدين الأيوبي، فقال الكبير:

- قائد عظيم ولكني لا أحس أن بعروقي دماءً كردية. واصل.

وجاء العياط بعد شهر، ليعلن للكبير عن أصله الأغلبي وجده الأول إبراهيم بن الأغلب، فقال الكبير:

- حاكم قدير، ولكني أشعر أن لجدي الأول فضلا على الناس كفضل الخالق على المخلوق. واصل.

اعتكف العياط في مكتبته الضخمة يوازن ويقارن ويناظر الأسماء والتواريخ والأنساب والألقاب حتى اهتدى إلى عبد الرحمن الناصر، فأطرق الكبير برهة، وهو يعبث بعثنونه، ويقطب ما بين حاجبيه المعقوفين وقال:

-فاتح كبير ولكني أشعر أن جدّي الأول أقرب إلى مهبط الوحي منه إلى بلاد الفتوحات في الغرب الإسلامي. واصل.

فعاد العياط إلى مكتبته وانكب على المتون الصفر والحواشي والأمالي وكتب السيرة وأخبار الرحالة والدواوين، لا ينال إلا ما يقيم الأود، ولا يغمض له جفن إلا بعد إجهاد.

جاءني ذات يوم على وجه الفجر، كأنه يخشى أن تصهد الشمس صدره وتذيب خباياه، فيفوح الخبر وتنتشر رائحته الخطرة فلا تبقي ولا تذر. رأيته في ردهة بيتي ينوس كذبالة شمعة تُحتضَر، وشعره الأشيب منفوش كأنما عبثت به الريح، ونظراته مطفأة في عيون محمرّة كأنها قيعان مياه ضحلة. قال بصوت مرتجف تكاد تخنقه رعدة الخوف:

- عندي نبأ لو أخبرت به غيرك يا حضرة الباش كاتب لهلكت.

وصمت حتى تستنفر كلماته فضولي فلم أنبس، فقد عودتني حياة القصر على هذا النوع من المداخل المثيرة التي يقصد بها الجيب في العادة، وكثيرا ما تسفر عن زبد يذهب جُفاء، ولكن ما كاد يقول: «لو أخبرت مولانا المفدّى بأصله لضرب عنقي» حتى جحظت عيناي وتجلى فيهما نهم الِاستطلاع. سمعته يقول بصوته المخنوق بعبرات تكاد تفيض على وجهه الممتقع:

- نبأ خطير يا حضرة الباش كاتب! إن جهرت به انقطع رأسي وذكري إلى الأبد، وإن أخفيته بين الضلوع، متّ ميتة السلف عِرقا عرقا، نفَسا نفسا. وقد اخترت، بعد أخذ وردّ، أن أحكّمك في مصيري، أن تنظر في طريقة موتي، بالآجل أم بالعاجل، فالموت، بعد أن علمتُ ما علمت، واكتويت بنار الحقيقة التي تعشي الأبصار وتطيّر العقول، آت لا ريب فيه ولا رادّ له.

قلت: «اصدقني وبعدئذ لنا رأي».

فانفرط عقده كحبات المسبحة، وفاه بسرّه دفعة واحدة كأنه مخمور تهوّع، وخرّ على وجهه مغشيًا عليه وفي قسماته ذعر مكين. ولما ثاب إلى رشده، هدأت من روعه ودعوته إلى لزوم الكتمان حتى يأزف الأوان.

وإلى أن يحين الوقت المناسب، كان لا بدّ أن أطلق لقلمي العنان درءا لعواصف هوجٍ تجتث ما أسسه عرق السنين، وتخفضني في سلّم المجد درجات، فلو يغضب الكبير، فسوف يشدد عليّ النكير

بوصفي كفيل الرجل وضامنه وحاميه، وغضب مولانا كالنار تحرق بلا رحمة. من يدري... لعله يرمي بي في دار الفناء، تلك الدار التي لا يُرتجى منها إياب.

أقبلت على الجرائد الرسمية وشبه الرسمية والمقنّعة باستقلال يعلم النابهون ما وراءه، أجتاح أعمدتها بسيل من المقالات تحوم كلها حول أصول الحكم في زمن الفتنة، لأخرس ألسنة لم تجهر بعدُ بعدائها، ولكنني أعلم أنها كالنار إذ تكون خبيئة الحطب، تستعر بخفوت في الزوايا المعتّمة والبيوت الوضيعة في أذيال المدن، وأبيّن كيف أن الفتنة أشد من القتل، وأن هيبة الدول على مرّ العصور تقاس بقدرتها على إخماد الفتن في المهد، واستعرضت في سلسلة مقالات مدعمة بأقوال لكبار المؤرخين والمدونين ومشاهير الرحالة وفطاحل الشعراء وأساطين الفكر عن أحوال الأمم وتجارب الشعوب وسير القادة والملوك منذ غابر الأزمنة، لأشرح كيف دالت ممالك وتقوّضت عروش وانهارت سلطنات بسبب الفتن، وأوضح أن التاريخ علّمنا أن القادة العظام هم الذين لم تأخذهم بدعاة الفتن رحمة، أشداء على من يريدون بالسلطة شرّا، رحماء بمن يولون لها الولاء والطاعة، فالفتنة كالأكال الذي يصيب عضوا إذا لم يعجّل ببتره اجتاح الجسد كله وأهلكه فإذا هو فتيت، والقائد العظيم هو من يجتث الداء قبل استشرائه، وينتزع الفتنة من جذورها قبل استفحالها، ولا ضير إذا أبدى من الشدة ما يراه الأعداء قسوة، ومن الصرامة ما يعدّه دعاة الشغب غشمًا، وقديما قيل: «سلطان غشوم خير من فتنة تدوم». ورحت أستلّ من الماضي صفحات، لأبين أن ذاكرة التاريخ لم تحفظ من سير الملوك

والسلاطين سوى إنجازاتهم الخالدة، أما الدماء المسفوحة، والأرواح المزهقة، والمكائد والدسائس، فهي من طبائع الحكم لا يستقيم من دونها سلطان، ولا يُكتب استقرار، ولا يستتب أمن، ولا تُعرف نهضة. وقلت فيما قلت، إن الحاكم الفذ هو الذي يمسك بزمام الأمور بقبضة من حديد وقلب لا يلين، يزيل الثلث إن كان في زواله بقاء الثلثين. وطفقت أستحضر من تاريخ العرب والعجم نماذج من ملوك وخلفاء وأمراء وولاة كانوا مثالا للحزم والعزم من أجل الحفاظ على هيبة الدولة ومناعتها، وبدأت بالكلدانيين والآشوريين والفراعنة والساسانيين والإغريق والبيزنطيين والأمويين حتى وصلت إلى ابن جلا، الحجاج بن يوسف الثقفي، فأضفيت عليه من الخصال ما لم يحظ به سابقوه، وأفَضت في وصف حدة ذكائه وقوة صريمته وعلوّ همته وشدة بأسه وحسن أدبه وسعة حيلته، إلى أن غدا له وجه غير الذي اختزنته الذاكرة. حتى ما ذكِر عن استبداده فسّرته بأنّ العاجز هو الذي لا يستبد. ألم يقل المتنبّي:

والظّلمُ من شيَم النّفوس فإن   تجـد ذا عفّـةٍ فلعـلّـةٍ لا يظلِمُ

وصادف شهر رمضان، فخرجت على القراء بحلقات يومية أسميتها «دقائق الحيل في رقائق الحلل»، سقت فيها مجاميع النوادر والطرائف والعبر التي نقلها الرواة عن الحجاج. ولما أنست من الناس حسن قبول لهذا القائد الذي لا يضاهيه أبطال الأفلام الأجنبية دهاء وشجاعة ولباقة وحضور بديهة، أخرجت العياط من قمقمه وقد بدا أكثر نحولا واصفرارا، وازدادت عيناه غورا وانطفاء كأنما أدركه الهرم بغتة، وأمرته بأن يحزم أمره ليوم موعود، واليوم هو ليلة السابع

والعشرين من رمضان المعظم، عيذ ميلاد مولانا، فمثله لا يولد إلا في ليلة مباركة، ليلة تتنزل فيها الملائكة والروح، فيكون احتفال البلاد احتفالين: احتفال بليلة القدر، واحتفال بالعيد الأول لمولد مولانا. ذلك أن للكبير عيدين تحتفي فيهما الرعية بقدوم طالعه الميمون قدوم الغيث غبّ زمن أعجف، واحد بالتقويم الهجري، وآخر حسب التقويم الميلادي.

وفي ليلة خاشعة مهيبة بالجامع الكبير، رتّل صبحي الأعشى شيخ المقرئين من آي الذكر الحكيم ما تيسر، ثم تلته جماعة المدائح والأذكار بإنشاد يذكرنا بأنّا خير أمة أخرجت للناس، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ويمدح خاتم المرسلين وكذلك مولانا المفدى خير من سار على هدي الرسول الكريم. ثم ألقى سماحة المفتي الشيخ عبد الرحيم المنصوري خطبة مسهبة عدّد فيها فضائل الليلة المقدسة وخصال النبيّ المصطفى المختار وأفضال قائدنا أمير المؤمنين، والكبير متربع على البسط والطنافس، يتصدر البطانة والحاشية والأعيان والمقربين الذين ضاق بهم رحاب الجامع، ونظراته تبرق تحت أضواء الثريات الضخمة، وأصابعه تعبث بحبات سبحته، والعيون منشدّة إليه تتملّى هيبته الوافرة في لباس تقليدي لا يرتديه إلا في مثل هذه المناسبات، وهو يتململ برمًا من هذه الشعائر التي ليس له منها مفرّ.

بعد الصلاة، جمعَنا في باحة القصر الفسيحة كميدان لسباق الخيل، المطلة على مسبح عريض تحيط به أشجار حرجية وورود ومساحات خضراء مترامية، لنرفع على نخبه أكواب الشمبانيا، ونتناول قطع الكعكة الضخمة التي علتها شموعه السابعة فوق الستين، وندعو

له بطول العمر ودوام العافية وخلود الملك. وبينما انصرف المدعوّون إلى موائد الأكل الفاخر والشراب الرقيق ينهلون كأن بطونهم قِربٌ خاوية، جئت الكبير بالعياط ليعلن النبأ الخطير، بعد أن أوصيته بالتركيز والإيجاز، وما كاد العياط ينطق بالِاسم الذي أنقض ظهره وأثقل صدره وأوهى نفسه وخلخل رُكبه، وهو من الخوف في غاية، ينكّس البصر ذلة ورهبة، والرعدة تخض بدنه الواهن اختضاض طائر وجل رأى نذير الموت دونه، حتى أشرق الوجه الكريم بنور ابتهاج وعبر ملامحَه رقراقُ ابتسامة مقتضبة، ورفع رأسه نخوة واعتدادا كأنه يقول: «مثلي لا يمكن أن يكون جدّه غير الحجّاج»، ثم امتدت يده إلى ذقنه مطرقا كمن يستدعي من الذاكرة أمرا غبر أو أشياء طواها النسيان وهتف ظافرا:

- أهذا هو القائل، ليس الفتى من يقول كان أبي؟

وعبست ملامحه فجأة، واستعاد وجهه تلك الصرامة التي لا ينفذ منها أي تعبير، حتى خلت أن الأرض ستنشق على حين غرة وتبتلعني، والعياط بجانبي ذاهل ناشف الريق متفصّد الجبين لا يكفّ عن الِارتجاف كأنه واقف على حقل كهربائي. ووجدتني أمدّ يدا إلى حبل المراوغة أنشد النجاة، فقلت بحماس أداري به اضطرابي، وأخفت رجفة سرت في كامل جسدي:

- أصلح الله مولانا! جدك يا طويل العمر جمع إلى الشجاعة والحنكة ونبل المحتد حكمة الفلاسفة ومعرفة العلماء وفصاحة الخطباء وبيان الأدباء. أجل يا مولاي. جدك هو القائل:

كنِ ابنَ من شئتَ واكتسِب أدبًا   يُغنيك محمودُه عنِ النّسبِ

إنّ الفتى من يقول ها أنذا ليس الفتى مَن يقول كان أبي

وأنتَ، أطال الله عمرك، جمعت بين النسب التليد والطارف المجيد والغد السعيد، فحقّ لك أن تقول عن جدارة لا ينعم بها أي حاكم سواك في مشرق الأرض ومغربها ها أنذا و كان أبي في الوقت نفسه.

وبلهجة لا تخلو من بلاغة وطلاوة، أخذت أروي له ذلك الخبر الذي تناقلته كتب الأولين عن فصاحة أبناء نسّاج وفوّال وحجّام، فإذا به يتلقف مني أطراف الخبر وينهيه: «وقال علّموا أولادكم الأدب، فوالله لولا فصاحتهم لضربتُ أعناقهم». وانبسطت أساريره فزال همّي إلا بعض خفق ظل يصكّ الضلوع، وزفير كزفير الناجي من مأزق عصيب، وأيقنت أني ارتقيت مراتب المجد درجة أخرى حين أمرني:

- عبدو! صل هذا الرجل بما يلزم وزيادة.

وغاب عني أمر العياط، فقد طلبني الكبير ليقول لي على انفراد بإحدى خلوات القصر:

- أصدر أمرا بتعليم الأولاد الأدب، الأدب الذي ينفع الناس.

والأدب في رأي مولانا هو صناعة الشعر، وما ينفع الناس هو الشعر التقليدي بأغراضه الكبرى وعموده وبحوره وأوزانه وقوافيه، والشعر الشعبي بخصائص منبته وطبائع أهله وطرائق سبكه وإنشاده. والكبير يعشق الشعر، إذا قيل فيه، خصوصا في عيدي مولده اللذين يدوم كل واحد منهما عشرين يوما بالتمام والكمال، بعدد ولايات البلاد، الشعر الأصيل النابع من أعماق الرعية، والموزون المقفّى

الواضح السلس. أما ذلك الكلام المتناثر بلا ضابط ولا رابط كأوراق ميتة تدحرجها الريح على الأرصفة، المشحون بألفاظ غير ذات دلالة، السائب دونما مبنى ولا معنى، المقفل الملغز الغامض غموض من في قلوبهم مرض، فقد نهى عنه مولانا، حتى عُدّ كل من يُعاظِل في الكلام خارجا عن القانون، حلال دمه وماله.

والكبير لم يحظره اعتباطا وإنما لعلمه بأن هذا الضرب من القول وافد غريب ككل الأفكار المستوردة التي يراد بها خلخلة النظام، سموم ينفثها الغرب وتتلقفها شرذمة مستلبة تهرف بكلام يَلُوث البيان لغاية مفضوحة، وصاحب التجلّة والجاه، مولانا المفدّى، يذكرنا دائما في توجيهاته التي تذاع صبحا وظهرا ومساء، وتُطبع في كتب توزّع بالمجان بأنه لا يأتي من الغرب ما يُفرح القلب. ولذلك فنحن في غنى عن الغرب، لا نستورد منه إلا تلك الأشياء المادية التي تيسّر حياتنا وإن كانت كثيرة، وربما كثيرة جداً، أما الأفكار فلنا منها ما يفيض عن الحاجة، فنحن فرسان القول والخطابة وفقه الكلام على مر العصور، وصنعة الشعر عندنا تزري بأيّ صناعة، فهل يعرف الغرب التطبيق والتجنيس والاِستعارة والمقابلة والإرداف والموازنة والإشارة والإيغال والتسهيم والمماثلة والتكميل والترصيع والتكافؤ والسلب والإيجاب والكناية والتعريض والعكس والتبديل والاِلتفات والاِستدراك والرجوع والتذييل والاِستطراد والتكرار والاِستثناء والتصحيف والترديد والتتميم وجمع المؤتلفة والمختلفة والتبيين والتفويف والتفريع والتسميط والتضمين والإعنات والمشاكلة والتنبيه والموارِدة والموارِبة... ومولانا يدرك بفطرته ونباهته أن افتتان تلك

الزمرة بباحل القول دليلٌ على خبيء سوءٍ وشاهدٌ على عيب ودَبَر، فهو شاعر بطبعه. ألم يرتجل على رؤوس الملأ أبياتا خالدة جرت على الألسن مجرى الأمثال، ثم صيغت لها الألحان وصارت نشيد البلاد الرسمي تعويضا عن نشيد قديم لا نفَس فيه ولا روح.

كان ذلك في يوم من أيام العزة والسؤدد، يومَ أقبل الشعراء في عكاظيات المولد الستين، يثنون على مولانا الكبير السامي ذي العرش الرفيع. جاؤوا من كل حدب وصوب، من الجبال الشمّ والسهول الخضر والسواحل الفيح وفيافي التبر يُهدون الكبير مدحة ويهتفون:

- لبّيك لبّيك! لبّيك يا عظيم الشان! أنت وحدك السلطان! أتتك رعايا عربان! رجالها والرُّكبان! بشيبها والوِلْدان! مُذْلِلَةً للربّان!

تعلقت أنظار الرعية في ولاياتنا العشرين: جهار وسُواع وشُمس واللات والعُزّى ووَدْ وهُبَل ونائلة والفَلس والسعيدة ويغوث ونَسر والمحرق وذريح ومرحب والمنطبق وإساف وذي الخلصة وذي الكفين وذي اللبا، تتابع بشغف من ينطقون باسمها في الحفل البهيج، ويتنافسون في ابتداع أروع الصور المبتكرة التي تنتزع من ثغر الكبير ابتسامة رضى، وتترك في مسامع البلاد رنينا. وتتالى الشعراء على المصدح يتناوبون بحسب الولايات، حتى جاء دور شاعر شاب نحيف طويل غائر الفكين حديث عهد بالعكاظيات، ولما همّ بالإِرتجال تلبّك وضاع منه الكلام. قال: «بلادي» وسكت. ازدرد ريقه، وأعاد بصوت محشرج كأنما تخنقه غصة: «بلادي ...» وشردت نظراته في اضطراب فادح كمن يبحث عن منقذ من مأزق

عظيم، وترامى على الحضور ذهول صامت، ثم سرت همهمة وانية وتقاطعت نظرات فيها دهش وفيها غصّة وفيها استهزاء، والشاب مروّع مأخوذ كمن نسي الشهادة يوم الحشر. وردّه صوت جهير إلى يقظته فاهتزّ كمن يصحو بغتة من غفوة، وإذا بالكبير ينشد واقفا، يملأ الرحب بحضوره المهيب وحركاته المعبرة خير تعبير وصوته المدوّي كأجراس الكنائس:

بلادي بلادُ الليوثِ الأماجِدْ وسلطانُها في الورى خيرُ قائدْ
مناراتُنـا في الضّحى لامعاتٌ وأمجـادُنـا للنجـوم قلائـدْ
نـــصُـــدّ الأعـــادي بـــحَـــرّ الـــجِـــلاد
لـــتـــحـــيـــا بـــلادي بـــلادي بـــلادي

وكأن السماء انشقت ورمت بدويّ هول، أو كأنّ براكين الأرض قاطبة اجتمعت في انفجار عنيف، اهتزت القاعة بالهتاف والتصفيق والزغاريد، وهاش الناس حتى لكأنهم يتنادَون ليوم كريهة، وأدمعت عينا الفتى تأثرا ورهبة، واندحر غضيضًا أو كالغضيض. وتعالى نقر طبول ونفخ مزامير، وغصّت الأبواق بالشعارات حتى لم يعد مجال لمدحة أو قصيد لا يومها ولا في الأيام التالية. انكسفت شموس الشعر وانسحب الشعراء يجرّون ذيول الخيبة والخذلان، ونالوا من الغضاضة فوق ما نالوا من أموال وهدايا، فقد جرت العادة في كل عيد أن يُنتخب واحد منهم يصطفيه الكبير، ويدنيه من مجلسه ردحًا من الزمن قد يطول وقد يقصر، فيكون نجم العكاظيات الذي تُسلّط عليه الأضواء وتشرئبّ نحوه الأعناق ويلهث خلفه الصحافيون، وفي ذلك حظوة لأهالي الولاية ما بعدها حظوة، وامتياز يطاولون به

أهالي الولايات الأخرى. أما وقد أعشى الكبير بصائرهم، فقد آثروا طيّ قراطيسهم وكتمان ما في صدورهم اتّقاء سوء المغبّة، فمن الذي يدّعي بعد ذلك اليوم أنه أشعر القوم.

وحاز الكبير مملكة الشعر كما حاز من قبل سواها، وأضاف إلى أسمائه المجيدة لقب الشاعر.

كان الخبر قد تطاير منذ الوهلة الأولى في كل اتجاه كنثار الشماريخ حتى طبق الآفاق، وصار حديث الناس في كل نادٍ، وتداوله رجال الإعلام بالنقل والتعليق والتحليل، وأعيد بثّه المرار العديدة في الإذاعة والتلفزيون نزولا عند رغبة الرعية، وسُجّل في آلاف الأشرطة السمعية والبصرية، وطُبع القصيد وحده في ملايين البطاقات الملونة الفاخرة، وأقيمت حوله الموائد المستديرة والملتقيات والندوات والأمسيات حتى عُدّ حدث الموسم بلا منازع في سبر آراء أجرته جريدة «الخلود»، وتنافس المعلّقون على أعمدة الصحف وأمواج الأثير وشاشة التلفزيون حول تصنيف الحدث، فرؤساء الأقسام الثقافية يعتبرونه حدثا ثقافيا يقطع مع السائد القائم على أحادية الخطاب وواحدية اتجاهه بين باثّ هو الشاعر ومتلقّ هو السلطان، ليقيم علاقة جدلية متعاوضة يكون فيها الطرفان، كلّ من زاويته، باثّا ومتلقّيا في الآن نفسه. والمحللون السياسيون يرون أنه حدث سياسي بالغ الأهمية، وعلامة فارقة بين مرحلتين، حتى أنه يمكن التأريخ منذ الآن بما قبل القصيد وما بعد القصيد، فالكبير استطاع بنباهة وحنكة أن يرسم في خطاب سياسي موجز الكلمات عميق المعاني متعدد الأبعاد مسار الأمة في ماضيها وراهنها وغدها. ففي ربطه الأمجاد بالمنارات دلالة

واضحة على الدور الموكول للأمة في تطلعاتها المستقبلية المرتكزة على سند راسخ البنيان من مجد أثيل وماض عريق، لكي تشرق بشموسها على الأمم الأخرى، فالأمة التي أصلها ثابت، لا بدّ أن تكون فروعها في السماء. وفي وصله الليوث بالقائد شهادة على تمازج أعطاف الأمة، فقوة القائد في بسالة ليوثه، وبذلك تكون السلطة نابعة من الرعية ليلتحم الطرفان في جسد واحد وفكر واحد وتوجّه واحد من أجل صيانة مكاسب البلاد والذود عن حماها، ففي لفظ الأعادي تحذير شديد اللهجة لأعداء الأمة المتربصين، وعزم على الصمود في وجه كل باغٍ أثيم.

وعَدّه رجال المسرح حدثا مسرحيا متميزا، وأطنبوا في وصف طريقة الإلقاء والعناية بمخارج الحروف ونبرات الصوت وتلاؤم الأداء والمعنى وحسن التحرك والإيماء والتموضع على الركح.

أما المعلقون الرياضيون، وإن لم يزعموا أنه حدث رياضي لافت، فإنهم استعانوا به في تعداد مزايا النشاط العضلي، فأبرزوا رشاقةَ الكبير وطول نفَسه وخفةَ حركاته وعافيتَه، للوصول إلى الحكمة القائلة بأن العقل السليم في الجسم السليم.

حتى الفنانون أدلوا بدلائهم ليبينوا أن للكبير طاقة صوتية تفوق الوحدات المتعارف عليها قرارا وجوابا، فضلا عن الذبذبات والرخامة، ولولا الحياء لاقترحوا عليه تأدية أغانٍ تُلحّن خِصّيصا له.

علماء النفس أيضا تناولوا الحدث من الجانب الذي يعنيهم، وكتبوا في دراسات معمقة غزيرة الإسناد ركيكة الأسلوب أعانني

أحد المريدين على فهمها، أن الكبير بمزجه بين ما هو ذاتي، عيد مولده، وما هو موضوعي، البلاد والرعية، فنّد النظريات الفرويدية وأثبت أن الشعور واللاشعور واحد، وألا وجود للإنفصام الذي يتحدث عنه يونغ، وهذا ينمّ عن نفس واثقة مطمئنة راضية مرضية.

وشملت البلادَ على مدار أيام العيد أفراح وليالٍ ملاح، وتعالت من الأبواق الثابتة والمتنقلة والمذياعات وآلات التسجيل أنغام النشيد الجديد، والحناجر تردده في الغدوّ والرواح بحماس لا نظير له، والمدرسون يتوقفون عند كل لفظ يشرحون معانيه ويبينون محله من الإعراب ويجلدون المتقاعسين في حفظه.

وما كادت الأعراس تهدأ والغوغاء تخمد والناس تعود إلى سعيها المعهود، حتى تردّد في تلك الزوايا المعتمة قولٌ نابٍ سرى في البلاد سريان السمّ في الأوصال. كلمات في سواد الفحم الذي كتبت به على حائط بيت بحيّ بائس في حزام المدينة. وتناهبتها عيون اللئام قبل محوها بالجير، وسرعان ما تناقلتها ألسنة السوء حتى غدت حديث الناس في المقاهي والشوارع والخمارات المحظورة، وتلقّفها الأوشاب فراحوا يرسمونها على الحيطان، فشكّلنا فرقا متخصصة في طلي الجدران لمحو الكلام المشين، وكانت كلما جيّرت جدارا انبجست في الظلام كتابات مماثلة في أحياء أخرى، فجعلنا دوريات من الميليشيا تتعقّب تحركات الأوشاب وتستقصي أخبارهم وأوكارهم، ورصدنا مكافآت لمن يدلّنا إلى مواقعهم حتى أوقفنا خلقا كثيرا عجّت بهم السجون دون أن نصل إلى الفاعل الأول، صاحب الكلام المخزي الذي يندى له الجبين وتقشعر لذكره الأبدان. انهال عليهم الجلادون

بالضرب المبرّح وأنواع التنكيل والتعذيب فما نطقوا إلا بما اقترفت أيديهم الآثمة. كلهم سمعوا الكلام فنقلوه أو كتبوه، وما من أحد فيهم أقرّ بالفعلة الأولى، جرثومة البدء التي ذرت السوء حتى كاد يعمّ لولا الوقفة الحازمة والعيون الساهرة.

وتناهى إلى علم الكبير بعض مما يشاع، فدعاني يستطلع جلية الخبر، فقلت أطمئنه:

- طيش شباب كان له رجالنا بالمرصاد.

ركّز فيّ عينيه النافذتين ورازني حتى خلت أنه نفذ إلى أعماقي وأدرك ما فيها، وسألني:

- هل تعتقد أنه يوجد في بلادي من يشنوني؟

قلت على الفور:

- لا عاش من يشنوك يا مولاي!

وأنشدت قول الخنساء:

وما بلغت كفّ امرئٍ متناوَلاً
من المجدِ إلاّ والذي نلتَ أطولُ
وما بلغ المُهدون للناسِ مِدحةً
وإن أطنبوا إلا الذي فيك أفضلُ

وأخذت أعدد خصاله وشيمه وأفضاله على الأمة، وأسوق أمثلة عن تعلق الرعية بشخصه الكريم، واستعدادنا لفدائه بالدم والروح. انبسطت أساريره كأنه تناول شرابا لذيذا أو شمّ ريحا ذكية، وأطرق قليلا ثم عاد يسألني:

- كيف حال الرعية؟
- كما قال لبيد.
- وماذا قال؟
- فمنهم سعيدٌ آخِذٌ بنصيبهِ ومِنهُم شَقِيٌّ بالمعيشةِ قانِعُ
- وكيف نرفع عنهم الشقاء؟
- بالعمل يا مولاي.
- وماذا يعملون؟
- في حظائر البناء.
- امتلأت.
- استصلاح الفيافي ومدّ الطرق.
- والأجر؟
- نخيّرهم بين التجنيد والخدمة المدنية، وكلاهما تطوّع لخدمة هذا الوطن.

فغالب ضحكة كادت تندفع من بين شفتيه وبدا رقراقها صامتا في عينيه، ثم قال:

- وهذا الشباب الطائش؟
- جنَت على نفسها بَرَاقش. ما ظلمناهم ولكن أنفسَهم كانوا يظلمون، وعقاب الظالم معروف. فإن كنّا نقول للمحسن أحسنت ونجزيه الثواب، فإننا أيضا نقول للمسيء أسأت وننزل به العقاب. وعقاب المذنب لا يكون على قدر ذنبه، بل أقوى وأشدّ، حتى يكون القصاص عبرة لمن يعتبر وشكيمة تلجم الجامحين.

هزّ رأسه في إعجاب خلت معه أن قلبي يقلّبه بين الجوانح طائر ثم قال:

- الضيعة التي حدثتني عنها...

وصمت حتى تستقرّ كلماته في مستقرّها من نفسي ثم أردف:

- ... هي لك.

- وصاحبها؟

فقطّب جبينه وحدجني بنظرة ذات دلالة وقال:

- اذهب. لن يكون فيها أحد.

ومضى ليمارس طقسه المعتاد ليلة كل جمعة، يفتض أنثى في ربيع العمر ثم يزوّجها واحدا من خدمه أو حرّاسه.

عندما خلوت إلى نفسي، واسترخيت على الفراش الناعم قفز إلى ذهني الكلِم الممنوع، أبيات ذلك المجهول المتخفّي تحت ستائر الظلام:

بلادي بلادُ الزّنى والمكائدْ   وسلطانُها في الدّنى شرّ قائدْ
مناراتنا في الدجى مطفآتٌ   وأمجادُنا مِفْرَشٌ ونَضائدْ
نسُرّ الأعادي   وكلَّ العِبادِ
وتبكي بلادي   بلادي بلادي

تلبّست بي حيرة لاهبة، فالأبيات معارضة على النهج القديم لقصيد الكبير، وصاحبها ممن يحذقون الشعر العمودي فيما يبدو، فمن تُرى يكون والشعراء التقليديون منّا وإلينا؟ هل نكص أحدهم على أعقابه فاغتر بكلام المغضوب عليهم أم هو محض تضليل؟

ومنذ طلوع الفجر أرسلت عيوني في كل مكان يترصدون حتى الدبيب على الثرى والضحك المشوب بالسخرية وغمز العيون المستريب والكلام المتطاير وقت الغضب، دون أن تبتلّ حيرتي، حتى كدت أيأس.

وفي ليلة، جاءني أحد رجالي، واسمه أبو السعد، بمعلومة بدت لي أول وهلة تافهة غير ذات جدوى: امرأة تبيع كتبا قديمة على قارعة الطريق، ولكن سرعان ما انجلت القشرة الخارجية عن حقائق مذهلة تسلِم إحداها إلى الأخرى، فما كدت أقرأ قائمة الكتب حتى صُعقت. متون من عيون المدونة التراثية ذات العيار الثقيل، من ديوان الصّبابة لابن حجلة المغربي وديوان الطواسين لأبي منصور الحلاج وسير الملوك لنظام الملك الطوسي وكتاب الإفادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادي إلى شجرة اليقين لعبدان القرمطي وكتاب المحن لابن تميم وتهذيب الرياسة وترتيب السياسة لأبي عبد الله القلعي، مرورا بإغاثة الأمّة بكشف الغمة للمقريزي وقانون الوزارة وسياسة الملك للماوردي وكشف المحجوب للهجويري... واشتممت أن وراء الأكمة ما وراءها، فأمرتهم بتعقّب المرأة لمعرفة أسرارها، فإذا هي زوجة رجل عاطل في أرباض المدينة، واستقصينا أخبار الرجل فإذا هو من حملة الشهادات ومن المولعين برصف ذلك الكلام الغامض المتناثر الذي يسمونه بالشعر الحر. أدركت أننا بدأنا نمسك برأس الفتلة، وسألنا عن أهل المرأة فإذا والدها مثقل بالهموم، يرتمض فرَقا على ما آلت إليه ابنته التي ما عادت تجد في بيتها غير الكتب والقراطيس، فهل تبيع الكتب أم تبيع نفسها لكي تطعم من جوع؟

وفاض بالكلام مثل كوز تحطم فانكفت ما فيه، وقال إن صهره تغيّر منذ اختفاء أخته، وكان قبل ذلك مدرّسا محترما وإلا ما كان زوّجه ابنته، وتتالت عليه الهموم حتى انطوى على نفسه ولم يعد يغادر البيت إلا ليلا، وقيل إنه استقال، وقيل فُصِل، والثابت أنه لم يعد يجد قوته ولا قوت زوجته. وقال أيضا إنه أعان زوج ابنته ما استطاع ولكن ما باليد حيلة، ولا بدّ لكل شيء من نهاية. سألناه عن الأخت المختفية فقال هي شامة بنت صالح التبريزي. وبالتحرّي عرفنا أن الكبير تزوّجها ليلا وطلّقها فجرا، ليزوّجها خادما من خدم القصر.

عند هذا الحدّ، توضّحت الخيوط بما فيه الكفاية، وأيقنت أن للزوج من الدوافع ما يؤكد أنه صاحب الفعلة الشنيعة، وعجبت من نقاوة صحائفه حتى اتهمت رئيس البوليس السري بالتقصير وهددته بالتنحية. أمرت بإشخاص المظنون فيه، ولما أدخِل عليّ وجدت قبالتي رجلا في العقد الرابع، خلق المظهر متين العود قمحي البشرة رفيق الطول، تشتعل عيناه حدّة ونباهة. سألته عن اسمه فقال:

- عبدون بن صالح التبريزي.

تريّثت حتى أشحن الجوّ بثقل يخلخل ثقته ويفلّ عزمه ثم قلت:

- خير لك أن تعترف.

- بِمَ؟

- بذنبك.

- أيّ ذنب؟

- أنت تعرف.

قال بنبرة الواثق الذي لم يرهبه المقام:

-الذنوب مسألة نسبية وليست علما صحيحا تخضع فيه الأشياء لمنطق ثابت.

قلت: «ماذا تعني؟» وأنا أستشعر حاجة إلى توريطه في عثرة من عثرات اللسان، فقال بهدوء كمن يشرح للصبيان درسا:

- ما هو ذنب في نظر زيد ليس بالضرورة كذلك في رأي عمرو. المسألة مرهونة بزاوية النظر.

قلت أستدرجه إلى مزيد الكلام:

- الذنب ذنب منذ بدء الخليقة.

هزّ رأسه بالموافقة وقال:

- هذا صحيح إذا تعلّق الأمر بالشعب.

توثبت حواسي حتى كدت أنطّ من مجلسي وغمغمت في سرّي: «ها قد بدأت تقع يا ابن اللئيمة». ثمّ قلت أستفزّه:

- أنت لا تعترف بالقوانين؟

سأل بدوره بصفاقة:

- أية قوانين؟

قلت: «قوانين البلاد». وبي رغبة في صفعه لأطفئ تلك النظرات الغامضة الوقحة التي كان يروزني بها قبل كل جواب، فقال بجرأة كادت تفقدني أعصابي:

- إذا كانت خاضعة للمنطق، أما إذا كانت تستجيب لمنطق معيّن فالمسألة فيها نظر.

عندئذ رميته بتلك التهمة التي لا نحتاج فيها إلى بيّنة، ولا يجد لها المتهم إمكان دحض:

- أفهم من كلامك أنك معارض.

ردّ بهدوءٍ هالني:

- من سنّة البشر إباء الضيم.

قلت أشدد عليه الخناق:

- وأيّ ضيم لحقك؟

حدجني بنظرة فيها مزيج من سخرية وجفاء وقال:

- أنت أدرى يا حضرة الباش كاتب.
- ما أعلمه أنك مفصول عن إخلال، أما أختك...

فقاطعني بحدّة:

- لا داعي للحديث عن أختي.

ولمحت أطرافه ترتجف لحظة فقّع إثرها أصابعه، ثم استعاد هدوءه واتّزانه، فداخلني دفق انتشاء غمر صدري كمن اهتدى إلى حلّ بعد إجهاد، ورمقته بنظرة فيها تشفّ وفيها خبث، وسألت أنكأ جرحه:

- لماذا؟

تريّث كالمتردد، كأنما عدل عن إجابة أخرى وقال بصوته الهادئ الواثق:

- ما جدوى الحديث عن الخاصّ إذا صار حالة عامة؟

فنهضت من مجلسي ووجّهت إصبعي نحوه ظافرا:

- كلامك هذا دليل إثبات.

- إثبات ماذا؟

قلت: «جرمُك». وبي ندم على إضاعة الوقت، بدل انتزاع الاِعترافات بالطرُق المعتادة، فقال كأن الأمر لا يعنيه:

- المتهم بريء حتى تثبُت إدانته.

فضربت النّضد الذي أمامي بجمع يدي حتى تطايرت أشياؤه وقلت:

- بل المتهم مُدانٌ إلى أن يُثبتَ بنفسه براءته.

لمحت على ثغره رقراق ابتسام، وسمعته يقول بصوت خفيض:

- هكذا العدل أو لا يكون.

قلت مغتاظا وأطرافي ترتجف من شدة الغضب:

- أرى أن اللين لا ينفع معك.

فردّ بلهجة من أسلم نفسه للأقدار توجّه مصيره حيث شاءت:

- سيان عندي اللين والشدّة.

دنوت منه حتى كاد وجهي يلامس وجهه وقلت متوعدا:

- لا تركب رأسك فتندم!

فقال قول يائس من الحياة:

- من عارض السلطان زهد في الدنيا.

ولّيته ظهري عائدا إلى مكتبي لتوجيه أمر لم يعد يحتمل التأجيل، وقبل أن أضغط الزرّ استدرت لأقول:

- هذا كل ما تعلّمتم من الغرب.
- بل هو كلام أجدادنا يا حضرة الباش كاتب.

لم يكن يدرك حتما ما يخبئه الزرّ. كأنّي وضعت إصبعي على زناد مسدّس موجّه إلى قلبه، حركة وينفتح الجحيم على مصراعيه. قلت ونذُر الوعيد تتطاير من عينيّ، لعله يوقن أن حياته ما عاد يشدّها غير شعرة:

- أعرف، ولكن ما عاد ينطق بها غير دعاة السوء، وأنت واحد منهم، سواء اعترفت أم لم تعترف.

وأضفت:

- تأكّد أنّ لنا كل الوسائل لحملك على الِاعتراف.
- وسائلكم لا تخيفني، لأنها لا تقدر إلا على جسدي، أمّا الروح فهيهات.

عندئذ ضغطت الزرّ، فاقتحم المكتب عضاريط أشدّاء لا تطرف لهم عين، واقتادوه مكبّلا إلى حيث سيم كل أنواع الإذلال، وما نطق لسانه بنفي أو إثبات. ووجدتني أشفق عليه، وأنا الذي لم يدخل الإشفاق قلبه، وما لان أو تهاوى إلى طلب المغفرة. وكلما حاولت استمالته تعنّت وتأبّى، وفي عينيه المرفوعتين إليّ نظرات تنضح بالسخرية. برغم التعذيب والتنكيل، لم أشعر لحظة أنّ قلبه ينفت بالكره والعداوة على أيّ كان. لكأنه يرثي لحالي وحال جلاّديه، كأنه يريد أن يقول إنّ ما تبحثون عنه عزيز المنال، فما أصبتم غير كتلة من لحم وعظام، أما الجوهر، أما الروح، فدونه خرط القتاد.

ومات مبتسما كأنما نحن الضحايا وهو الجلاّد. وعادني طيفه في المنام لياليَ ضاحكا شامتا ساخرا مستفزّا، ووجهه الطافح بالعذاب يلهب مضجعي، وجسده المثخن بالجروح يوقظ فيّ أوجاعا لا تنتهي، حتى باتت لياليّ كوابيس مرعبة، فقرّ منّي العزم ألا أستنطق بعد ذلك اليوم أحدا أو أشهد عذاب أحد.

رفعت إلى الكبير تقريرا عن صفاء الجو من كل الشوائب وقطع الشر من دابره، وختمته بأنّ أعداء الأمة في خبر كان، فنلت عن ذلك محلاًّ تجاريّا ضخما بسرّة المدينة، وحمدت الله أن كلام السوء انقطع من الحيطان تماما، وما عادت تُرى على صفحاتها غير مآثر الكلِم الطيب من أقوال الكبير. أما الأرملة الشابة البائسة فقد ألحقناها بالقصر وزوّجناها أحد الخدم، فاستعاضت عن السعادة الموهومة بالأكل الفاخر والفراش الناعم. ورغم ذلك ظلت صورة الرجل تلمّ بي كالطائف في المنام، تعذب مني العين بحضور حادّ.

ومنذ ذلك الوقت أيقنت أنّ الحذر واجب والتيقظ محمود حتى لا تنبجس من ظلمات الأحياء العطنة نفوس شرسة في صلابة المعدن المُصمَت، ويقينا أنه لو تهيّأ لها إباء ذلك الرجل، لتقوضت أركان الدولة وآلت إلى حطام لن ننهض بعده. وأحمد الله على حسن المثاب وإلا لنالني من الكبير أكثرَ مما لقيت عقب يوم قائظ من أوسُّو منذ بضعة أعوام زمن عكاظيات المولد، حين هبّ شاعر من ولاية هُبَل، وأطلق في عنان السماء كلاما أقام الأرض بمن عليها، ولم يقعدها إلا على رؤوسنا أجمعين.

انهدّ الصرح الذي بنيته بصبر الجِمال وأناة النمل، وجُرّدت من المنصب والأملاك. حتى من كانوا في خدمتي، نساءً ورجالا، حرمت منهم، ووجدتني حبيس بيتي لا أتخطى بابه إلا بإذن. وروّج الحسّاد عني أخبار الشماتة والحقد، وزعموا أن الكبير وجّه إليّ تهمة الخيانة العظمى والتآمر على أمن الدولة. والحق أن الكبير أقال الحكومة كلّها، ولكنه لم يلحق بأعضائها ما ألحقه بي من إقصاء وإدانة صامتة وتضييق، بسبب صلتي المباشرة بالحادث.

جرت العادة في عكاظيات المولد أن يكون لي اطلاع مسبق على كل ما أعدّه الشعراء للمناسبة، فأتنخّل القصائد، وأغربلها غربلة دقيقة لأجيز ما يليق بقدر الكبير، وأمنع ماحل القول ومرذول الكلام، وما كنت أحسب أنّ شاعرا يمكن أن يراوغني لنية مبيتة، فيقترح عليّ قصيدا، ويلقي عند الأوان قصيدا آخر. الراضي الأشرف أو الشّرفي في ما أذكر. ذلك هو اسمه. رجل بحتريّ القامة عبوس قطوب كالح شتيم الوجه كأنه منضوح بالخلّ. جاءني بمدحة من الشعر الشعبي طالعها:

يـا كبـير حبّـك الشـعب وأعـطاك ربـّـي الـكـمالة
حــبّــك سـاكـن في القلـب مـا في مـثـلك جـلالــــة

ولما حان دوره اخترق الصفوف ليمثل بين يدي الكبير ويستظهر بالقصيد من الذاكرة كعادة الشعراء الشعبيين، وكنت آنذاك في المنصة الرسمية حيث الوزراء والوجهاء والأعيان، قريبا من الكبير، واقفا على أهبة تقديم الإضاءات المحتملة. رأيته يستنكف من رؤية البحتر كأنه يتطيّر من شر وشيك، ثم يداري استياءه بابتسامة مقتضبة يصوّبها

نحو عدسات الكاميرا المنتصبة حوله، وسط هالة من الأضواء وحشد من معالم الزينة ودفقات حارة من أمارات البهجة.

تعلّقت الأنظار بالشاعر البحتر المدموك في دهش وفضول كأنها تنكر عليه قول الشعر، فمثله، بذلك الجسد المجرمز وتلك القامة المدكوكة وتينك اليدين الخشنتين، لِدَمن الحقول أجدى وحلب الشياه أنفع. وتطلع الرجل إلى الكبير لا ممعنا وجلا ولا رهبة كأنه هاء للأمر منذ سنين، وأنشد بصوت عالٍ فيه بحّة وفيه خشونة:

يــــا كبــير حــبّــك الشــعب   وأعــطاك ربـــّي الــكـــمالة

ندّ من بين الجموع صوت امرأة: «عاش الكبير!» فردّد الناس في صوت واحد يكاد يقوّض ركائز السرادق الذي أقيم خصيصا للمناسبة: «عاش! عاش! عاش!» وارتفع صوت رجل يهتف: «أعد! أعد!» فسرى في الجمع سريان النار في الهشيم، وإذا الحاضرون يرددون: «أعد!» وآخرون ينادون: «بيس! بيس!» كأنهم في حفل غنائي. وانفرجت أسارير الكبير، فسوّى جلسته ولوى رجْلاً على رِجْل، وأشار بمروحته المزركشة إلى الشاعر بأن يعيد. رفع الرجل رأسه باعتداد ونفخ صدره وأعاد:

يــــا كبــير حــبّــك الشــعب   وأعــطاك ربـــّي الــكـــمالة

وأردف بحقد وتشفّ، ويداه ترتجفان من الحنق، ونثار الريق يتناثر من فمه:

سَفسُــوفْ كلــب ابــن كلــب   لا تَـــرحـــمْ لك ســـلالة

تجمّدت الدماء في الشرايين لحظة كأنها الدهر، وجحظت العيون

كأنها غادرت محاجرها، وتوقف الشعر كالشوك، وأنكر الناس ما سمعوا وظنوا بعقولهم الظنون، وترامقوا في ذهول كأن الزلزال مرّ عليهم بغتة فلم يعد أحد يعلم إن كان نجا أم هلك، ثم هلعوا وشخصت عيونهم إلى البحتر، وسرت همهمة وتصاعد اللغط حتى لم يعد بعضهم يسمع بعضا، وما هي إلا ثوانٍ حتى هاش القوم واندفعوا كالسيل الجارف نحو الرجل ينهشون لحمه نهشا، واللكم والركل والصفع والشتائم تنهال عليه كالرجوم القاتلة، ولولا رجال الأمن الذين سارعوا بتطويقه ودفع الناس عنه لمزقوا لحمه شرّ ممزق.

انصبّت الأنظار على الكبير، وتابعت قومته العنيفة وخطوه الموتور وهو يخترق الجمع الذي انشطر ليوسع له الطريق إلى المجرم، وغرز عينيه المتقدتين بجذوة حارقة تسفع الوجوه في عيني الرجل البحتر فما نكّس البحتر أو أغضى، وظلا يتراقبان في صمت متصل لا يفوهان بحرف ولا يطرف لهما جفن، والناس من حولهما صامتة شاخصة ذاهلة لا تصدّق ما ترى. وصرخ الكبير بصوت ارتجّ له السرادق وتخلخلت الركب وارتجفت القلوب، وهوى على الوجه الوقح بصفعة تردد صداها مثل فرقعة السوط، ثم قال والتوقد في عينيه يزداد سعيرا:

- لا يلمسنّه أحد! جيئوني به الليلة!

وحين استدار، زحفت من محجريه نظرة ثقيلة كاوية أوهتني إلى القاع.

وفي بيتي الذي تحول إلى إقامة جبرية علمت بفورة الغضب التي

اجتاحت الكبير، فأصابت أعضاء الحكومة بإقالة جماعية لا رجعة فيها، وانهمرت على مدينة هميلات من ولاية هبل مسقط رأس البحتر في شكل قنابل من سلاح الجو حصدت الأحياء والأشياء، وقذائف مدفعية من سلاح البرّ عقبتها المرداسات والجرّافات والحادلات تمحو من وجه الخريطة مدينة بدُورها ومعالمها وأهلها وأنعامها وفيرانها، ثم رُشّت بالملح حتى تهجرها الحياة هجرة ليس بعدها إياب إلى يوم القيامة.

أما ذلك المخبول الذي ختم الله على قلبه، فقد قطع الكبير بنفسه لسانه وسمل عينيه، وأمر بأن تُسدّ كل فُتَحِه، ويُلَفّ عاريا بالقطن، ويُعرض لِلَظى الشمس طريح الأرض مكبّل الأطراف في أوتاد أربعة. وظلّ الجسد مسجّى في الساحة البيضاء أسبوعا، ومات كالكلب الذي عيّر به مولانا. انتفخ وانفجر وغزته الديدان والذباب تنغل في جيفة جفلت من ريحها النتنة حتى القطط والكلاب. ثم أمر الكبير بإقامة مراحيض عامّة في كلّ المدن تحمل اسم الرّجل سيّئ الذّكْر حتى تعلم كلّ نفس زائغة المآل المنذور. وراج لدى العوامّ تعبير لا نعلم مَنشأه، فقد صار المرء إذا أراد فكّ حصر نفسه قال: «سأبول على الشّرفي».

وقيل لي أيضا إن الكبير كان ينوي في البداية عقاب الآثم وحده، ولكنّ نار الشكّ فارت حتى أغرقت مخه، فأجمع أمره على إطفاء الجمرة قبل أن ينتشر لهبها ويدكّ الصروح.

وأتى عليّ حين من الدهر انتقض فيه طبعي وأدبر أمري وظهر وهني وشمت بي أعدائي، وصاروا يستثقلون ذِكري ويستشنعون

فعلي ويُسرفون في ذمّي، كأني صاحب اليد الطولى في استهتار ذلك الرجل المخروم حتى صرت كالمجلود بغير سوط، أتلقى من الصّفع ما لا يُرى ومن الذِلّة ما يدركه كل ذي عين بصيرة. وضقت ذرعا بمصيري فرفعت إلى الكبير مكاتيب استرحام شرحت فيها عسر الحال وسوء المآل، وقلت فيما قلت إني لم أقترف ما يستأهل هذا الجفاء، فقد أتيت من الذّنوب ما يذلّ حجمه عمّا ألاقي من صدّ وإقصاء وذلّة وانكسار، فما خنت ولا تواطأت ولا بيّتّ سوء نيّة، وإنما الذنب كله أني لم استكشف طوية ذلك المعتوه، فحكمت بالظاهر، وكان عليّ أن أتولّى الظواهر والسرائر، فأنفذ إلى خبايا الرجل وألجم لسانه وأشكم حقده وأكتم صوته في صدره وأصفّد يديه قبل أن تندّ عنه حركة. وكتبت قصيدة قلت فيها متشبّها بأبي الطيب:

فما تنصُر الأقدارُ من أنتَ غالِبٌ
ولا تغْلِبُ الأقدارُ من أنتَ ناصِرُ
ولا تكسِرِ الأيامُ ما أنت جابرٌ
ولا تجبر الأيامُ ما أنت كاسِرُ

إلى أن قلت:

ولا ينكُف المنكوبُ دمعَ الفواقعِ
إلاّ وأَمرٌ منكَ للظلمِ ناكِرُ

وسرّبتها إلى أحد أصفيائي لنشرها على أعمدة «الخلود»، لعلّ ذلك يمحو لدى الناس ما راج عن ارتدادي، ويفتح لي في صدر الكبير رحابة الأيام الخوالي، ولكن رئيس التحرير أبى وارتاب كمن قُدّمت له بضاعة محرّمة أو صكّ مغشوش. حتى تلك الصحف التي تزعم

الاِستقلال تمنّعت وتذرّعت بألف عذر، ولم أجد من يفتح لي صدره أو ينشر أذنيه لأسمِعه أني على عهد الكبير باقٍ ما بقي بين الضلوع رمق، فمن غضب عليه الكبير غضبت عليه الدنيا وعافه الناس ونبذه المقرّبون، ولن يجد إذا مات عينا تبكيه، مثله كمثل ضبع هلك في الخلاء لا يتفقده أحد ولا يتألم لموته أحد.

استبدّ بي اليأس وثقل على كاهلي، وبتّ أرنو إلى النعيم كما يرنو الغريب إلى طلل قديم، واسترجعت في لحظة استذكار خاطفة، كمن حضرته المنية بغتة، أطوار حياتي الخالية من مذاق سيرة الرجل العادي، لا زوجة ولا أبناء، نصيبي من الحياة مجرد ساعات لهو وخمر وقيان، ساعات مخطوفة من رزنامة منذورة لاعتلاء سلّم المجد في ظل الكبير، أرتقي خلفه السلّم درجة درجة كالخادم الوفيّ، وعندما أيقنت أني بلغت منتهاه ألفيته يطل من شاهق على قاع بارد خاوٍ، لا خلّ فيه ولا رفيق غير صفيّي أبي السعد الذي لا تزال المكارم السابقة تفعل فعلها فيه. وفي لحظة استنفار قصوى، أطلقت نفاثة صدري الأخيرة، وألقيت قارورة غوثي في بحر مضطرب الموج مربدّ الآفاق. كلمات بمداد القلب ترجو الحسم حتى لا أبقى كالمعلّقة، متّهما بغير إدانة، وبريئا مقيّد الحركة.

بيتان لا غير:

إنْ تَعْفُ عنّـي يُمْحَ الغَيُّ واللجَبُ
لـولاك لم يَـكُ لي عِـــزٌّ ولا نَشَـبُ
أوْ تَـأبَ مَظلَمَتي فالمـوتُ أعْذَرُ لي
والقبرُ أهــوَنُ والـظلـماءُ والشّجَبُ

بيتان بالخط الديواني الذي يعشقه الكبير، على ورق صقيل أملس خال من الإِستهلال والختام. كصرخة ألم مدماة في وضح النهار، صرخة عارية لرجل أعزل يلفّه الفراغ والنسيان، استغاثة رجل وحيد تناذره العِداء من كل أوب. زوّدت أبا السعد بكل الحيل الممكنة التي تعينه على اختراق جدران الصدّ التي تحوط الكبير، والحق أن له من النباهة والدهاء وطلاوة اللسان ما يجعله في غنًى عن نصائحي للنفاذ إلى المواقع المحرّمة كما ينفذ الخيط من خرت الإبرة. واستطاع دونما عناء يذكر إبلاغ الرسالة التي لا تحمل اسما ولا توقيعا، وإنما بصمة خفية لا تخطئها عين الكبير، وبقيت أنتظر الردّ الحاسم لياليَ من سهاد مرير، يقتاتني الغمّ والجزع، وتنهشني الهواجس والوساوس، وترتادني صور وأخيلة مظلمة، أبيت الليل مضطجعا على أسنّة من رماح. عفت الأكل حتى كبَتْ ملامحي وضمر جسدي ووهنت حركتي.

وطال بي الِانتظار وكاد يجتاحني اليأس، لولا أمل ضعيف كان يتراوح بين الضلوع كالرمق في صدر مُحتَضَر.

وفي فجر يوم تنذر شمسه بوهج يصهر الأبدان، جاءني من الكبير رسول منصلت كحدّ السيف لا يشي وجهه الصارم بما وراءه، بل لا تعكس ملامحه أدنى انفعال. اكتفى بقوله: «مولاي يطلبك» بنبرة حياد عجيب لا أثر فيها لغلظة أو جفاء، ولا شدّة أو لين، ثم لزم الصمت كأنه فقد لسانه. ولكم حاولت في السيارة التي أقلّتنا أن أستشف بصيصا مما يُعقَد لي في القصر، شيئا مما يخبّئه لي الكبير. وراعني أن يبعث في طلبي على وجه الفجر كمن يساق إلى ساحة الرماية أو المشنقة، ولعبت بعقلي الظنون حتى ارتعدت من الخوف

فرائصي، وتماثلت لي نهايات مرعبة. تساءلت عن هذا القضاء الذي لا يستند إلى دليل، وعن قيمة الإنسان في نظر الكبير. كل عزيز عند الأمير ذليل، كذلك قال الحكماء الفرس، فهل أُذَلّ بجرّة قلم وأُساق إلى الموت كما تساق الشاة إلى المسلخة، هكذا دون أيما فرصة أدره بها التهمة عن نفسي. وفكرت في الدفاع لو أتيح لي، فبدأت أعِدّ مرافعتي كما يفعل المحامون حين يأذن لهم الكبير، وأرتّب أفكاري المشوشة، وأصطفي الكلام لعلّ محاسنه تنجيني مثلما أنجت شهرزاد من السيف والنطع. وحين تذكرت الكبير ضاع مني الكلام. لشدّ ما يكره القانون إذا نطق به أحد سواه، والخطبَ إذا لم تجر مجرى المديح والاِستغفار والتوبة، فعدلت عن رأيي وكظمت أمري.

في القصر، تركني الرسول أعد دقائق تتراكم كالهموم بغير نهاية، فتتناوب على رأسي الظنون تناوب الحمّى في برودتها وسخونتها، وأنا أرقب أكرة باب القاعة التي عُزلت فيها، في أمل يكتنفه يأس. وطال الوقت وتمطط حتى خِلت القاعة سجني الجديد. ثم جاء من يدعوني للمثول بين يدي الكبير، فامتثلت ولثمت يده وجلست حيث أشار إليّ، في مقعد واطئ قبالة مكتبه الفخم المرصع بالتحف النفيسة، وكان يقتعد أريكة وثيرة تنبو عن العلوّ المعتاد، وتشرف على القاعة كلها، وخلفه إطار من ذهب به إحدى الصور التي رسمها فريني. جرت عيناه عليّ في فتور تام، وقال يسألني دون مقدمات:

- أين كنت؟

- في بيتي.

- لماذا؟

- لأنّ مولاي غضب عليّ.
- وهل تدري سبب الغضب؟
- تقصير منّي.
- وما عقاب المقصّر؟
- ما يراه مولاي.

أطرق قليلا ثم قال:
- عسى أن تكون قد اتعظت.

قلت وقد دبّت في جسدي المتهالك صحوة أمل مباغت:
- كلّ العِظة يا مولاي.
- اِذهب. لقد عفوت عنك.

قلت وأنا أنكّس هامتي امتنانا:
- لك الشكر والحمد يا مولاي. لقد كتبت لي برحمتك الواسعة وحلمك الكريم حياة جديدة.
- هي فعلا حياة جديدة، تبدؤها من حيث يبدأ المرء الحياة.

وأدركت ما عناه فقلت على الفور:
- العبد وما ملكت يداه لسيده ومولاه.

وغادرت القاعة وأنا أسبّح باسمه وأردد:
- مولاي إن كنتَ أخذتَ فقد أعطيتَ.

صودرت أملاكي ولكن كُتبت لي النجاة، وكان لا بدّ أن أشحذ ذهني لارتقاء سلّم المجد من جديد بدءا بالدرجة السفلى كعهدي حين وُلّيَ الكبير، وأن أبلغ الخَضْم بالقضم كما تقول العرب تعويضا

عما ضاع منّي. وكان لزاما عليّ أيضا أن أستعين بمصالح الأمن المختصة لمعرفة كل صغيرة وكبيرة عن سائر الكتبة وحملة الأقلام والمداحين، ورحت أستجلي أصلهم وفصلهم وأهواءهم ومشاربهم، وأستقصي مواقفهم الخافية والمعلنة وطبيعة الحلقات والمجالس التي يختلفون إليها، وأستكشف علائقهم بجهات أجنبية مشبوهة ومصادر عيشهم ودخلهم وخرجهم، وجمعت ذلك كله في خزينة أسميتها «بنك المعلومات»، مفتوحة على الدوام تلتقم المزيد، فلم يبق في البلاد شعرور لا أعلم ما بين يديه وما خلفه.

ومنذ ذلك التاريخ عرفت كيف أمسك الخيوط من حيث ينبغي أن تمسك، حتى لا ينهض من بين الخلائق دَعِنٌ يقوّض ما ابتنيت بجهد غير ملول. وأطلقت في الأثناء العنان لقلمي يصفّي مع خصومي الحساب، في مقالات يكاد سعيرها يحرق ورق الجرائد، أجلد ظهور من سرّهم مصابي، وأشفعها بين الحين والحين بقصائد تطيح بمن وصفتهم بالنافثين السمّ الزّعاف لدفع الرعية نحو قرارة مظلمة، وأسحب إليّ البساط شيئا فشيئا، حتى غدوت أنا والكبير صنوين، نتجشّم مجدا لا يندثر، وننهض لرفع الصرح الذي تطمح إليه الرعية رغم أدعياء الردة والعِداء. ولم أكفّ عن جلدهم إلا حينما دعاني الكبير إلى توجيه سهامي صوب أعداء الأمة في الخارج، فقد تكشّفت الأحداث عن حملة غربية مسعورة، تستصرخ العربان للتنمّر والتمرد والثورة على «طاغية يقود بالقهر شعبه» كما يزعمون، ورؤوس الحربة خونة باعوا ضمائرهم واحتموا بالغريب، وأقلام مأجورة تُستكتب حسب الطلب.

أعددت لمواجهتهم فريقا كاملا من خيرة ما أنجبت معاهد علوم الأخبار، وحدّدت المهام على نحو يكون فيه الردّ موزّعا بين الدفاع والهجوم والإِستعراض، فتولّى بعضهم مقارعة الإِفتراءات والمزاعم المغرضة بقوة الحجة، وتكفّل آخرون بنشر غسيل الغرب المثقل بالأدران، وقام الباقون بتصوير مظاهر نهضة البلاد في أبهى تجلياتها، أما أنا فقد اضطلعت بتصفية الحساب مع الخونة في مقالات لاذعة وقصائد هجائية ومقامات ساخرة، علاوة على تحريك مسيرات التأييد والتنديد تحريكا خفيا لا يتقنه غيري. وغصّت الشوارع كالعادة بخلق غفير تعبيرا عن وفائها للقائد ومباركة سياسته الرشيدة، وتعالت أصوات الشجب والتنديد بالصلف الغربي ونزوعه العدواني. ولم نفلح، رغم ذلك كله، في إخراس الأصوات الناعقة من معاقل لا تطولها يد الكبير، والمنفلتة من أي قانون رادع، وكل الردود التي تلقيتها جوابا على مذكرات احتجاج رفعتها إلى سفارات الدول المعنية جاءت متفصّية من أي دور، زاعمة أن ما ينشر ويذاع هناك في ما وراء البحار لا يعبّر إلا عن رأي أصحابه، ولا يوافق بالضرورة موقف الحكّام.

أفهمني أبو السعد، الذي عاش ردحا من الزمن في بلاد أجنبية، أن الغرب ليس كلاّ متجانسا، وإنما هو خليط من متناقضات متنافرة لا تلتقي إلا حول النفع الآني والمصلحة الفردية، ففيه الرجعي والتقدمي، واليميني واليساري، والشيوعي والليبرالي، والمؤمن والملحد، والعالم والجاهل، والثري والمتشرد، والمستقيم والفاسق، والنصير والمعارض، والجميع يدورون في رحى محورها المال والجنس

والحرية المطلقة، وقال لي لا نعدم في الأجانب، إن أجزلنا العطاء، أصدقاء يتبنّون آراءنا ويدحضون المزاعم المغرضة، ويخرسون بما لهم من دراية بشؤون بلادهم ألسنة السوء السليطة، فتتحول المعركة إلى صراع حضاري في عقر دارهم، نكسب من ورائه صورة تغاير تلك التي يسعى الأعداء لتقديمها، فينجلي بذلك الزيف والدجل.

جهزت أبا السعد بما يلزم لأداء مهمته على الوجه المرضي، وسافر إلى إحدى العواصم الغربية ينشد ضالته، وعاد مصحوبا بمدير مكتب كبير للعلاقات العامة يدعى ألبير لوفافر وبعض من أتباعه.

استقبلت الرجل في مكتبي. كان أنيقا وسيما مدوّر الوجه صافي البشرة كأنه اعتاد الِاغتسال باللبن، خفيف الشعر متّقد النظرات، له أنف مستقيم مدبب الأرنبة وسمته نظارات مذهبة الطوق بحزّ خفيف، وفي جسمه نضارة العيش الرغيد. شرحت له المطلوب فإذا به يحدّثني عن مهمات مماثلة اضطلع بها في أمريكا اللاتينية وإفريقيا السوداء وجنوب شرقي آسيا نال عنها رضى الحكام في تلك الأمصار وأكسبته صيتا طبق الآفاق.

قلت:

- نحن نريد أن نحوز رضى الحاكم والرعية.

التمعت عيناه الزرقاوان من خلف زجاج النظارة وقال:

- هذه مسالة عزيزة المنال، إن لم نقل غاية لا تدرَك. فالرعية في مجملها تأنف من الحاضر، وتحلم بتغيير يفتح أمامها الباب على غد مشرق وفجر مضيء، والحاكم يعتبر الحاضر أفضل

الإمكانات على الإطلاق، مضيئا بما فيه الكفاية، وليس ثمة موجب للتغيير ولا حتى التفكير فيه.

قلت وأنا أرشقه بعينين فاحصتين:

- ثمة لحظات تاريخية لا يجود الزمان بمثلها، وإن جاد فهو الضنين، تلتقي فيها آمال الرعية بطموحات الحاكم.

وأضفت وأنا أشير إلى الصور التي تزين مكتبي:

- نقّل عيونك حيث شئتَ تَرَ معالم النهضة التي تشهدها البلاد منذ عقود، بفضل سياسة مولانا المفدّى وتوجيهاته الصائبة، فكيف لا تلتقي معه الرعية وقد غيّر البلاد من حال إلى حال؟

ندّت عنه ابتسامة وانية، ارتسمت على زاويتي فمه في استهزاء ضامر وقال:

- هذا من تحصيل الحاصل، بفضل الكنوز الجوفيّة التي تختزنها أرضكم.

قلت معترضا:

- غيرنا بدّدها في ما لا ينفع الناس.

- هذا صحيح، ولكن النّفع في واقع الحال غيض من فيض.

قلت محتدّا:

- أنت معنا أم علينا يا سيد لوفافر؟

فدارى ضحكة لمعت في عينيه وهو يقول:

- معكم طبعا، وإلا ما كنت أتيت.

ثم اتخذت ملامحه ابتسامة رجال الأعمال المفتعلة فأضاف:

-عملنا، سيدي العزيز، يقتضي منا معرفة كل صغيرة وكبيرة عن البلد الذي يلتمس خدماتنا. لقد جئنا لغاية محددة، ألا وهي تقديم صورة مشرفة عن بلادكم وقائدكم، وهو أمر ليس بالسهولة التي تتصوّر، بسبب تقارير الهيئات الدولية والمنظمات العالمية، ولكنّ لي فريقا قادرا على بيع الرمل للبدو والماء للسّقّائين.

وباعنا الرملَ ونحن بداة، والماءَ ولنا منه دِيَم، ولم نجنِ غير الفتات. وصلناه بقناطير مقنطرة من الدولارات، وأسكنّاه هو وفريقه في أبهى المساكن بضاحية مطلة على البحر لا يقيم بها غير الوزراء والوجهاء، وجعلنا في خدمتهم طاقما من حشم القصر وأمهر طباخيه، ووضعنا على ذمتهم سيارات المراسم تقِلّهم حيثما شاؤوا بغير اعتراض ولا تفتيش، واستقدمنا لهم حِسانا في عمر الزهور وشرابا من أجود أنواع الخمور، وكانت النتيجة دون المؤمل، بل دونه بكثير. كانت الحصيلة كتابا عن الكبير اقتنينا معظم نسخه، وآخر عن نهضة البلاد في عهده وزعناه في سفاراتنا بالخارج، وتحقيقا إشهاريّا مصوّرا في مجلة محدودة الاِنتشار، وشريطا وثائقيا استغلّ أحد المنتجين الأجانب مقتطفات منه في برنامج تلفزي عنوانه «مساجلات» كادت تعود علينا بالوبال، فقد أعرب المشاركون عن استغرابهم من استمرار العلاقات بين الدول الغربية وهذه الأنظمة الأزلية، التي لا تحتكم إلى صناديق الاِقتراع ولا تقيم وزنا لحقوق الإنسان، ودعوا إلى المقاطعة وحتى تسليط العقوبات، ولولا لوفافر، أحد ضيوف الحصّة، لآل الأمر إلى عاقبة

وخيمة، فقد بيّن أن الشعوب النامية ليست ناضجة بالقدر الذي يسمح لها بانتهاج الديمقراطية، وأن تعدد الأحزاب في هذه البلدان سيؤدي حتما إلى حروب أهلية طاحنة، بسبب طغيان النزعة القبلية والعشائرية.

سألني الكبير ليلتها عن رأيي، وكان في خلوته مسترخيا على أريكة فاخرة من جلد بنيّ مرقّط، يرتفق وسائد من حرير مطرّز محشوة بريش النعام، وأمامه نضد من خشب الزّان الصقيل عليه طبق من فخار فرنسي رفيع، تتكدس فيه أنواع شتى من الثمر المستورد من مختلف أصقاع الدنيا: جوز هندي، تفاح أسترالي، كيوي زيلندي، موز مارتينيكي، عنب طلياني، أناناس كيني... وأنواع أخرى لا أعرف لها اسما، وعلى النّضد أيضا كأس مشعشعة كأنّ الحصّ فيها كما قال عمرو بن كلثوم. وكانت أنغام وترية ساحرة كخرير جدول صاف تتهادى في القاعة الفسيحة ذات الإنارة الخافتة، من قيثارة تداعب أوتارها أنامل فاتنة بوسنيّة في ريعان الشباب، أنقذها الكبير من مخالب الصّرب الكفرة. شقراء بضّة في فِضال من حرير وردي تقتعد مفرشا من بسط فارسية وطنافس ونمارق غير بعيد من مجلس الكبير.

تطلعتُ إلى الحسناء في خفَر أتنشق وضاءتها، وحركت رأسي كأني استعذب أنغام عزفها لأبرّر نظراتي المصوبة نحوها في شبق خفيّ وقلت:

- رأيي بعد إذنِ مولاي أنه كلام مُعاد، فالغرب منذ القِدم لا يرى في الآخر إلا همجيّا متخلفا.
- وما هذه الحقوق التي يتحدثون عنها؟
- لغو جهّال كمن يجادل في الله بغير عِلم.

- أفصح.

-حقوق الإنسان عندنا مضمونة، فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّا يره. والذنب ليس فينا إذا صارت قلوب الناس هذه الأيام طافحة بالشّرّ. فلا بد أن يتحمل المذنب جرائر ذنبه وإلا عمّت الفوضى، وهذا أمر تقرّه الأعراف والشرائع والقوانين في كل مصر منذ بدء التاريخ، وليس لنا فيه بدعة.

ارتشف من كأسه جرعة تقلصت لها عضلات فكّيه، وهو يرنو إلى المليحة بنظرات مغتلمة ثم قال:

- والديمقراطية؟

- موجودة، وإنما الفارق بالتسمية لا بالنوع، فلنا الشورى النابعة من تعاليم ديننا الحنيف، فالوزير، أيّ وزير، لا يمكن أن يأتي عملا ما لم يشاورك في الأمر، بل لا ينطق واحد منا إلا بقولك.

- والرعية؟

- جهلوت، لا همّ لها سوى العيش، ثم إنّ طاعة أولي الأمر من الواجبات المقدسة، مثَلها كمثَل الفرائض التي بُنِيت عليها شريعتنا السمحة.

تململ في جلبابه اللبني المفوّف ثم غيّر وضعه وارتفق على جنبه الآخر، ولما استراح إلى وضعه الجديد سألني:

- ومسألة الِاقتراع؟

- هي البيعة عندنا، والمبايعة أجلّ وأسمى من تلك الصناديق التي يلجؤون إليها، ولا يجنون منها غير أرقام مبهمة عن تأييد لا

وجه له ولا روح، فأين تلك الأوراق الباردة الملقاة في صناديق خرساء من تلك الأفواج المتلاطمة كالموج المضطرب، التي جاءت تبايعك في ذلك اليوم الأغرّ قائدا لا يُعلى عليه، وأسلمتْ لك مصائرها، وتعهّد لك شيوخها وأعيانها بالولاء والطاعة؟

أخذ الكبير يعبث بعثنونه كعادته حين يطرق في أمر ذي بال، وحانت مني التفاتة إلى صاحبة الأنغام المنسابة رقراقة عذبة، فإذا هي تنظر إلى نقطة غير محددة، منكفئة على عالم خاصّ بها وحدها، تداعب أناملها الأوتار في رقة ناعمة كأنها تداعب عزيزا أو أليفا، وقد بدت في حشد الألوان الخافتة كملاك حزين.

- أعجبتك؟

انتفضت كالملدوغ وقلت في ارتباك:

- العفو يا مولاي. إنما أستجمع خيوط هذا المجلس الرائع وأجواءه الساحرة لأكتب قصيدا يداني روعته وسحره.

لمعت في عينيه تلك الضحكة الساخرة الصامتة التي تكتسي لديّ فصاحة البيان، ثم اتقدت بشرر يذكّرني إن كنت نسيت بأن الفتاة محرّمة، دونها قطع الرقاب، ومن جرؤ حتى على مخاطبتها عدا من أُهِلّ لخدمتها آل إلى دار الفناء، فقد شاع في القصر أن الكبير متيّمٌ في هواها، وهذا ليس من طبعه، فالحسان يختلفن على فراشه اختلاف الليل والنهار، إلا إذا تمنّعت عليه، وهذا هو الأرجح حسبما هو بادٍ من الغلمة المشتعلة في عينيه حين يصوّبهما نحوها، ونظراتها الشاخصة الشاردة أحيانا، كأنها تبحث عن حبيب ضيّعته.

ورجّني صوته فانتبهت. قال يسألني:

- كيف تكون النتيجة لو أجرينا استشارة شعبية؟

- بالإجماع يا مولاي! ولكن ما حاجتنا إليها، والبلاد بحكمتك ورعايتك، في كل رجًا من أرجائها تلهج بالشكر لك والحمد على ما تلقاه في عهدك من استقرار لم تنعم به من قبلك قط؟ فالاِقتراع جدير بالشعوب الغاضبة على حكّامها ذوي الأوضاع الهشّة والقبضة الرخوة والعزيمة الخائرة والنفوذ المتآكل.

- أنا أريده.

ولم يُفصِح. اكتفى بإشارة من يده موذنا بانتهاء المقابلة، وعلمت في ما بعد أن زوجته وابنه ورئيس الوزراء نصحوه بإجراء انتخابات تقطع الطريق أمام أعداء الأمة، فقد زعموا أنهم تلقّوا تقارير سرّية، مفادها أن الغرب ينوي قطع علاقاته التجارية معنا ما لم يثبت الكبير شرعية نظامه، وذلك معناه انقطاع السلع والمواد الغذائية ووقف صادراتنا النفطية، مصدر عيشنا الوحيد منذ أن هجر الناس الحقول إلى الأعمال الإدارية والصناعات النفطية والحظائر والشرطة والجيش، عملا بقول الكبير: «النفط يغنينا عن كل شيء».

عجبت من وجود ابن الكبير الذي لم يعرف له الناس اسما غير الكبير الثاني، ضمن هذا الثالوث النّاصح، فقد عهدته راغبا عن دواليب السياسة، مولعا بالخمر والميسر والنساء وجمع السيّارات الفارهة. وقيل إنه ما من أنثى وقع عليها بصره وحازت إعجابه إلا ونال منها وطرا راضية أو متمنّعة، ولم تسلم من رغباته الجامحة لا العذارى ولا المحصّنات، وكادت إحدى صبواته في الخارج أن تقودنا

إلى القطيعة مع بلد أجنبي، وقيل أيضا إن رأسه مطلوب عن جريمة اغتصاب بالخارج، ولولا الكبير وعطاياه التي محت آثار الجريمة لتعقّبه البوليس الدولي حيثما حلّ.

وعجبت أيضا من بروز الغالية، حرم الكبير التي انتزعها من زوجها عنوة وفاءً لحب قديم يعود إلى ما قبل التاريخ، والتاريخ يبدأ عندنا باعتلائه سدّة الحكم، ثمّ زهد فيها بعد أن فاض جسمها بالشّحم واللحم حتى غطّت الأورام سحنتها، ولم تنفع عمليات التجميل والتدليك والحِمية في إيقاف الترهل، إلى أن غدت مدوّرة لا يحتمل الكبير رؤيتها حتى مستورة حسب وشوشات حريم القصر. وقد ألحّت عليّ فكتبت عن حسنها شعرا يعيد الكبير إلى مخدعها، وأغدقت عليّ من الهدايا ما لا يخطر على بال، وكان يمكن أن أتمادى في مدح جمالها ورشاقتها وتورّد وجهها، لو لم ينهَني الكبير ذات يوم منذر بالثبور: «لو عدتَ لقطعتُ لسانك!» فقد صارت تلك الأشعار مثار هزء في المجالس الخاصة.

ومن عجب أن تهتم الغالية بشؤون البلاد ومصالحها، فما عرِف عنها لم يكن يتعدّى حضور المنتديات النّسوية والمحافل الخيرية جهارا، أما في الخفاء، فكانت تجد لذّة كبرى في ربط علاقات خنائية بين الوزراء وزوجاتهم، فتمهّد الطريق لزيد كي يضاجع زوجة عمرو، وتمكّن عمرًا من الِاختلاء بزوجة زيد، وقيل إنها تلتذّ برؤية العشاق عراةً من خلف زجاج خاص لا يُرى إلا من جهة واحدة.

ومن عجب أيضا أن يلتقي الثالوث وهم يكنّون لبعضهم بعضا

من الكراهية ما لم يعد خافيا عن أحد. فالكبير الثاني يكره الغالية لأنها كانت ضرّة المرحومة أمّه، كما كانت حائلا دون زواجه من ابنة أخيها. وهي تكرهه لأنه لا يني يتحدث أمامها عن جواري أبيه وجمالهن وصغر سنّهن، فضلا عن كونه طائشا لا يستأهل أيّ منصب. وكلاهما يناصب رئيس الوزراء العداء لأنه لم يفِ بما وعد قبل توليه مقاليد الحكومة، وكانا رجّحا كفّته لدى الكبير، وليس له من زاد سوى انتمائه للعشيرة السلطانية، ولما تنكّر لهما قالا فيه ما لم يقله مالك في الخمر، وحاكا له من الدسائس ما أرّق لياليه.

والحق أنّ العرباوي رئيس الوزراء لم يكن مؤهلا لتسيير دواليب الحكومة بعد تلك الإقالة الجماعية التي عقبت قضية البحتر، فما هو إلا مهذار يقضي الوقت في تعقب عثرات لسانه وتدارك أخطائه المتكررة، ولكن كانت تربطه بتاجر أسلحة أجنبي علاقة وثيقة، مكّنت الكبير من اقتناء عتاد تفاخر به البلاد في كل عيد وطني. والكبير عيّنه اضطرارا، فقد أرسل في طلب رجل يشار إليه بالبنان في مختلف مجالات العلوم السياسية والاِقتصادية يقال له المرساوي، واعتذر الرجل وتذرع بالمرض وكبر السنّ، وقال إنه لم يعد يغادر بيته إلا نادرا، ففار الغضب بالكبير حتى اشتعلت به دماؤه وقال: «إن لم يغادره اليوم فلن يغادره أبدا!» فأمر بحبسه في بيته بعد أن أخليَ البيتُ من كل من يمتّ إلى الرجل بصلة، ولما مات أرسل من يواريه التراب في عقر داره.

قلت إذن إن الكبير أقرّ الاِقتراع عملا بنصائح ذلك الثالوث الذي ما تقاربت أطرافه المتنافرة إلا لأغراض مضمرة ستكشف

الأيام عن خباياها. وما كاد الخبر يجتاز أسوار القصر حتى ترامى في أنحاء البلاد كرياح السموم، يزرع القلق في الأذهان والأرق في العيون ويتلوى في الصدور كالحيرة اللاّهبة.

لم يفهم الناس معنى الِاقتراع ولا الِانتخاب ولا حتى التّصويت. ولما اضطلعنا بإفهامهم بشروح كافية ضافية شافية امتدت زهاء شهر بكل الوسائل التي تملكها الدولة، حتى غدا في كل زقاق خطيب، وفي كل ربوة منبر، وفي كل مضرب من مضارب البدو داعية، نبتت في الصدور حيرة ثانية. لم يفهم الناس جدوى التصويت، فقلنا: «من أجل انتخاب الحاكم»، فقيل لنا: «يُفترض في الِانتخاب الفرز والِاختيار»، فأجبنا: «وهل فيكم من ينافس الكبير؟» فخنسوا، وقال قائل منهم، وكان غِرّا لا يقدّر زلاّت اللسان: «هَبْ أن الأصوات دون النّصاب». فقلنا: «مولانا هو الذي يحكمنا، سواء بصوتك أو من دونه». ولم يُعلَم لذلك الغرّ مصير في تالي الأيام. وقيل لنا: «إذن هي بيعة؟» فقلنا: «أجل، ولكن بالطرق الديمقراطية» وقيل لنا: «ما الديمقراطية؟» فقلنا: «أن يكون لكل فرد بالغ بطاقة ناخب هي بمثابة بطاقة الهويّة لا يحقّ له شيء ما لم يمتلكها».

انطلقت عقب ذلك حملة انتخابية على نطاق واسع اكتست طابع الأعياد، وشمل البلاد مَوْرٌ دافق من أفراح آخذ بعضها برقاب بعض، وتحلّت المدائن والشوارع والأنهج والأزقة والساحات والفجاج بمعالم الزينة، وازدانت بالأعلام واللافتات والأضواء الخفاقة، وصور الكبير تعتلي الصروح في كل درب تتحدى شوادن الطبيعة. وتنافست الخلايا الحزبية والبلديات والولايات والمؤسسات

والمنظمات بأصنافها والمعاهد الصغرى والكبرى في انتقاء شعارات اكتسحت مداخل المدن وممراتها وساحات القرى ودروبها، منها ما هو منتخب من توجيهات الكبير، ومنها ما هو تذكير بإنجازات البلاد في عهده، ومنها ما هو تمجيد لدوره في إعلاء شأنها في المحافل الدولية، ومنها ما اتّسم بصيغة حثّ الرعايا على التصويت بوصفه حقا من الحقوق المقدسة.

وفي يوم تعطلت فيه الحركة واستنام النشاط وانشدّت الآذان والعيون إلى المذياعات والتلفزيونات في البيوت والمقاهي والشوارع، أعطى الكبير إشارة الِانطلاق لحملته الِانتخابية بخطبة حماسية تركزت حول الديمقراطية بوصفها رهانا حضاريا، والرعية ذخر البلاد الأول وركيزتها الأساس، والتنمية الشاملة التي ستفتح على البلاد عهدا من الكفاية والعدل. وأعيد بثّ الخطاب مرارا، وتوقف المحللون والمعلقون وكتبة الِافتتاحيات عند كل لفظة ليعطوها حقها من السبر والتمحيص ويستقصوا أبعادها العميقة، كمن يبحث عن الدرّ في أثباج البحر، وتصدرت أقوال الكبير وصوره مانشيتات الصحف، وانتظمت في الساحات العامة سهرات فنية، ووزّعت الأكسية والأغذية في التّكايا، وأوقدت الشموع في الزّوايا، وارتفعت في المساجد ضراعة أئمّة يتلون في الليل الأوراد ويدعون للكبير بأن يوفّقه الله في الِانتخاب.

وكنت في صبيحة ذلك اليوم قد استهللت الحملة بقصيد طالعه:

مَن كان إرضاءَ الكبيرِ رجاؤه   يمشي إلى درب الخلودِ وينعَمُ
الدهـرُ والأقـدارُ تشـهدُ أنها   لم تصطـفِ إلاّهُ مـا لـهُ تـوأمُ

وسرعان ما هبّ الشعراء ليسيروا على النهج الذي رسمته، فنشر شاعر من سُواع قصيدا جاء فيه:

فيا قائدًا قاسى الخُطى بعزيمةٍ إلى النصرِ لا يَخْشى ولا يتهَيّبُ
فلولاه لم تخفُقْ على الأفقِ رايةٌ ولا كان تغيرٌ ولا كان مكسَبُ

وألهب نشر القصائد تباعا حمية الشعراء، وزادت أجواء الفرح الغامر في إذكاء حسهم وتفتق قرائحهم، فجادوا بقصائد تسمو بالقول إلى مستوى الحدث، فأنشد شاعر من ولاية إساف:

اللهُ خصّ بكَ البــلادَ ولم تكنْ إلاّ البصــيرَ بأمرِهــا الشّــوّافَا
فكتبتَ في سِفرِ الخلودِ صحائفًا عظمى لها هَتَفَ الزمانُ هُتافَا

وقال آخر من ولاية وَدْ:

فأنتَ دُنــيا من الأمجــادِ حافلةٌ ومَعدنٌ لم يشُبْ إكسيرَهُ كـدَرُ
قد صُغتَها أمّــةً كانت مفكّكةً أهواؤها شِيَـعٌ أحزابُها أُسَــرُ
وسوْفَ تبقى منــارًا في مرابعِنا وقائدًا ترتوي من نبْعِكَ السِّيَرُ

وتتالت الأيام تعبق بالفرح وأريج الشعر، والناسُ يهزجون ويطربون ويسكرون على نخب الكبير، والخطباء يتناوبون على المنابر يلهبون الحناجر بالهتاف والتهاليل والزغاريد، وليل المدن أضواء ساطعة وطبول ومزامير، والكبير يرفل في النعيم منتشيا، يمدّ بصره من شرفة القصر إلى الأضواء المتلألئة كالدرّ في بحر يمور بالغناء والتهليل والدعاء له بطول العمر، فيشرق وجهه بابتسامة فيها رضى وفيها توق إلى الاِرتماء في خضمّ تلك الجموع المتراصة ليعفّر وجهه الكريم بدفئها، ويسألني عن قائل تلك الأبيات التي صيغت لها الألحان في وقت وجيز،

وغنّتها مطربة البلاد الأولى بصوتها العذب الرخيم، وردّدت الأبواق صداها صبحا وعشية حتى راجت بين الناس كالرائحة الذكية:

هـو الكبيرُ حبيـبُ العُـرْبِ قُطبُهمُ
رُبّـانُ فُلكِهِم في العَيْـلَـمِ الصّخِبِ

الملهَـمُ الظافـرُ المرجـــوُّ نائـلُـهُ
والمسـتغاثُ بـه في غَـرّة الكُـرَبِ

القائـدُ الأكـبرُ الميمونُ طائـرُهُ بانـ
ـي العُلا بالحِجَى والعزمِ لا الخُطَبِ

فقلت هو فلان بن فلان من ولاية المنطبق، فهزّ رأسه إعجابا، وأشار إشارة أنبأت عن عزمه تكريم الرجل في قادم الأيام، وقلت أبشره وعلائم البهجة في محياه تثلج صدري وتزيّن لي الدرب المفضي إلى جنان الخلد:

- الآتي أبهى وأروع .

وأنشدته بعضا من بواكير قصيد تحت الطبع، ستلهج به الألسن وتتغنّى به الحناجر وتستعذبه الأسماع:

العُـربُ أنـتَ جمعتَهـا وبعثـتَهـا
أوَلم تــكــنْ مـن قبلِـكَ مُبهَمَـه

بـل أنتَ أخضعـتَ الزّمـانَ وأهلَهُ
وبقيـتَ للقـدَرِ المغَيّـبِ توأمـــه[1]

فإذا بدفق البِشر يصخب في عينيه وينساب رقيقا في شفتيه،

---

(1) هذه الأشعار المدحية مأخوذة من عكاظيات عيد ميلاد الحبيب بورقيبة (بتصرف).

وخيّل إليّ لحظة أن مقلتيه تخضلتا بغشاوة دمع رقيقة، قبل أن يشيح عني وجهه.

سألني ليلتها، ونسائم الربيع تهلّ تباشيرها خفيفة شذية تحمل في أعطافها أجواء الفرح المقبل، والأفق المضرج يشف عن أمارات الصباح:

- هل يحكم البلاد غيري؟

فقلت على الفور منتفضا كأني أستعيذ من شرّ مستطير:

- معاذ الله! معاذ الله يا مولاي! الله خصّ بك البلاد حتى صرت لا تُذكر إلاّ بها ولا تُذكر إلاّ بك، فمن لها سواك وقد أنفقت عمرك في بناء كيانها، وحميتها من شرّ كل هضيمة، وحبوتها عطفك ورعايتك حتى أينعت جناتها ثمرا وطابت مجتنى، وهذي اليوم مآثرك خالدات شُهّدٌ لا ينكرها إلا جحود كنود، ختم الله على قلبه وأعمى بصيرته وأصاب سمعه بالوقر.

فإذا به يحدّق فيّ بعيون واسعة لا دهشة فيها ولا غضب ويقول:

- وهذا المعتوه؟

- قُضِيَ أمره.

استرخى في دفء الأريكة يدير خواطره في صدره، ويمدّ بصره إلى البعيد كأنه يقرأ في صفحة الفجر الطالع مصير البلاد، بعد أن أزحنا قشّة كادت تعكّر صفوه، فذلك الرّجل المغرور لا يمكن أن يكون خصما، لأن الشرط في الخصم أن يكون نديدا في مآثره وخصاله لدِهقانٍ في حجم الكبير يرتجف لذكره الصّلافى، وإنما هو كالشعرة في

الخلق يزول بزوالها الكدر، وما أسهل ما زالت، فقد حبكتُ له الأمور على نحو لن ينهض بعده أبدا، ومثلي في حبك الدسائس لا يضاهى، وإن كنت، والحقّ يقال، قد لقيت في قضية الحال من الصعاب ما أرّقني لياليَ، فالرجل مشهور بالإستقامة والورع والأمانة وفعل الخير، ولم نعثر في ملفّه على ما يمكن أن يلفت انتباه البوليس السرّي ولا أعوان أمن الدولة لو لم يرتكب تلك الزلة التي لا تغتفر، ولا أدري كيف سوّلت له نفسه نفض الغبار عن دستور البلاد الذي لم نلتفت إليه يوما إلا لتنقيح بنود يرتضيها الكبير ولا تنكرها الرعية.

وفي يوم أسود مبغور طلع علينا بنبأ تهزهزت له البلاد واجتاحها إنكار شديد لما تسمع، فقد أعرب ذلك المدعوّ صالح الإمام عن ترشحه للإنتخابات، ووجد في قومه شرذمة تزعم أن ذلك حقٌّ تضمنه أحكام الدستور، وتردد ألفاظا غريبة تشمئز منها النفوس كالتعددية والتداول على الحكم والسلطة للشعب وما شابه... والحقّ أن الديمقراطية، تلك اللفظة المخادعة، المسربلة بلبوس العداء والتخريب، هي التي أحدثت البلبلة في نفوس الناس، وقيل إنها أطمعت أناسا كثرا غرّتهم أقوال الإمام، وما خنسوا إلا وفي نفوسهم خوف من بطش الكبير، إذ انبرت صحافتنا الوطنية الصادقة تفنّد دعاوى ذلك الدجّال، وتلقمه أخشن من الحجر وتلعقه أمرّ من الصّاب، ونذير العواقب يتطاير بين السطور ويخالط الأحرف والكلمات، دون أن يرعوي أو يعدل عن دعواه.

وقال العرباوي:

- دعوه فلن يحصد إلاّ الريح.

فردّ الكبير الثاني:

- بل لا نريده أن يحصد حتى الأشواك.

وقالت الغالية:

- إلى أين نسير؟ لو رضينا بأن نفتح للرعاع بابا، فلن يقنعوا بالفتات. ولو تمكّنوا من السلطة فقولوا على دنيانا السّلام.

وأجمعنا أمرنا على حشّ الإمام وكنتُ له المنجل. لم أكن موافقا على اغتياله أو سجنه أو تلبيسه أي تهمة من تلك التهم التي اعتدنا أن نقذف بها كل خارج عن السراط، فالظرف حرج وأنظار العالم منصبّة علينا انصباب الشمس على الرمال، وفي قتله أو سجنه بما اعتدنا أن نواجه به المغرضين من تهم، كالخيانة والتآمر والتواطؤ والتخريب وحيازة السلاح والتطاول على مقام الكبير والقدح في أعضاده... إساءةٌ إلى سياسة مولانا وتشويه للصورة التي يحرص أن تُرى عليها البلاد. وقلت في ما قلت: «إن الرأي عندي أن نواجه الدعيّ بسلاحه، ونلاعبه في ميدانه، ونقيم الحجة أمام الملأ على زيفه وضلاله، فيقرّ للعيان بذنبه، ونضربه ضربة لازب نقصم منه الظهر بطرق قانونية نشهِد عليها حتى الأجانب». وسألني الثالوث: «وما سلاحه؟» فقلت: «طهارة اليد واللسان». قالوا: «وما ميدانه؟» قلت: «الأخلاق الحميدة». وشرحت لهم خطتي فطأطؤوا الرؤوس وفاضوا بالثناء.

كانت الخطة في غاية الدقة والبساطة في الآن نفسه، ونجاحها موكول إلى امرأة من أمّ فرنسية، تحذق اللهجة الباريسية أكثر من أهلها، مشيقة القوام ممتلئة الصدر مقببة الردفين بهية الصورة، وإلى

شابّ ذي ملامح أوروبية ترجع إلى أصله المالطي، زوّدتهما بالوثائق اللازمة لإجراء حديث واسع شامل مع مرشح المعارضة، بوصفهما مبعوثَين صحافيين من وكالة أنباء أجنبية، من البطاقة إلى أوراق الاِعتماد التي تحمل إحداثيات الوكالة والختم والتوقيع وآلتي تسجيل وتصوير وحتى الأسئلة المقترحة. وكان ذلك في نظري أضمن السبل للاقتراب من الإمام بعد أن تمترس برجال من حرس الحماية الشخصية تحسّبا لأي طارئ، في جوّ يحمل في طياته ألف نية سيئة. والصحافي في مثل هذه الحال مطلوب، والأجنبي في حياده مرغوب، حتى إذا اقتحم المبعوثان العقبة وحازا ثقة الإمام وحاوراه حول برنامجه السياسي، والتقطا له من الصور ما يجدر إرفاقه بفحوى المقابلة، تبسطا معه في أحاديث جانبية تمهيدا للحظة الحرجة التي تدربا عليها مرارا، حتى لا يبدر عنهما ما يثير الارتياب، وإذا جرت الرياح كما رسمنا، ساومناه على الصور الفاضحة، فإن أبى هتكنا بنشرها عِرضه، وإن انصاع كان ذلك إيذانا بنهايته المروّعة.

سارت الأمور كما رسمت، بل أحسن قليلا، فقد أضفت عليها تلك المرأة تعديلات مرتجلة لا تتقنها إلا النساء. وبلع المسكين الطعم وبات ليلته قرير العين يراوده حلم من دخل التاريخ من بابه الكبير، وأفاق والنهار ينجاب عن كابوس مرعب.

لم يكن يعلم، وهو يفتح باب مكتبه في مساء ذلك اليوم المغموم المغسول بالبرد والمطر، أنه يستقبل طرطرة وزوجها إبليس في هيئة جاكلين مبعوثة وكالة فرانس بريس وروبير مساعدها المصور. جلست على كنبة قربه تلتقط بالآلة هراءه، وهو يفيض بالحديث من

كل جانب عن أمور لا تبرئ عليلا ولا تشفي غليلا، وتلوي ساقا على ساق، فينحسر طرفا فستانها الأسود الخفيف المزرّر من الأسفل حتى منبت النهدين عن فخذيها الأملسين، بشكل أربك الرجل حتى بانت حبّات عرق على وجهه المفرطح. ولما أنهى كلامه الفارغ عن العدل وحرية الرأي وتعدد الأحزاب وتوزيع الثروة وسيادة القانون وما شابه ذلك، أثنت المرأة على شجاعته، وابتسامتها العريضة تغطي وجهها، وعيناها الواسعتان تشعّان من تحت أهداب طوال بنظرات الإعجاب، وشبهته بمشاهير السياسة الذين لم تأخذهم في قولة الحق لومة لائم، وتحدّوا الطغاة بعزم لم يفلل مضاءه سجن ولا تعذيب. وأشرق الوجه الصارم وانبسطت أساريره المنقبضة، فجاء ضيفيه بالقهوة، وانحلت عقدة من لسانه فأفشى للحسناء ومرافقها بأسرار، قال إنّها ليست للنشر، عن فضائح القصر واستهتار نزلائه. مالت عليه المرأة حتى انثنت خصل شعرها الأشقر، ولامست إحدى رجليها المنفرجتين ركبته، وقالت: «هل تسمح بصورة تذكارية خاصة، مسيو الإمام؟» وابتسامتها الفاتنة لا تترك مجالا لاعتراض. ولمعت أضواء الفلاش مرارا قبل أن تندّ عنه نأمة، وإذا الحسناء ملتصقة به كعادة الناس حين تتقارب رؤوسهم خوفا من أن يكونوا خارج مجال العدسة. بدا الإمام للحظة مرتابا أو كالمرتاب، ولا شك أنه عزا سلوك المرأة إلى ما اشتهرت به نساء الغرب، الفرنسيات بخاصة، من جموح ونزوع إلى التفصّي من كل قيد وحتى الإنحلال، وربما يكون قد فسّر ذلك بانفعال جاوز الإعجاب بالسياسي، إلى ميل غريزي نحو رجولته، خصوصا وأن المرأة لم تقنع بما اتفقنا عليه، وإنما

انجرفت في لعبة الإغراء التي اعتادت عليها في عالم الدعارة الراقية، فأتت من الأفعال ما كاد ينسف الخطة المرسومة. روت لي باعتداد الأنثى المجربة التي تعرف كيف توقع بالرجال ثم تسخر من غبائهم، أنها أمعنت في الضحك من طرفة سخيفة فاه بها الإمام، فاندلقت قطرات من القهوة على سرواله، وسرعان ما حنت جذعها على فخذه، وراحت تمسح اللطخة براحة كفّها والإمام مفاجأ مذهول يشدّ في ارتباك ظاهر يدها ويتمتم: «حاشى أن تلوّثي يدك. بسيطة والحمد لله!» ويمسح بمنديله يدها، وتنهض فينهض معها، فترشق فيه عينيها اللامعتين وتتريّث قبل أن تباغته بقبلة على خده وهي تقول: «مسيو الإمام، أنت إنسان رائع. أنت رجل عظيم».

ولم يمض يوم حتى فوجئ ذلك «العظيم» بالصور التذكارية، وكلمات مقتضبة دكّت معاقله. سلوى، الشهيرة بناريمان، في أوضاع مختلفة: حسيرة الثّوب، عارية الفخذين، بادية الوركين بشكل يبدي سروالها الداخلي، والخنزير حذوها منشرح كأنه في جلسة خنائية، وهي منكفئة على كاهله، منحنية عليه تداعب فخذه، ملتصقة بثناياه تقبله... صور لا يشكّ الرائي لحظة في خلاعتها، ولا يساوره ظنّ في أنّ الرجل على علاقة مريبة بواحدة من بائعات الهوى. ومع الصور رسالة مرقونة:

«الأصل محفوظ وثمنه عشرة آلاف دولار. المقايضة معك وحدك. 9 نهج السوسن. الخميس القادم منتصف الليل تحديدا. إخلاف الموعد أو إبلاغ الشرطة ضوء أخضر لنشر الغسيل. الإمضاء: ناخبة».

انتظرتُ ثلاثة أيام بلياليها، حتى يتدبر أمره في جمع الأوراق المالية المحظور تناولها بين الناس قانونا، أو يقلّب الأمر على وجوهه بحثا عن مخرج أعرف سلفا أنه معدوم. لم يكن أمامه إلا حلاّن أحلاهما مرّ، فإما أن يجازف برفض المساومة أملاً في إقناع الناس بأنه ضحية مكيدة شيطانية فيكون كالجادع أنفه بكفّه، وإما أن ينشد في قبول الدعوة سترًا لسمعته وحفاظًا على مستقبله السياسي، وعندئذ يكون كالسّاعي إلى حتفه بظلفه. واختار الحلّ الثاني، الحلّ الذي يسلم إلى الهاوية، وجاء في قلب الليل معزّزا برجال يرقبونه عن كثب في سيارات مصفّحة، ولا شكّ أنه حسب العملية ابتزازا صرفا، وكنت قد أعددت العدة لأي طارئ، واستعنت بالقوة العامة، فلم ينفذ من خيوط الشبكة غير من نبغي.

طرق الإمام باب الفيلاّ، بعد أن أجال البصر حوله كأنه يؤمّن أعقابه أو يخشى عيونا تفضح سرّه، وانتظر لحظات ينوء بالبرد والخوف ممّا تخبئه الخطوة القادمة وحملِ الحقيبةِ الممنوع. انفتح الباب فبدت ناريمان في ثوب كالغلالة يشفّ عن جواهرها التي يكاد لا يُستر منها شيء، وتريّث الرجل ثم دلف إلى غرفة الجلوس. هناك جرت عيناه على المكان والموجودات في توتّر وشت به حركاته والتفاتاته ثم قال: «أين الأصول؟» فأومأت برأسها إلى ظرف على نضد الصالون وقالت: «الفلوس أوّلاً». وما كاد يفتح السمسونايت السوداء المعبّأة بحزم من الأوراق المالية الخضراء حتى سمع وقع أقدام خلفه، وإذا أبو السعد بقامته المديدة وعيون تتسّع استنكارا يصيح في المرأة: «رجل في بيتي يا خائنة!» ويهوي على خدها بصفعة انطبع أثرها في الحين،

ودوّى صراخ المرأة حادّا ثاقبا يمزّق سكون الليل، موذنا بأن القطوف دانية. وسرعان ما اقتحم البوليس البيت واقتادوا الجميع للتحقيق، والإمام يتلوّى بين أيديهم ويصرخ بأنه بريء لا علاقة له بتلك المرأة، ولكن الصّور الفاضحة، والأموال المحظورة، ودخوله بيت امرأة محصنة في عزّ الليل أدلة لا يمكن دحضها بمجرد الكلام، ولو كان مدعّما بأيمان قوية.

وجاءت أقوال المرأة لتنقض مزاعمه وترمي به في جبّ عميق الغور، فقد اعترفت بأن علاقتها به تعود إلى عهد غير قريب، وأن الرجل استغل غياب زوج دائم الترحال لدواعي العمل فجرّها إلى مهاوي الرذيلة، وما كانت لتساومه رغم ذلك، لو لم ينبذها حين قرّر العزم على التحلّي بإهاب المصلحين ليدخل معترك السياسة.

وزاد أبو السعد، الزوج التي اقتضاه الظرف لصَون المصلحة العليا للبلاد، فذكر تغيّر طباع زوجته منذ فترة، ونار الشكّ التي أوغرت صدره، وأمارات الخيانة التي صارت تتبدى في فلتات لسانها وصفحات وجهها، والظّنون، كما قال، لا تكاد تزدحم على أمر مستور إلاّ كشفته، وكيف تربّص للعشيقين ليلة الواقعة، وفاجأهما في خصومة حادة لا يعلم سببها، والإمام يكيل لزوجته الصّفعة تلو الصّفعة، وصراخها يوقظ النيام على بعد فراسخ.

أحيل المتهمان إلى المحكمة في ظرف وجيز، وأرتِج على الإمام بين يدي القاضي، فلم يُسمع له صوت ولم يُبد اعتراضا، وحار حتى محاموه الأجانب في إنقاذه، فالإدانة واضحة لا لبس فيها،

والأدلّة ساطعة سطوع الشمس في رابعة النهار. ولما نزل عليه الحكم كالقضاء المبرم واقتيد مكبّلا بالأصفاد، كان ينقّل نظره ذاهلا ذابلا مقهورا مسحوقا يتمتم في عجز وقهر:

«حسبي الله ونعم الوكيل! حسبي الله ونعم الوكيل!».

في تلك الأيام، ومنذ أن تسرب الخبر مع خيوط الفجر الأولى، كانت الألسن تلوك سيرة الإمام الدجّال المتلفّع بقناع الورع والتقوى، والأقلام تستمتع بإيراد تفاصيل جرمه المشهود، وتؤلّب الناس على تلك الزمرة التي انساقت خلف منافق محتال، فاسق ماجن، دعيّ مضلّل، وفي كل يوم تبتدع له من الوصم ما يضيق به جبينه، وتنسج حول حياته الخاصة أسرارا تنفّر عنه حتى زوجته وأبناءه، والرسوم الساخرة تضرم في النفوس نار الشماتة والتشفي. ثم خمد الضجيج عن ذكره فجأة إلا أحاديث المقاهي وأخبارا متفرقة في ما وراء البحار عن مؤامرة مبيتة. وكان لا بدّ أن أتمّ العملية فلا تبقى شاردة ولا واردة خارج الإطار المرسوم. فأمّا ناريمان فقد «انتحرت» في سجنها حين جاءتها ورقة الطلاق، وأما ذلك المصور الشابّ فقيل إنه وجِد في حمّام بيته «مختنقا بالغاز»، وأمّا الإمام فقد اقتيد إلى أحد السجون الموغلة في الأرض اليباب، حيث لا يقدَم زائر ولا يقرب سائل ولا ينفذ خبر عمّا يجري في سراديبه الرطبة المظلمة.

وردّني صوت الكبير إلى يقظة تنضح بمجد مستجدّ إذ قال:

- أيّ الخير أفضل لك؟

قلت: «خيرٌ من الخير مُعطيه». وأنا أستشعر موقعي الجديد من

سدّة الحكم. ولم يخب ظني، فقد عيّنني الكبير وزيرا بغير حقيبة، ومنحني من الصلاحيات ما لم يحلم به أحد، حتى صار لنفوذي أول وليس له آخر. وطوّفت في البلاد رفقة أبي السعد أتفقد إعداد لوازم الإِقتراع، وأحثّ الناس على أداء الواجب، وأوزّع يمنة وشِمالا وعودا باستكمال كلّ النقائص. وفي غمرة الإِغتباط وحرارة الإِستقبال وحمّى الهتاف، كان لساني يسبق أفكاري، ووجدت نفسي ألتزم بالإيفاء بوعود مجنونة: مدارس في شعاف الجبال، طرقات وسط كثبان الرمال، آبار في الأراضي القاحلة، مراكز للعلاج في الفيافي والقفار، وسائل نقل في الأرياف، دور للشباب في كلّ القرى، معامل تحويل في مواقع الإنتاج، مساكن لائقة بدل أكواخ الطين...

وكنت أعزو ذلك إلى فقر تجربتي في باب الإِتصال المباشر، وأبيت الليل نادما عمّا بدر مني، خائفا من فجر غير رحيم يحمل في طياته أخبارا لا تسرّ، وأردّد في سرّي أنني رجل ظِلّ، لا أصلح إلا للأعمال المستترة التي تمنحني كل الوقت لكي أقلّب المسائل على أوجهها المختلفة قبل اتخاذ القرار الجيد أو تقديم النصح المصيب.

وكم كانت دهشتي حين جاءني من الكبير إطراء، إذ قال لي في مكالمة خاصة:

- ذلك ما ينبغي أن تسمعه الرعية. كلّ المطالب مقبولة في هذا الظرف، حتى غير المعقول منها.

وجدتني أكتم صوتا نما في أعماقي إذ كدت أقول: «من أين لنا أن نلبي كل هذه المطالب دفعة واحدة؟» وكأنه أدرك من صمتي

ما اعتمل بداخلي إذ أردف، وضحكته الساخرة تسري عبر أسلاك الهاتف بشكل لا يدركه سواي:

- لا تشغل بالك. سنعمل بقول صديقك الجاهليّ: اليومَ خمر، وغدا أمر.

وأدركت المطلوب في رمشة عين. وعندما سألني أبو السعد:

- كيف السبيل إلى الوفاء بكل هذه الوعود؟

قلت:

- إنّ الإنجازات العظيمة كالبنيان المرصوص لا ترسخ أسسه ولا تثبت جدرانه إلا إذا رُصفت لبناته لبنة لبنة. وإذا كان إنشاء المساكن يقاس بالأيام والشهور، فإن الأعمال الكبرى يستوجب تحقيقها العقود الطوال. منها ما يرى النور في القريب العاجل، ومنها ما يُرجَأ إلى الأمد الآجل. المهم أن نعرف من أين نبدأ، وبعدئذ لكل أجل كتاب.

سوّى أبو السعد ربطة عنقه ومسّد قُصّة شعره الفاحم التي تكاد تغطي جبينه العريض، وشعت عيناه السوداوان تحت أهداب حوالك، كعادته حين يضيق بأمر وقال:

- هَبْ أنهم يحاسبوننا على...

قاطعته بحدّة:

- دعك من أفكار الغرب التي لا تزال تعشش في دماغك. هنا، الراعي هو الذي يحاسب الرعية، هو الأصل وهي الفروع، هو الثابت وهي التوابع، وما من نعمة تُجزى بها إلا من خيره. لو

شاء لتجسدت الأغراض جميعها في غمضة عين، ولكنه يأبى لرعيته حياة الدعة والميوعة، فتلين شوكتها وتذهب ريحها والأعداء من حولنا كثْر طامعون، كما لا يريد لها أن تعتاد على التواكل فتتوق إلى رغائب، ما إن تشبع إحداها حتى تهلّ أخرى...

والنفسُ راغبةٌ إذا رغّبتَها وإذا تُرَدّ إلى قليلٍ تَقنَعُ

كما قال أبو ذؤيب الهُذَلي.

- كلامك يا حضرة الباش كاتب كالكتب القديمة.

ولم أدر ساعتها أكان قوله تعجبا أم إعجابا، ولولا ولاؤه لقلت إنه يسخر مني، لأني سخرت في قرارتي من نفسي، أو لأقل ضحكت مما فاه به لساني، ليس لكوني أعلم علم اليقين بأن وعودي كسحابة صيف سرعان ما تنقشع، وإنما لهذه القدرة العجيبة التي اكتسبتها من معاشرة الكبير على إقناع الناس بما لست مقتنعا حتى بعُشُره، والحجج التي أستنبطها، والحِكم التي أستحضرها، دعما لأقوال لو أعيدت عليّ لأنكرتُ نسبتها.

وحان موعد الاقتراع وكان يوما صحوا انحسرت فيه الغيوم فبدت سماؤنا صافية، وشمسنا مشرقة، وجوّنا لطيفا كأن الطبيعة استعدت لتشاطرنا الفرحة الموعودة، والناس، شيبا وشبابا، يقبلون منذ الصباح الباكر وحدانا وزرافات على مكاتب الإِقتراع في فرح طفولي.

والحق أننا وجدنا من الصعاب ما لا يُتخيّل لإتمام العملية

الِانتخابية على الوجه المرضي، فبعض النسوة رفضن الِانزواء في الخلوة خوفا مما لا تُحمد عقباه، وبعض الشيوخ دسّوا الورقة في جيوبهم ورموا في الصندوق بظرف خاوٍ، وآخرون تركوا الورقة والظرف في ركن من الخلوة وغادروها فارغي الأيدي.

حدثني أحد رؤساء الخلايا الحزبية، وكان يرأس مكتب اقتراع، أن رجلا تناول الورقة والظرف ودلف إلى الخلوة وأسدل على نفسه الستار، ومرت الدقائق والناس يترقبون دورهم والرجل لا يبرح الخلوة، كأنه ممسوك أمعاء يفكّ حصر نفسه، وطال مكوثه فنودي عليه، فجاء صوته من خلف الستار محتارا من هذه الورقة التي تأبى أن تثبت في مكانها. وتحيّر رئيس المكتب حتى نفد صبره، فسحب الستار، فإذا بالرجل يجهد عبثا لتعليق الورقة في مكان ما من الخلوة.

وأخبرني آخر عن رجل طلب قلما، ولم يكن في الورقة غير اسم المرشح الوحيد، فارتاب من أمره، ولما عرض عليه أن يودع الظرف في الصندوق بنفسه أبى، فما كان من محدّثي إلا أن وضع علامة أمام اسم الرجل في قائمة الناخبين، وكذا فعل مع كل ذي صنيع مريب.

وروى لي أبو السعد أنّ مكاتب كثيرة لم تستوفِ نصيبها في الوقت المحدّد، فناب الأعوان عن الممتنعين عن التصويت بملء الصناديق حتى اكتمال النصاب، وفاقت الظروف في حالات كثيرة عدد المرسّمين، فعمدوا عند الفرز إلى إتلاف الزائد.

ووقفت بنفسي عند الفرز على أشياء ما كنت أحسب أن في رعيتنا من يجرؤ على ارتكابها. أوراق ممزّقة إربا إربا، وأخرى محفورة حفرا

بقلم حقود، وغيرها ملتاث بالمخاط أو البصاق، وفي أوراق أخرى رسوم كاريكاتورية تبرز الكبير في أوضاع مزرية، وكلام نابٍ وألفاظ سمجة يندى لها الجبين. وأدركت أنّ التستر على هذه الفظائع أمر واجب، وكتمانها سرّ من الأسرار الخطيرة، لو تناهى إلى علم دعاة السوء لتربّبوا سيرتنا تتريبا، أمّا لو يعلم الكبير بمن فعل فعلة بارحة للإساءة إليه، فسوف يترك كل دار تنعى من بناها، وهو نقيض ما نسعى إليه من وراء هذه الاِنتخابات، وإن كان لا يعني إسقاط حقّنا في معاقبة الجناة. لذلك أوصيت الجميع بالتستر والكتمان، وكلّفت أبا السعد بمدّي بقائمة في كل من اشتبهنا في أمرهم، حتى نضرب على أيديهم الآثمة حينما تتحول الأنظار وتنطفئ الأضواء.

شخصت الأبصار يومئذ في التلفزيونات، وانشدّت الآذان إلى المذياعات حتى ساعة متأخرة من الليل، تنتظر ما يسفر عنه الفرز حتى يعلم كل واحد أي الولايات أوفى للكبير، وكنا في ذلك الوقت في دار الحزب نجرد القوائم ونحصي الأرقام وسط غمامٍ من الدخان ولغط لا يني يتزايد، ورجالِ الحزب المتقاطعين كالنملِ في فوضى رهيبة، حتى كلّت الأجساد وتضبّب العيون وتوتّرت الأعصاب.

ونشب جدال حادّ بين العرباوي رئيس الوزراء وعثمان حمودة الأمين العام للحزب، وتعالى صياحهما بشكل يوحي بأنه وسيلتهما المثلى للإقناع. كان العرباوي يريد الإبقاء على النتائج كما هي حتى نضمن الغاية المرتجاة أولا، ويعرف الكبير ثانيا حجم أعدائنا في الداخل ومواقعهم. أما حمودة فكان يرى أن نشر النتائج على علاّتها يُطمِع الأعداء فينا ويوهمهم بأن البلاد منقسمة، وأن للمعارضة

من الثقل ما يغريهم بالإِستناد إليها لتقويض النظام، ويخيّر أن نَجبُرَ الأرقام حتى تستوي في نسبتها القصوى، ونرفع إلى الكبير تقريرا أمينا عن النتائج في كل ولاية كما باحت بها الصناديق، فنغيظ الأعداء في الخارج ونُخرِس المغرضين، ويعرف الكبير الودود من اللدود. وحمي الجدال وترامت الكلمات على جدران المكتب الفخم الفسيح الذي لذنا به طلبا للحسم، والرجلان متناظران مثل ديكين يعتليان مزبلة: العرباوي ببطنه البارز وصلعته التي تبرق تحت الأضواء وشاربه الكث المشتهب، وحمودة بعوده اليابس كالحطبة ووجهه الحاد كالساطور وعينيه الجاحظتين كفصّي بيض، وحكّماني والزبد يتناثر من شفتيهما الذابلتين، فتريثت خوف الزلل حتى ران على المكتب صمت الترقب، فلم نعد نسمع غير الطنين القادم من الأروقة ووقع الأقدام. وتهالكنا جميعا حول نضد رخامي عريض ذي قوائم من خشب الصنوبر، والجفون مرتخية والشفاه ذابلة وأكمام القمصان مصفونة وأربطة العنق محلولة وشعر الذقون كالشوك النابت. تطلعت إليّ العيون المعلقة بلساني وقد تجلّى فيها التعب والجو الخانق وأثر السهر المتوالي والدخان، وقلت بهدوء، وأنا أنتقي كلماتي وأديرها في ذهني قبل أن أتلفظ بها كأني أخطو على رمال رخوة:

- كلاكما على صواب، ولكن ينبغي ألا ننسى أنّ للمسألة مُعطى خارجيا، فجبر الأرقام لبلوغ النسبة المثلى يحيد بنا عن البغية المنشودة، وترك النتائج على حالها يوهم المغرضين بأن ساعات النظام معدودة. وفي كلتا الحالتين، نفتح على أنفسنا أبوابا عِراضا لا نضمن ماذا يأتينا منها.

تجرّعت شربة ماء أرطّب بها ريقي وأهيئ الرجلين لحلّ أزعم أنه يرضي الطرفين، وقلت:

-الرأي عندي أن نرفع النسبة إلى حدّ يبدو فيه الِإعتراض ضامرا، حتى نُظهر للأطراف الأجنبية أن العملية سارت وفق الطرق الديمقراطية التي أوجعوا بها رؤوسنا، وأن حقّ الِإختلاف في ربوعنا ليس مجرد شعار يُرفع، وإنما هو حقيقة أثبتها الِإقتراع، ونحتفظ في الآن نفسه بما أفرزته الصناديق، وما جاء في تقارير رؤساء المكاتب وفرق أمن الدولة للقيام بالإجراءات الأمنية التي تقتضيها مصلحة البلاد.

وافق الرجلان على مضض واختلفا حول النسبة. اقترح العرباوي ثلاثة أرباع المرسمين، وأصرّ حمودة على ثلاثة أثلاث. وعندما علّق العرباوي ساخرا: «وما الفرق بين المائة بالمائة وثلاثة أثلاث؟» اغتاظ حمودة حتى بان الزبد في زاويتي فمه، وقال إنه إنما قصد أن المائة لا تقبل القسمة على ثلاثة، وأن الكسر المتبقي هو أقصى ما يمكن أن تحوز تلك الشرذمة الغاضبة. واشتعل الخلاف من جديد، ووجدتني أتدخل مرة أخرى لأفصل بين المتنازعَين، فالوقت ما عاد يحتمل التأخير والبلاد كلها تنتظر، والناس لا شك ملّوا الِإنتظار، حتى اللغط القريب ما عاد يُسمع. ودون أن يحكّمني أحد هذه المرة، وجدتني أروز العرباوي بنظرة جهدت أن أحمّلها قرارا لا يقبل الِإعتراض، وسألته بلهجة من تذكّر أنه حاز كل الصلاحيات:

- سيدي الوزير الأول. هل ثمة في البلاد من لا يحب مولانا؟

اتسعت حدقتاه في دهشة من فاجأه خطر وشيك وقال:

- أبدا!

- هل تعتقد أنّ الإعتراض كان على صاحب التجلّة والجاه، أم كان تعبيرا عن غضب على سياسة الحكومة؟

ارتسمت على وجهه الحيرة وبدا الإرتباك، وهو يزدرد ريقه وقد راعه انحياز الحكَم ضدّه، وقال:

- الحكومة طبعا.

- وهؤلاء الغاضبون، هل هم أفراد متناثرون أم جماعات متكتلة؟

فأجال بصره كمن يتلمس سندا، وهو يحس أن طوقا خفيا ينزرد حول رقبته وقال بإذعان:

- أفراد. هم مجرد أفراد.

قلت وأنا أستحلي انكساره، وأتملّى حبيبات العرق التي تفصدت من جبينه المحدودب:

- فهل نعطي هذه الشرذمة المتفرقة، التي لا يعرف الفرد منها طوية الآخر، فرصة يدركون من خلالها أن حجمهم كبير، وتغريهم بأنهم لو تكتلوا لشكّلوا تيارا يقوض ما بنيناه بجهد السنين؟

فأرتج عليه حتى ضاقت أنفاسه، وراح يجفف العرق بمنديله مدحورا، وحمودة يكشّر عن بسمة، فيومض في عينيه الجاحظتين بريق الشماتة ويسألني:

- والحل يا حضرة الباش كاتب؟

فقلت بنبرة من تعلّق مصير البلاد فجأة في لسانه، وخياشيمي ترتجف زهوا وخيلاء:

- نُهمِل واحدًا من مائة.

افترّ فمه عن ابتسامة عريضة أضاءت وجهه بنور الِارتياح والنصر، وقال:

- نِعم الرأي .

بشّرنا القصر بالِانتصار الساحق، وأبرقنا إلى وزير الداخلية ليعلن عن النتائج في شكلها النهائي، فعدّلها حتى صارت واحدا من عشرة آلاف، ورويَ أنه قال: «اغفر لهم يا ربّ! أغرار لا يفقهون السياسة. فمتى كانت الأرقام في أية انتخابات خالية من الكسور العشرية؟» وقيل إنه لم يفعل ذلك إلا امتثالا لأوامر القصر.

وأذيعت النتائج والسماء تشف عن تباشير الصباح، وما كادت الشمس تشرق حتى انطلقت الأصوات ترتل أغاني المجد وتحتفي بالنصر المبين، وبدأ الناس يملؤون الشوارع ويرفعون شعارات الولاء وعبارات التهاني، وصور الكبير تغطي الصفحات الأولى لكل الجرائد، والعناوين ضخمة بارزة تزف بشرى الِانتصار الساحق، والساحات تضج بالأناشيد والأغاني والهتاف، والأعلام ترفرف خفاقة في كل منعطف، وتعالى في الأحياء قرع الطبول ونفخ المزامير واختلطت زغاريد النسوة بصفير السيارات، ودوّت في الأجواء رشقات نارية ملعلعة.

وفي ظهر ذلك اليوم خرج الكبير في موكب رسمي، والخلق أمامه

كبحر ليس له شاطئ، وطاف الشوارع واقفا في سيارته المكشوفة يرد على التحايا بأحسن منها ويرفع شارة النصر، وعلامات الفرحة تغمر وجهه، والهتاف يعلو إلى طبقات الجو حتى بحت الأصوات، والتصفيق يفرقع حتى احمرّت الكفوف، والأذرع تمتد من خلف الحواجز نحو القائد تروم مصافحته أو لمسه، ومضى الركب يشق الجموع المتهافتة تهافت الفراش على الأضواء إلى أن توارى عن الأنظار، وظل الناس يقذفون بما في صدورهم من تعابير الفرحة العارمة في زعيق ثاقب وعجيج مقيم، والشوارع تغلي كأنها تشهد هيْجًا وفتنة.

وفي الليل أدناني الكبير، وكنت قد خلصت من مدحة جاء فيها:

هذي الرعيةُ قد جاءتك طائعةً … تشدو بألسِنةٍ ما عاقها حَصَرُ

في كلّ رَابيةٍ عُـرسٌ وزغردةٌ … نشوى تُهامِسُها أيّامُكَ الغُرَرُ

ترنُو إليكَ عيونُ الكونِ معجبةً … كالشّمسِ دانَ لها في سيرِه القمرُ

وقال:

- لو قلتَ: «في كل عائلةٍ عرسٌ وزغردة» لكذبتَ.

- بل تلك هي الحقيقة يا مولاي، ولكن قد توجد في البيت الشريف بيضة حارمة كما تقول العوام.

قطّب جبينه وأردف:

- هل تعرف معنى واحد من عشرة آلاف؟

فكرت قليلا وأجبت:

- مائة من مليون.

احتدّت نظراته ويداه تشيران في هيئة محددة تدعم قولا فصلا لا يقبل نقاشا وقال:

-هذا معناه أن في كل مدينة تَعدّ مليون ساكن مائة مشاغب، وفي المدن الكبرى أضعاف هذا العدد، وإذا جمعت الأرقام كان عددهم بالآلاف. أتفهم معنى ذلك؟ ألوف من رعيّتي تتحدّاني!

بقيت معقود اللسان. تزاحمت في ذهني خواطر مظلمة. ماذا يكون موقفه لو أعلمته بالحقيقة؟ لو عرف أن العُصاة في حجم يعسر وصفه؟ لو اخترق ظنه حجب التكتّم السميكة التي أسدلناها جميعا على الواقع المزري؟ لو أدرك أن كل ثقاته أجمعوا على إخفاء حقيقة ما أفرزته الصناديق؟ واجتاحتني قشعريرة اهتزّ لها جسدي وأنا ألحظ الكبير يرميني بنظرة متفحصة لا تخلو من فضول. تمالكت وقلت أهدّئ غضبه:

- هوّن عليك يا مولاي. لقد أحصيناهم عددا ومواقع، وغدا تجيئك الأخبار بما يثلج الصدر.

فهزّ منكبيه وقال وهو يشيح:

-لا. ليس الآن.

كان باديا أنه ينتظر أصداء الإقتراع في الخارج، ولم تأت الأصداء بما يسرّ. كل الصحف الأجنبية أجمعت على غُبونٍ فاحشة وتزوير، ووصفت العملية بالمهزلة، ونحمد الله أننا وقينا رعيتنا من زمن سُموم هذا الإعلام، وحرمناها تحريما لا يُستثنى منه غير القصر والهياكل

العليا للدولة، وجعلنا من وسائل التشويش ما يجعل التقاطها إذاعيًا وتلفزيًا من الأمور المستحيلة.

وأذن الكبير بصدّ الهجمة، بعد خطاب على الهواء مباشرة ندّد فيه بنار الحقد التي تأكل صدور الأعداء وقد جرت الرياح بما لا يشتهون، وقال إنهم كانوا يودّون لو انجاب الإقتراع عن فُرقة الأمة وانقسامها وتناحرها، ولكنها أمة واحدة لها دين واحد ورأي واحد وآمال واحدة تحوط ذمار الحق ولا تتنكّب عن الذود عن الحِمى. وقال أيضا إننا مستهدفون لمؤامرة ولكنها لن تمرّ، ونبّه كل فرد بتوخّي اليقظة والحذر، وإبلاغ السلط عن أي أمر مريب، وفي الختام وعد العاطلين بالشغل وأهل الجوع بما يغني البطون.

وبينما كانت الشوارع تضج بمظاهرات التأييد والتنديد «العفوية»، ووسائل الإعلام ترمي بسهامها نحو الغرب الحاقد وتطاعن أعداء تسمع عنهم ولا تراهم، كان الكبير يصدر تعليماته الصارمة في مجلس ضمّ الوزراء والأمين العام للحزب والكبير الثاني وحتى الغالية. وقال بالحرف الواحد ونظراته الحارقة تسفع الوجوه:

- أريد أن أكون عليما بذات الصدور في كل رجًا من أرجاء البلاد. في المدن والقرى والبوادي. لا تأخذنْكم بالمستريب رحمة. أريد نتائج ملموسة، ولْتصِلني التقارير أوّلا بأوّل.

شكّل حمودة فرقا من رجاله تقتحم البيوت في عزّ الليل، وتداهم مجالس السهر وحلقات السمر وتعترض كل من ضلت به قدم في جنح الظلام، وتندس بين الندامى في الخمارات وأوكار الليل، وأوصى أعوانه

بألا ينتفع بالعلاج والغذاء والكساء إلا من كان منخرطا في الحزب، وصارت البطاقة الحزبية هي الملاذ عند الجوع والعري والمرض، وهي الشفيع إذا حُمّ الخطر. ونهض العرباوي بالأعمال الكبرى، فحلّ نقابات العمال وعوّض قياداتها برجاله، وجعل للاِتحادات الطلابية منظمات موازية، وأدخل تعديلات في سلك القضاء بحيث لم يبق فيه إلا من يأتمر بأمره، وشجع الأعراف على الاِستثمار في المشاريع السياحية، ورغّب رؤوس الأموال عن الفلاحة وقال: «السياحة هي المستقبل، والغذاء بالمال يأتينا من كل أوب». وفتح باب الاِنتداب في سلك الأمن على مصراعيه حتى لم يبق في البلاد بيت ليس به بوليس، وأجرى تحويرا في قانون الصحافة، أتاح لبعض مقربيه إصدار صحف يومية وأسبوعية سارت على النهج المعتاد في التنويه بسياسة القائد الرشيدة وتمجيد أعمال الحكومة والإفاضة في الحديث عن نجوم الكرة والغناء، ولكنها ابتدعت أركانا خاصة للكشف عن الصائدين في الماء العكر وفضح أنذال الخفاء، ولا يكاد يمر يوم دون الإعلان عن إيقاف أعداء الأمة في الداخل، والإشادة باليقظة الحازمة لرجال الأمن ليوث الكبير البواسل.

ثم سحب العرباوي الشروط الحزبية على كامل مؤسسات الدولة وقال: «الدولة هي الحزب والحزب هو الدولة». حتى غدت العضوية جواز سفر إلى بر الأمان، وقيل إن الأولياء صاروا يشترطونها على من يرغب في الزواج من بناتهم.

وجاءت الأنباء بما أطفأ وقدة الغيظ في صدر الكبير، وغصت السجون والمعتقلات، والعرباوي ماضٍ في دكّ معاقل الشعب في

كل مكان، يلهج باسم الكبير في خطب رنانة، يعِد القريب ويتوعّد الجنيب ويكشف للرعية كل يوم عن مؤامرة تستهدف أمن البلاد، حتى أوغر الصدور بالنقمة، وأخذته سِنَةٌ من جنون العظمة فصار يهرف بالكلام بغير ضابط، وفي الهذر مقاتل لا ترحم.

وأصاب البلادَ انكماش وخوف وذعر، وصار الناس يلزمون بيوتهم منذ المغيب لا يبرحونها ولو حقّت الحاقّة، فاقترحت على الكبير أن نقيم مهرجانات وحفلات غنائية في الساحات والمسارح والملاعب ليروّحَ الناس عن النفس ساعة بعد ساعة، ويعلموا أن الحزم الملحوظ ما هو في النهاية إلا من أجل توفير أسباب الراحة والاِطمئنان لأبناء الأمة الأوفياء.

أدرك الكبير ما عنيت وقال، وكنا في مجلس الطرب الخافت تدغدغ آذاننا قيثارة البوسنية الساحرة:

- أصبت. لا بدّ أن نرخي القبضة، فالضغط يولّد الاِنفجار.
- فكّ القبضة وحده لا يكفي.
- ماذا ترى؟
- أن نحوّل النقمة إلى من كان سببا فيها.

اتسعت عيناه وتوهّج فيهما بريق وهو يسأل:

- العرباوي؟

أومأت برأسي في صمت ثم قلت:

- هل أتاك حديثه عن الخلافة يا مولاي في حالة شغور أو مرض لا قدر الله؟

ابتسم وقال:

- طبعا، ولكنك تعرف أنه مهذار لا يضمر ما يظهر.

- أصلح الله مولاي. قديما قيل: ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر من فلتات لسانه وصفحات وجهه، وما أظن إلا أنه يُضمِر أمرا.

تجهمت ملامحه، وزحفت من محجريه نظرة ثقيلة كدّرت الجوّ الرائق وسألني:

- ما هو؟

ازدردت ريقي وقلت في خفوت:

- صار يرنو إلى العرش بعيون حالمة.

ندّت عنه ضحكة عالية اهتزت لها الفتاة، وتمططت ضحكته فجاريته بعد تردد، فضج المكان بضحكنا، والبوسنية تنظر إلينا وهي لا تفهم عما نضحك ولا مما نضحك.

وما هي إلا أيام حتى أقيل العرباوي وألزِم بيتَه، دون أن يهتديَ الكبير إلى من يخلفه. والحق أن الإقالة لم تكن بفعل ما أسررت إلى الكبير في تلك الليلة، فهو لم يأخذ التحذير مأخذ الجد لعلمه أن بقاء العرباوي في منصبه رهين شهور معدودات، بعد أن احتجن الغضب والنقمة، وإنما جاء الإقصاء نتيجة هذر العرباوي نفسه، فقد روت زوجة أحد الوزراء للغالية أنه قال لها، وكانت بين أحضانه تستعذب طعم الخيانة والخمر، إن الله لو تقدم لانتخابات على كوكب الأرض، حيث الشيوعيون والملحدون واللاّغنوصيون والوثنيون والطائفيون والكافرون في كل ملّة بمئات الملايين، لما حاز حتى النصف. وطارت

الغالية بالنبأ الخطير، وهي ترتعش كأنها عاشقة مغتلمة أو جائعة مقرورة، ولم تهدأ إلا حينما ألقت على مسامع زوجها ما يؤودها وحدها حمله، فحدجها الكبير بنظرة نفذت إلى أعماقها كما تنفذ سكين في الظهر وقال:

- أحقا ما تقولين أم هي غَيبة ولّدها فشل المشاريع السياحية المأمولة؟

استطار قلبها وصمتت لا تنبس، وقد بدت كالعارية أمام هذا الرجل الذي لا يخفى عنه أي شيء، ثم نظرت إليّ شزرا، نظرات تشتعل بحقد دفين، وأومأت برأسها إلى الباب وقالت:

- الشاهدة موجودة.

وفاضت بالتفاصيل من كل جانب، فاربدّ وجه الكبير، واتسعت عيناه، وضجّ بالغضب حتى فار يحمومه الأسود من منخريه فخرج عن طوره وصاح:

- عبدو! لا أريده أن يهنأ بعد اليوم لحظة!

اعتبر ذلك طعنا في سياسته وفي مصداقية الِإقتراع، وقدحا في شخصه من رجل أسلم له أسمى المهام وأجلّها، فخان ثقته.

أبلغت العرباوي فشتمني وقال: «لا تفرح فمصيرنا واحد».

ولا شك أن الكبير الثاني يمقتني أيضا بعد أن هتكت سرّ تقارب ذلك الثالوث ذي الأطراف المتنافرة التي ما التقت إلا لاحتجان الثّراء بغير حساب. وقد نقل إليّ أبو السعد أن حرص العرباوي والغالية والكبير الثاني على إجراء الِإقتراع كان لتهيئه مناخ يلائم أهواء الغرب، تمهيدا لفتح أسوار البلاد المغلّقة أمام السلع والسياح،

وما سوف تدرّ عليهم مشاريعهم المرتقبة من مكاسب. وكان الكبير نفسه قد ارتاب من هذا التقارب الشاذّ، ولولا صفقة السلاح الخيالية التي أطمعه فيها العرباوي لما استجاب لنصحهم.

أيقنت أني آيل إلى السقوط عاجلا أو آجلا لو خلا الجو للكبير الثاني كي يدير سياسة الحكومة، وأزمعت على أن أكيد له كيدا يقيني شرّه، فالهجوم، كما يقول لاعبو الكرة، هو خير وسيلة للدفاع. ولكن اربدّت الآفاق تحمل في طياتها شرّا مستطيرا. اختفى العرباوي فجأة، وكنا نعِدّ له من التّهم والأحكام ما هو حريّ بامتصاص غضب الرعية. وهاج الكبير كأنما فقد عقله، وامتلأت عيناه بالحدّة، وارتعشت أطرافه وصاح بصوت ارتجت له جدران القصر:

- جيئوني به حيّا أو ميّتا!

ذلك أن العرباوي ارتكب بفراره جرما تذلّ أمامه الجرائم جمعاء، فأبغض السيّئات عند الكبير أن يُعصى له أمر، وعهده أن يقول للمأمور كُنْ فيُذعن بالطاعة ولو كان في المذعنة هلاكه. أغلِقت الحدود وانتشر البوليس والجيش والمخبرون يغرزون عيونهم في كل مكان كالمذارى في أكوام التبن، وينسربون في الأوكار والكهوف والجحور والمسارب كالزواحف، ويترصدون حفيف الشجر ودبيب الخشاش وغقيق الوديان لعلهم يُغَافِصونه، وباتت الرعية كلّها تقتّ الأثر وتتعقب الأخبار وتنصت لهزيز الريح، وتحلم صاحية بالقصور والثّراء بعد أن عُلّقت في المدن والقرى مناشير تطلب رأس الوزير الهارب حيّا أو ميّتا لقاء مكافأة أضرمت نار الجنون حتى في النفوس القانعة.

اعتُقِل آل العرباوي لتجنيبهم نقمة الرعية، وصُودِرت أملاكُهم

تعويضا عما ألحقه بها رأسهم من أضرار، وجيء بكل أتباعه وأعوانه وأعضاده وأنصاره وحتى من التقى به عرَضًا ليشهدوا عن آثام الوزير المخلوع، ثم اقتيدوا إلى السجن بتهمة السكوت عن المنكر، ووسائل الإعلام صامتة كأنّ الأمر يحدث في جزر الواق واق. ولم تنطق إلا عندما جاءت الإشارة.

أطلّ العرباوي يوما بوجهه القبيح من شاشة التلفزيون، تلفزيون الغرب الحاقد، هناك في ما وراء البحار، وانهال على النظام يجلده بسياط من لهب، ويقذف رجال الدولة فردا فردا لا يستثني حتى الكبير، ويزعم أنّنا نسوم الرعية الخسف والذل والقمع، وأنّ البلاد كأيِّم ما لها قَيّمٌ تعيث في كنوزها اللصوص، وعدّني أبشعَهم، وقال إني ألأمُ من كلب على جيفة.

كوّر الكبير قبضته بعنف حين لاح الخائن، وصاح بصوته الغليظ وأطرافه ترتجف من الغيظ:

- يا ابنَ اللئيمة! لن تُفلِتَ من قبضتي!

وبإشارة منه استشرت حمّى الشتائم كالعدوى في وسائل الإعلام وراحت تسلخ الخائن وترميه بأقذع النعوت، وسمّته «الفرطاس» فصار نبْزًا له ولقبًا لا يُعرَف بغيره.

وبمثل ما تُعامَل الموضة، والشرط في الموضة ألا تدوم، سرعان ما عافه الذوق ومجّته الأسماع وزهد فيه الناس فغدا هملا منسيًا، وخبا الحديث عن ذكره في صحافتنا إلا فصولا بين الحين والحين عن فضائحه وسرقاته وإفكه.

كان الكبير الثاني في الأثناء يلحّ على والده كي يقبل بانفتاح يدحض مزاعم «الفرطاس»، وينفض ما ران على سمعة البلاد بسببه وينفّس الناس عن ضيق، فوافق الكبير على إصدار بعض الصحف التي تشجع على المطارحات الفكرية والفلسفية والسياسية، رغم تحذيري، وذهنه مشغول بأمر لن يهنأ له بال إلا إذا أتمّه. وسألني:

- ماذا تخشى؟

- أن نعطيَ الدّرّ من لا يميّزه من البَرَد.

- نحن هنا لنمنع الزّوغان.

وقال أيضا:

- سنجعلهم يتناحرون حول مسائل لا تغني من جوع، ونضرب الأقوى بالأضعف، وإذا قويت شوكة الغالب كسرناها كما يُكسَر الشّوك، أو اقتلعناها كما تُقتلع الشوكة من العضَل.

ولم أستأ في حياتي من شيء قدر استيائي من ذلك الهراء الذي صارت تطالعنا به الصحف الجديدة التي تدّعي «الرأي الآخر»، ولولا ما كنت ألجأ إليه من شطب وتشذيب وحذف ومنع، لاجتاح الناسَ ارتدادٌ عن إيمانهم. ونصرنا المؤمنين على الشق الكافر، أولئك القائلين إن الدين أفيون الشعوب، الداعين إلى قوانين وضعية في كل مجالات الحياة. وكنت أجد الصبر في علمي بأنها مسألة ظرفية زائلة ثم تعود الأمور إلى مهدها، إلا أن المسألة طالت، والكبير ساهٍ عمّا حوله تطالعه في الصحو والمنام صورة العرباوي توغر منه الصّدر بنار لا يخبو وهجها، تتبدى في فورة الغضب التي تنتابه لأتفه الأسباب، وفي قومته العنيفة كلما ألمح أحد من بعيد أو قريب إلى مرحلة العرباوي، أو

رام التزلّف بشتم «الفرطاس»، كأنما هو زوج مخدوع لا يريد أن ينكأ أحد جرحه. حتى البوسنية هجرها ولم يعد يخلو إليها في مجلس الأنس والطرب.

ورأيت في ذلك فرصة لا تُعوّض وثغرة يمكن أن أنفذ منها لنسج خيوط المكيدة، وكان لا بدّ أن أبدأ بالفتاة، فإذا ضمنتها حوّلت وجهتي إلى الكبير الثاني، وأنا على يقين من أنّ الشراهة التي تسكنه وتُضرم نيران الرغبة في نفسه ستكون خير نصير لي في الإطاحة به.

كانت في خدمتي امرأة ممن تزوجهن الكبير لليلة تدعى هادية حمدي، وعدتها بالعتق إن هي نفّذت المطلوب، فأشرق الوجه العبوس بنور ابتهاج وومض في عينيها اللتين يسكنهما الأسى بريق الفرح المباغت، وكانت حدثتني مرّة عن إحدى قريباتها من بين خادمات القصر اللاتي يسهرن على راحة البوسنية. كان المطلوب في وقت أول أن تحوز هادية ثقة المليحة وأن تغدق على قريبتها من الهدايا ما يخرس اللسان. ولما ارتاحت إليها أميرة، وهذا هو اسم البوسنية، غمرتُها بما يليق بالأميرات من حلي وجواهر وأثواب من حرير، تحملها إليها خادمتي كلما سنحت الفرصة، زاعمة أنها عربون محبة من سيدها الكبير الثاني.

روت لي هادية أن أميرة صارحتها، والدمع ينهلّ سخينا على خدها الأسيل، بأن قلبها مشغول بهوى حبيب من بلدتها عاهدته على الوفاء حتى الموت، وهذا سرّ حزنها وتمنّعها على الكبير، وهو ما ينبغي أن أتحوّط له في خطوتي التالية، فقد كنت أحسب أن مجرّد إبلاغها بميل الكبير الثاني، وهو من هو شبابا ووسامة ورفعة، كفيل برميها

بين أحضانه فتفوح الفضيحة ويُقضى الأمر. ولكن خاب ظني، وكان لا بدّ أن أقوّم أشرعتي حتى تجريَ الرياح بما أشتهي.

ووجدتني أحبو هادية عطفا لم تعهده مني، وعطايا بخلت بها عليها من قبل، وفاض عطفي حتى غمر أخاها فاستقدمه أبو السعد بأمرٍ مني إلى بيتي معززا مكرّما والخير دونه في كل آن. والحق أني اتخذته ضمانا يقيني المزالق المحتملة، فالمسألة كلها مرهونة في قدرة هادية على ضبط النفس وكتمان السرّ والمراوغة عند الحاجة، وفي قدرتها أيضا على إقناع أميرة بأن تعمل بالنصائح التي كنت أسهب في شرحها كل ليلة. والنصائح لا تعدو عن إيهام الكبير الثاني بأن حبّه لاقى هوى من نفسها.

وحدثتني هادية أنها قالت للفتاة:

- مولاي يُباحثُكِ كلّ خير.

فأجابتها:

- ألتقي به وأقنِعه.
- ليس أنكى على الرجل من صدّ جارح.
- إذا كان أبيّ النفس نبيل الطوية كما تقولين، فلن يُرغِم امرأة تحبّ غيره.
- تلطّفي معه وحابيه، وإذا أنست منه حسن معشر صارحيه، فربّما ساعدك على العودة إلى بلادك ولقاء حبيبك.

وذكرت هادية أن وجه الفتاة شعّ فجأة برقراق سرور لم ينشب أن توارى خلف مسحة الحزن المألوفة، وتساءلت في خفوت:

- ومولاي؟

- «هوّني عليك يا صغيرتي، ردت هادية، فمولاي الكبير أطال الله عمره لا يرفض لابنه طلبا، فهو وحيده ووليّ عهده.

وجاءتني هادية وبشائر الفرح تزين وجهها، وبتّ رغم ذلك كحالي كل ليلة كأني أرتمض من الحمّى، تلمّ بي في المنام أضغاث لا أوّل ولا آخر، وتنتابني عند الصحو مخاوف تقذف في روعي بلواذع كسفافيد من نار، وتتراءى لي النهاية المحتومة لو يُفتَضح أمري، وأبيت كأني مضطجع على الشوك أقلّب منافذ الخلاص وأرتب ما ينبغي عليّ فعله كي أدره عن نفسي الظنون وجرائرها الوخيمة. ويطالعني وجه الكبير غاضبا فائرا يرجّ الحيطان بضحكته الحانقة وصوته المزمجر ونظراته ذات الأوار المُحرق، فتَسوخ روحي وتميد بي الأرض. ولكني كنت أعرف أن الكبير الثاني سيف مسلول، إن لم أقطعه قطعني، فقلبه ينفت عليّ ببغض مقيم سببه عدم انتمائي إلى العشيرة أولا، وحظوتي لدى والده ثانيا، واعتراضي ثالثا على مشاريعه التي ستفتح علينا أبوابا تهب منها عواصف جامحة.

وكان لا بدّ أن أمضي بالمغامرة إلى أبعادها القصوى، وأن أحذر كل ما من شأنه أن يستثير الخصم ويستنفر شكوكه، فبدأت بملازمة الصمت حيال عمله الحكومي، ثم صرت أنفحه بعبارات الإطراء في المجالس الوزارية، وأغض الطرف عن الأفواه المتهامسة والرؤوس المتقاربة والنظرات المرتابة. وأجبت من سألني عن سرّ هذا التحوّل: «لا بدّ أن نشدّ أزره، ففي فلاحه صلاح البلاد ورضى الرعية واستتباب الأمن».

أرسلت هادية ليلا لتقول له إنّ سيدتها البوسنية تقرئه السلام، وإنها نفورٌ تهيم بذكره وتتهيّب لقاءه. سألها:

- لِمَ؟

- تخشى غضب مولانا الكبير، قالت.

- وأنتِ، ألا تخشَين غضبه؟

- لو دُعيتُ إلى أمر آخر لعصيتُ.

- وماذا ترَين؟

- الرأي رأي مولاي، ولكني أحسب أنّ الكلام الرقيق والهدايا النفيسة ترخي الموانع، وتفتح السّواتر، وتمهّد للقاء المنتظر.

وتطوّع بالهدايا وبخل بالكلام، وكنت أريد توريطه بحجة بخط يده. وتريثت يوما وليلة، وأنا أستشعر ضيقا خانقا وسهادا مريرا وخوفا مما تخبّئه الساعات القادمة.

أحيانا تلوح لناظري صورة الفضيحة والنهاية المنكَرة، فأرتدّ كسلحفاة تطمر رأسها في درَقَتها وأزمع الكفّ عن كل شيء، وأحيانا يزين لي خيالي نهايات جميلة تتويجا لنجاح الخطة وانطلاء الحيلة واندحار الخصم، وأردّد في سرّي أن الكبير الثاني حامي الطبع خليع العذار لا يصمد أمام الإغراء، والبوسنية مُغرية فاتنة توقد ما خبا من رغائب وتضرم في الحواس لهفة جامحة، والناظر إلى وجهها الصبيح وعينيها العسليتين وخصرها الناحل مفتون مُعَنّى، يبيع ما بين يديه وما خلفه من أجل ملمس يدها الناعم وطراوة شفاهها الندية.

رنّ جرس الهاتف فجأة وألوان الفجر تخضّب الأفق بغبابة شفّافة، فاختضّ جسدي الواهن وسرت فيه رعشة كارتعاش الحمى، ونفرت

مني العروق، واصطخبت بصدري الهواجس، ومددت إلى السماعة يدًا مترددة ثقيلة وأنا أتوجس خيفة من هذا الطارئ الصباحي، وإذا صوت الكبير في الطرف الآخر من الخط يأمرني: «احضر حالاّ!» بنبرة جشاء جافّة تشي بأمر جلل.

شممت رائحة الكارثة، وضجّت بها خياشيمي وامتلأت رئتاي وتاه عقلي وأنا أخطو في الغرفة كالسائر في المنام، لا تكاد تحملني رجلاي كأنّ الهرم أدركني بغتة أو ألمّ بي ألم عاتم. ناديت فتحجّر الصوت في حلقي. أعدت الكرّة فهبّ أبو السعد مذعورا منتفش الشّعر مشوّش الهندام مضطرب الحركة. أدركت من ملامحه الذاهلة وهيئته المتوفّزة أنني أطلقت في البيت صراخ من يطلب الغوث.

قلت: «ويسكي!» فارتاب وظنّ بعقلي العلّة. احتسيت الكأس في جرعة واحدة واستزدت، وهو واجم ذاهل مأخوذ لا يفهم ما أصابني، ثم قلت:

- هادية وأخوها في ذمّتك. انقلهما إلى مكان آمن، وإذا لم تجئك إشارة مني فافعل اللاّزم. مفهوم؟

هزّ رأسه وقد بدأ يدرك أنني في ورطة، ألتمس مخرجا من عنق الزجاجة.

غادرت بيتي كأني أودّعه، والوساوس تلهب صدري، والأسئلة تغرق ذهني بطنين لا يهدأ، وأنا أحاول إقناع نفسي بأن الظنون أبعد من أن تنالني لغياب الحجة، ثم أعود فأقول إن الحجج موجودة، فشهادة الكبير الثاني والفتاة البوسنية وخادمتها كافية لتوجيه الشكوك

نحوي، فأنا مولى الخادم وكفيلها وسيدها الآمر الناهي، ثم ينتأ في ذهني رأي آخر فأقول لِمَ لا أزعم أنها مناورة من طرف معادٍ أداته المرأة، وإذا صوت آخر يهتف بي، وكيف تناور في غفلة منك وملاذها عندك... وتتناهبني التساؤلات كما تنهب سيارتي الطريق، ولم تهدأ إلا حينما استقبلني الكبير بترحيب أزال عنّي الهموم كما تزيل الأوجاعَ عين ماء حامية.

تنفّست الصعداء كالناجي من الموت بعد يأس، وأصغيت إلى الكبير بانتباه، وأنا دهش من تبكيره بالقيام على غير عادته وارتدائه الزّي الكاكي، وأمرني وفي عينيه بريق غريب وفي صوته الصارم نذير بجسامة المهمة:

- اذهب إلى المطار لتتسلّم بنفسك طردا لا ينبغي أن يراه أحد أو يعلم به أحد أو يقربه أيّ كان باستثناء الحرس الخاص، وجئني به بأسرع ما يمكن.

تساءلت بيني وبين نفسي، والسيارة العسكرية المصفّحة تخترق شوارع المدينة، عن سرّ هذا الطّرد الذي نهض له الكبير منذ ابتلاج الفجر، وربما سهر الليل في انتظاره، وعن فحواه المجهول، وازدادت حيرتي حين أبصرته. وجدنا في انتظارنا طائرة خاصة رابضة في ناحية قصوى من المطار لا يصلها الضوء ولا العيون المتلصصة، ليس بها غير القائد والأمانة. صندوق يقارب المترين طولا والمتر عرضًا وسُمكًا، سحبه الحرس وأودعوه جوف السيّارة في صمت رهيب. كل العملية تمّت في صمت ذهابا وإيابا كأنّ كل واحد انكفأ على نفسه يحاول أن يحزر طوية الطّرد الملغز.

توفّزت حواسّي حينما أمر الكبير بحمل الصندوق إلى دار الفناء في سراديب القصر، تلك القاعة التي تقشعرّ لذكرها الأبدان وتَجفُ القلوب، وكان يعقد ذراعيه خلف ظهره، ويذرع البهو كمن يترقب ولادةَ بكر في مخاض عسير، وما كاد يبصر الصندوق حتى اتقدت في عينيه أمارات فرحة سرعان ما انطفأت، وإذا نظراته تتوهّج بنار جنون وأنفاسه الحارة تزفر الحقد والغلّ.

ومض في بالي مشهد فظيع ونحن ندخل إلى دار الفناء. تذكّرت ما روي لي عن البحتر حين مثّل به الكبير أشنع تمثيل، وأيقنت أنه مقبل على مجزرة، وأن الشاة الجرباء مارق ضالّ أو خصم من خصوم الساعة، وانقبض قلبي فجأة وتملكني رعب ارتجت له رجلاي. ألا يكون بالصندوق وسائل تعذيب مستحدثة وأني فأر التجريب، فليس في القاعة غيري عدا الكبير وثلاثة جلادين أشداء تنضح نظراتهم بشهوة الدم؟

رأيت الجلادين يفتحون الصندوق، ورعدة الخوف تهزّ بدني هزّا، وعيناي مغروزتان في الصندوق كالمسامير، والكبير يفرك يديه في ابتهاج كطفل يتأهّب لتسلّم لعبة، وإذا جسد مسجّى، جسد رجل ميّت أو كالميّت، وإذا الكبير يهتف ظافرا:

– ها أنت أخيرا في قبضتي يا ابن الزانية!

مددت عنقي حتى كاد رأسي يلامس رأس الكبير، فلاح لي وجه تبددت لرؤيته مخاوفي ونابت عنها شماتة وغلّ ورغبة في الإِنتقام. الفرطاس الخائن، العرباوي اللعين ممدّد هنا على مسافة شبر بلا صوت

ولا حركة. وبإشارة من الكبير شمّمه أحد الرجال النشادر، فاستفاق مذعورا وبدا للحظةٍ كأنه لم يغادر كابوسه المرعب، وفرك عينيه مرة واثنتين، فإذا الرعب أمامه يرسل زفير النهاية الفاجعة، وندّت عنه صرخة من رأى الموت في أبشع صورة، والجلادون يرفعونه ويلقون به عند قدمي الكبير ويزيحون الصندوق جانبا، ثم يتهيّؤون للحسم.

بدا العرباوي قميئا ذليلا ذابلا كمن عانى الألواء أياما، ولمعت صلعته تحت الأضواء، وهو جاثٍ يلثم قدم الكبير ويستجدي منه الرحمة، والكبير يركله بجزمته العسكرية الثقيلة ويقول في حنق:

- أتفتري عليّ يا لئيم!

فيصرخ العرباوي ألما ورعبا ويقول بصوت تخنقه الغصّة:

- المنيّة ولا الدنيّة يا مولاي!

فيردف الكبير، وجزمته تدوس أصابع الفرطاس حتى يعلو صراخه:

- الدنيّة اقترفتها يا ابن العاهرة. والمنيّة سترشفها قطرة قطرة.

وراح يبتدع له أنواعا من التعذيب لم أقرأ عنها في كتاب ولم أرها حتى في دار الفناء، ولا أظن أني موفيها حقّها من الوصف. اقتعد كرسيّا وأمر العرباوي بأن يبول في حُكّة، ولما فعل قال له اشرب سمومك فبكى الرجل وقال:

- أشرب لإرضائك حتى السمّ الناقع يا مولاي.

ثم أمر ففرِشت البلاطة بالدبابيس وهشيم الزّجاج، وجُرّ عليها العرباوي عاريا وجها وقفا، ثم جُلِد بسياطٍ مكهربة ورُشّ بالملح،

وصراخه يرتطم بالحيطان في ولولة كعويل ريح صرصر. وكلما أغمي عليه، أعيد إلى رشده بسيل من الماء البارد حينا والماء الساخن حينا آخر. ثم أمرنا الكبير، حتى أنا، بأن نبول عليه واحدا واحدا قبل تعليقه من رجليه كالسّليخة، وقد استحال جسده إلى كتلة مشوهة تنزّ دمًا وقذارة، ولم أكسل خوفا من أن يُحوّل الكبير غضبه إليّ، وإن كنت أودّ لو يعجّل بقتله لأهرب من ذلك الجوّ الدامي، وتلك النظرات المتوسّلة الذليلة التي أعرف أنها ستلاحقني ما حييت، والكبير ينهال على الجسد المثخن بالجروح بتنكيل مستجد حتى انقضاء النهار. عندئذ أمر بطرح العرباوي أو ما بقي منه على بطنه فوق مائدة مستطيلة عارية، وجاءه أحد الرجال بكير فأولجه في أست المعذّب بعنف مزّق عُجارَه، والمسكين يتلوّى بين أيدي الجلادين الماسكين برجليه ويديه، وينفث آخر ما تبقى له من قوة في صرخة ألم شنعاء، وتوهّجت في عيني الكبير نار جنون خرافيّ، فأرسل ضحكة حانقة، وهو يرفع مقبض الكير ويخفضه في حركات عنيفة متوترة كمن ينفخ نعجة بعد ذبحها، وقال ما بين أسنانه، وأنفاسه تزفر الغلّ والنقمة:

- تريد أن تبلغ شأوا أكبر من حجمك؟ فلتكبر إذن!

وجعل ينفخ في الكير، والطريح يتمطّط كالنّفاخة حتى غدا مثل شكوة اللبن ثم ككيس الحنطة ثم كالبرميل، ثم انفجر كأنما انغرز في بطنه دبوس غليظ، وغاصت القاعة في أشلاء اللحم ومِزق الأمعاء والدماء والأوساخ التي ترامت على الحيطان ولطّخت الوجوه.

ولم يجد الكبير متّسعا من الوقت ليفرح بانتصاره، فما كاد يسوّي هيئته ويصعد إلى البهو حتى جاء من يخبره بأن البوسنية انتحرت.

انقبض قلبه وانحبس صوته وانطفأت نشوته وغلى دمه، وصاح في الرّجل بصوت مختنق بالغضب:

- مسدّسك!

سلّمه الرجل المسدّس بيد مرتبكة وذعر غير خافٍ فإذا بالكبير يصوّبه نحوه ويطلق عليه النار، وهو يقول بصوت مرتعش النبرات من الحنق:

- أكره نذير الشؤم!

وسأل عن ابنه فقيل له اختفى، فاربدّ وجهه، وتصلّبت ملامحه من الغضب، وانعقدت في نظراته نوايا معتّمة، وتفجرت نفسه عن براكين حامية حين علم أن ابنه اغتصب البوسنية فكان ما كان، فأمر بخصاء كلّ من في القصر، حتى الوزراء. ولم أسلم من ذلك رغم تقدّمي في السنّ، ولكني وجدت السلوان في نجاح خطّتي وزوال كل ما من شأنه أن يثير الظنون نحوي، فقد جاء أبو السعد يعلمني أنه انتظر إشارتي، ولمّا يئس قام باللازم ووارى الجثتين في مكان غير معلوم، وما كنت أريد لهما القتل، وما كانا يضمران لي أيّ كره، ولكنْ للسياسة أحكام لا تعترف بمنطق، بل لا تقر إلا بمنطقها الخاص.

وجدّت حوادث عجيبة ووقائع غريبة قاومناها بما ينبغي أن تقاوم به المهاوش، وتعاقب ليل إثر نهار، وتناذرنا الأعداء من كل صوب، والكبير سادر مغتمّ شتّت الحزن عقله وفاضت بالأسى نفسه، وراعني أن أرى ذلك الرّجل الذي لم يحنِ هامته في حياته حتى للخالق أقربَ إلى سور منهار.

وليلة قال لي:

- لقد كَففتُ يدي عن القتل، وزجرتُ نفسي عن الغضب، ونزّهت قلبي عن الحِقد، وصنتُ لساني عن كل أمر مكروه، وأضمرت في نفسي ألا أبغيَ على أحد. ولكن ما قدَرُ الإنسان إذا استثير؟

- أن يكيلَ الصّاع صاعين، والبادئ أظلم.

فزحفت من محجريه نظرة مخيفة، واتّقدت في عينيه تلك الشّعلة النافذة وقال:

- هو ذا، والحديدُ بالحديد يُفلَح. وهل دواءُ العنف إلا العنف؟

وقام قومة أدركت معها أنه أبلّ من شدّته وأنّ عربانيا، بلادَنا، مُقبلةٌ على رزايا.

باب الكبير الأعظم

إن الوحيد في نفسه والمنفرد برأيه حيثما كان هو ضائع ولا ناصر له.

ابن المقفع

لو عادت بي الأمور إلى عِترها الأول لما اخترت غير ما اخترت.

لقد كففت يدي عن القتل وزجرت نفسي عن الغضب ونزّهت قلبي عن الحقد والبغض وصنت لساني عن الغيبة وكل أمر مكروه وأضمرت في نفسي ألا أبغي على أحد، ولكن أولاد الزانية، كدوابّ شبّت على الشدّة، أنفوا اللين والهوادة، وأطمعهم صمتي فراموا نهش لحمي وما دروا أنه قاسح لا يحزّ فيه أن يُقطع بالسكين ولا يؤثر فيه أن يُمضغ بالضرس. فاروا ولعابهم يسيل بألف نية مضمرة فكانوا طُعمة النيران التي أضرموها. تهاوت على رؤوسهم الملتاثة بالشرّ رجوم من نار فرّقتهم بددا وتركت ديارهم كوم أنقاض ينعب فيه البوم وتحوم حوله الغربان، وأفاق الطامعون، أولئك الذين زيّنت لهم فورة الأحداث نهايتي المرتقبة، على خيبة في مرارة العلقم، كقابض على الماء خانته فروج الأصابع، وغاصوا في أوحال الخِسة والنذالة يروّجون من الكلام ما نبا، ويلفّقون المزاعم والأكاذيب، ويستصرخون الغريب في مناشير سرية تفوح برائحة الحقد، يبغون تقويض ما أسسه عرق السنين بجهد جهيد.

بحّ صوت مفتي الديار في تذكيرهم بقول رسول الله: «لا يحملنّكم إبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله». ولم يرعَوُوا عن غيّهم، بل

أجّجوا الطّعمة حتى غدا لهبها ينذر بحريق يأتي على الأخضر واليابس، وكان لا بدّ أن نطفئ اللهب قبل استشرائه، وندكّ معاقل الردّة بكل الوسائل المتاحة، ونصيب تلك الشرذمة بنكال يخرس الأصوات الناعقة ويقتلع الإثم من جذوره. أعلنّا حالة الطوارئ وحظر الجولان منذ أن تزوغ الشمس ويفيء الفيء حتى مطلع الفجر، وبات كلّ ساعٍ في الظلمة وكلّ من سارت به قدم منذ أن تتناكر الوجوه مدانا، يحلّ سجنه وحتى سفك دمه.

وكنت أسأل الوزراء عند التئام المجلس بانتظام غير معهود عمّا تريده الرعية، فيخبطون خبط عشواء ويفيضون بالحديث من كل جانب ويبخلون عليّ بالجواب الشافي. وأبيت الليل تنهشني حيرة ذات أظفار دوامٍ وسؤال مؤرق قلق يصخب بداخلي كالندم الممضّ:

ماذا تريد الرعية؟

ماذا يريد الرعايا، وقد أطعمناهم من جوع وآمنّاهم من خوف وأجرينا عليهم الأرزاق وآتيناهم من العلوم أجلّها ومن الآداب أنفعها وأسبغنا عليهم من العطف ما وحّد صفوفهم ولمّ شتاتهم وقوّى صريمتهم، وكانوا من قبل بداة جفاة حفاة عراة يعيشون شيعا متناثرة وقبائل متناحرة، لا يأمنون على أرواحهم ولا ديارهم ولا حُرماتهم، ينازعون النمل الفتات ويكرعون من غدران آسنة.

ماذا يريدون وقد كتبنا لهم الاِستقرار الذي تستقيم معه الدعَة والأمان، وكانوا يعانون هزّات تخرّ لها الجبال ونار فتنة تصهد الأبدان وتصهر العظام.

ماذا يريدون وقد وفّرنا لهم من أسباب العزة والنخوة ما لم ينله آباؤهم وأجدادهم، وكانوا يُسامون ذلاّ ألعن من الموت وإملاقا ليس بعده إملاق، ويُساقون إلى حتفهم كما تساق الشياه إلى المسالخ، وتُترك نساؤهم أيامى وأبناؤهم يتامى.

ماذا يريدون وقد جعلنا لهم المشافي في كل مدينة، وجهّزناها بأحدث المعدّات، وجئناهم بأمهر النطاسيين، وكانوا من قبل فريسةَ الأدواء والأوبئة يحصد الموت أرواحهم كما تُحصد السنابل.

ماذا يريدون وقد بنينا لهم المساكن والدور، وأقمنا الملاعب والمسارح، ومهّدنا لهم الطرق وسكك الحديد، وأرسلنا خطوط الهاتف ومَرَسات الكهرباء في كلّ أرجاء البلاد، ونشرنا محطات بثّ يمسح إرسالها كلّ ركن قصيّ، وكانوا من قبلنا لا يعلمون من ذلك شيئا، يجهلون ما حولهم ولا يذهبون أبعد من مرمى البصر، وإذا نأوْا حفّت بهم المخاطر من كلّ صوب.

فماذا يريدون؟

لقد كنّا نحسب أنهم قلّة من الخوارج الغاضبين الذين لا يخلو منهم عصر ولا تعدمهم بلاد في لحظات سهومها وليونة قبضتها، إلا أن الأنباء كانت تجيء كل يوم بنذُر شرّ تتطاير في الفضاء، في موجات متعاقبة ذات حموٍ دافق كسفع رياح الجنوب في يوم عكيك. وكان لا بدّ أن نلتأ المرتدّين برجوم النار ونخمد فورتهم ونمنع تفشّيها، ولم نكتف بإخراس الأصوات الناعبة بل حوّلناها إلى صراخ تصّاعد أنّاته إلى عنان السماء، ليكونوا عبرة لمن يعتبر. ولم يعتبروا. وبقي

النّصل منصلتا على الرقاب، وظل الوزراء يهرفون بكلام لا طائل من ورائه، وظل السؤال قائما:

ماذا يريدون؟

ومرّةً استجمع أحدهم شجاعته، وحزّم أمره وقال:
- حرية التعبير.

فتصدّى له عبدو الباش كاتب بسؤال عقل لسانه:
- التعبير عن ماذا؟

ورازه بنظرة باردة كالجمَد زحفت عليه من عينين مدورتين تبدوان تحت حاجبين معقوفين منفوشين كحواجب البوم، كأنهما عينا ثعبان متوثب للّدْغ، وتلقّى الرجل السؤال كصفعة على القفا، فبانت البغتة في عينيه والتجم عن الكلام. ازدرد ريقه بذِلّةٍ وانغرس في مقعده كأنما رُزّ بمطرقة، وزادت الأنظار المنصبّة نحوه باستنكار جليّ في إفراز عرق الرّعدة المتفصّد من جبينه، المنحدر على صفحات وجهه الثخين المترهّل ورقبته العريضة، وراح يعُدّ لحظاته المتبقية في صمت مشوب بذعر غير خاف. لحظات لم تدم أكثر مِمّا ينبغي. أومأت برأسي، فخرج مدحورا محنيّ الهامة يجرّ رجليه كجرذ أصابه فخّ لئيم.

لا حاجة لي بمن كان مأفون الرأي ضعيف الحجّة قليل الثقة في نفسه لا يتحمل جرائر قوله. كنت بحاجة إلى من يشخّص لي الحال بمساويها، من يعتدّ برأي لا يتنكّب عنه ولو في ذلك هلاكه. ولم يكن حولي غير رعاديد يُرجِفهم صوتي وصمتي، إمّعة يوافقون على كلّ

أمر ويحتملون مني التقريع والتأنيب وحتى الشتم والصفع. حسبهم ما يجيء به المنصب من منافع، أما ماء الوجه فعين ناضبة من زمان.

كلهم، حتى عبدو كاتبي وصفيّي، يولونني طاعة عمياء وامتثالا لا نظير له.

مرةً قال لي، وكنت قد أسبغت عليه نعمى:

- رضاك عني فوق كل رضى.

- حتى رضاء الله؟

- دعها حتى تقع.

كذلك هم. لا هَمّ لهم سوى مرضاتي. كلهم لا يخالفون لي رأيا ولا يعصون لي أمرا ولا يجادلونني في قول ولو كان كذبةً بارحة. فلو زعمت أن الأرض مسطّحة والشمس آهلة والعنقاء حقيقة وحنبعل أسطورة وبني هلال كذبة ونزول الإنسان على القمر خدعة والصفر قابل للقسمة والمهلهل واضع علم التاريخ وشجر التين مزهر والخفاش طائر بيوض... لما وجدت فيهم من يجرؤ على الِاعتراض أو التصويب.

وكنت ما بين وقت ووقت أسري عن نفسي بإرباك معارفهم وزعزعة قناعاتهم، فأطلع عليهم بمزاعم عن اكتشافات لم يهتد إليها قبلي أحد، وأفكار لم يسبقني إليها بشر، وكتب لم يسمع عنها إنسان، وأعترض على مآثر وحِكم جرت مجرى الأمثال، ولا أترك بابا إلا أدليت فيه بدلوي.

زعمتُ مرة أن مؤلّف «ألف ليلة وليلة» ليس مجهولا كما أشيع

ولا هو مجموعة من رواة شعبيين تراكم نتاجهم عصرا وراء عصر كما ذهب إلى ذلك الدارسون والباحثون، وإنما شهرزاد نفسها، وما كانت لتكتم نسبة الأثر إليها، لولا أنّ الرّجال في ذلك الوقت كانوا ينكرون على المرأة أن تأتي بما يدحض ما استقرّ في ظنهم من كونها ناقصةً عقلاً ودينًا. وأضفت أن إطار الحكايات أخبار ملفّقة، فشهرزاد لم تحكِ اضطرارا لإنقاذ رأسها وبنات جنسها من السيف والنطع، وإنما لكونها أديبةً فذّةً ذات خيال خصب وثقافة واسعة، تفتقت قريحتها عن لون أدبي مبتكر لا يزال الغرب يحذو حذوه دون كِفاء.

استراح الجميع لرأيي، وتلقفته وسائل الإعلام فأطنبت في الحديث عمّا أسمته ردّ الِاعتبار للمرأة، هذا الكائن الذي طالما وصفته الحضارات القديمة ببلية العالم وينبوع المسرّات السامّة أو الشيطان الجميل في أحسن الأحوال، وصار في عهدنا المبارك صنوًا للرجل يستوي معه في الحقوق والواجبات. ووُجد من اقترح إقامة عيد للمرأة تحتفي به البلاد كل عام، وما هي إلا أيام حتى كان المقترح أمرا نافذا صادق عليه البرلمان بالإجماع شأنه في ذلك شأن كل قرار أريده.

وضجّت بالزغاريد البيوت، وفاض بالشاكرات القصر، وتبارت الجمعيات النسائية في التعبير عن اعترافها بالجميل من خلال هدايا فاقت كل تقدير. وكانت أروع هدية وأطرفها تلك التي جاءتني من جمعية العِفّة. بناتٌ في ربيع العمر يشعّ جمالهن بلألاء عجيب. أسيلات الخدود وضيئات الوجوه مسرّحات الشعر ممشوقات القوام تفور أجسادهن بشهوة تضرم في النفس نار الرّغائب.

وقالت لي رئيسة الجمعية، عجوز مصبوغة الشعر حسيرة الثوب لا يزال في قسماتها فضلة من جمال:

- هؤلاء ألف عذراء وعذراء جئن يهبن لمولانا الجسد والروح، حبّا وكرامة وعرفانا بالجميل.

سألتُ: «من هنّ؟»

فقالت وابتسامة ماكرة ترتسم على زاوية فمها المكمّش:

- بنات شهرزاد.

فوصلت الجمعية بأموال وهدايا تفوق هبتها بكثير دعمًا لأعمالها الإصلاحية.

أما عبدو الباش كاتب فقد استأذنني في عقد ملتقى دُوَليّ لتعميق البحث حول هذا الإكتشاف الخطير، وكان كعهده حريصا على التوثيق يردد قولة حفظها من الكتب القديمة:

«اللسان أكثر هذرا والقلم أبقى أثرا».

وجدنا من الأجانب من قبل المشاركة ببحوث مكتوبة في محاور تصبّ كلها في ما ذهبت إليه. ولقي الملتقى الذي أقيم في أفخر الفنادق طوال أيام عشرة بالتمام والكمال نجاحا شدّ الأنظار في الداخل والخارج، وانتهى إلى تحديد نشأة شهرزاد وموقعها من أدباء عصرها، وتكريسها قطبا من أقطاب فنّ الحكي عبر العصور، وأوصى التقرير الختامي بضرورة نفض الغبار عن آثارها المغمورة وطبع أشغال الملتقى في كتاب تعميما للفائدة، مع التأكيد على صاحب الفضل في إماطة اللثام عن الحقيقة العلمية المغيّبة، وأنا أضحك سرّا

وعلَنًا من تفاهة أولئك العلماء، ومن وزرائي وأعضادي، ومن الناس أجمعين.

ومرّة أخرى حضرتُ عرضا مسرحيا شدّتني أحداثه، إحدى مسرحيات شكسبير، رتشارد الثّالث فيما أذكر، وكنت قرأت له أعمالا متفرّقة دون أن يكون لها في نفسي الوقع الذي أخذ بمجامع قلبي، وأنا أرى الممثّلين على الرّكح يُكسبون الألفاظ حياةً زادتها النبرات المتوترة، والأضواء الوانية، والموسيقى المتموجة ما بين صخب وخفوت، أبعادا درامية تفعل فعلها في النفوس.

عدت إلى قراءة كل أعماله، ووجدت فيها من القدرة على تحليل النفس البشرية، والمهارة في تصوير الخلجات النفسية والتعبير عن الصراع الأزليّ بين الخير والشر، ما جعلني أنكِر أن يكون هذا النبوغ لكاتب أجنبي، وأنا الذي لا يني يقرع الأسماع بأنه لا يأتي من الغرب ما يُفرِح القلب. وودت بقوة لو كان عربي الأصل وأسعفتني الحيلة.

ومض في ذهني ليلة خاطر فدعوت الباش كاتب، وحدثته عن طائف ألمّ بي المنام وهاتف يهتف بي: «أدركني يا أمير المؤمنين!» قلت: «انتبهت فإذا رجل وقور مشتهب الرأس واللحية أجرد الجبين يمدّ ذراعيه في ضراعة ويقول لي بنبرة مثقلة بالأسى: «أعدني إلى تربتي الأولى!» قلت: «من أنت؟» فقال: «أبو غلام الشيخ زبير بن خلف بن نصر بن مروان بن الحسن بن أبي حفصة، ولكن ما من أحد يدعوني اليوم بغير اسم مستعجم. ولشدّ ما يسوؤني يا مولاي أن تُطمَس

ملامحي العربية وأبقى حبيس غربتين: غربة الدّيار وغربة الإِسم، وينهال الغرب على أصلي محوا وتعتيما كمن يقطع أوصالي بحدّ السيف». وغاب عني وجهه وظلّ صوته يملأ سمعي في المنام: «أنا الشيخ زْبيرْ! الشيخ زْبيرْ! الشيخ زْبيرْ!».

وما أن انتهيت حتى تهلّل وجه الباش كاتب وصاح ظافرا، وكان قد لاحظ انغماسي في قراءة شكسبير منذ أيام:

- لقد أبلج الحق ولجلج الباطل يا مولاي! هذا إلهام من الله كي يعود الدرّ إلى معدنه. لكم قلت في نفسي إنّ كاتبا في عظمته ونبوغه شغل الدنيا وملأ الأسماع لا يمكن أن يكون إلا عربيّ الأصل والمنبت. شكرا لك يا مولاي، فقد أزلت عني غشاوة بسمك الجبال.

- غشاوتُك لا تعنيني، قلت. هذه حقيقة لا يمكن أن تظل خبيئة الصدور، ولا بدّ أن نصدع بها على رؤوس الملأ، فلا خير في صدور تبقى مقفلة على ودائعها.

- نعم الرأيُ يا مولاي! سنعليها تحت كل سماء، وغدًا ترفرف رايات الحق خفّاقة، ولن نسمح بعدئذ أن يدعوَ الناس كاتبنا بغير الشيخ زْبيرْ.

فقلت بصرامة:

- بل من الآن.

ومضى يلهج باكتشاف لو لم ينسبه إليّ لرجمه الناس بالحجارة. وانبرى النقّاد يستقرئون أعمال الشيخ زبير، ويستجلون الملامح

والسّمات التي تؤكد عروبته، وانكبّ الباحثون على سيرته، وغاصوا في التنقيب عن هويّته وجذوره، فإذا هو من أسرة موريسكية الأصل تاهت بها المسالك منذ سقوط غرناطة في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد، فتنقلت من جنوب فرنسا إلى شمالها الغربي، ثم عبرت بحر المانش لتستقرّ في انقلترا، قرب مدينة برمنغهام في أواسط القرن السادس عشر. وقال قائل منهم إن الشيخ زبير لم ينكر يوما أصله، ولم يقبل في حياته بتغيير اسمه أو تحريفه رغم الترهيب والترغيب، ولما قضى نحبه عاثت في ذِكره الأيادي العابثة تحريفا وتزويرا ما شاء لها أن تعبث.

وراجت في البلاد موضة البحث عن هويّة أعلام الغرب ممن ذاع صيتهم في مختلف مجالات الأدب والفكر والفنون والعلوم، خصوصا أولئك الذين كانت أسماؤهم تقبل التطويع للعربية.

ولم ينهض أيّ كان، لا من الرعية ولا من وزرائي وأتباعي ليطعن أو يعترض أو يصحّح.

أحيانا كنت أتسلى بإذلالهم وبثّ الرعب في نفوسهم ليعلموا أنّ المنصب ليس حالة دائمة فيدفعهم الِاطمئنان إلى التفكير في ما فوقه، وأنّ البقاء مرهون بمرضاتي. وكنت أدعو أحدهم إلى اجتماع هام في مكان محدد، وأعمد إلى تغييره دون سابق إعلام، ثم أحاسبه حسابا عسيرا عن إخلاله، أو أرسِل إليه أمرا بالحضور في الحال لحاجة عاجلة، وأتركه في قاعة الِانتظار يعدّ الساعات السّاعة تلو السّاعة تقلّب الظنون رأسه، وعندما أدرِك أنه أشرف على تلك الحال

التي يكون فيها الذهن موزّعا بين الفرج والشدّة، أبعث من يأمره بالاِنصراف دونما تفسير ولا تعليل.

وكانوا يرون في ذلك استنكارا عن تقصير ينبغي تداركه بمزيد التفاني في إرضائي، وكلّما ازدادوا تمسّحا وتزلفا وانبطاحا أمعنت في إذاقتهم مُرّ الإهانة والاِستصغار، وهم يتجرّعون الذلّ المهين والهزء المخزي دون أن تطرف لهم عين أو يندّ عنهم صوت، بل كانوا يتشفّون هم أيضا ممن تحل به الراجفة، فيبيت مثار هزء في مجالس لا تغيب عني أصداؤها.

كلهم. حتى المفتي، بل إنّ ما لقيه الشّيخ عبد الرّحيم المنصوري فاق كلّ تصوّر، وما كنت أحسب أنّ الأتقياء يمكن أن يغريهم متاع الدنيا إلى حدّ ينسون معه الورع والتقوى حفاظا على امتيازات يعلمون تمام العلم أنها زائلة، فإذا مخافة السلطة مقدَّمة عندهم على مخافة الله.

دعوته مرّةً، وكنت قد أقمت مأدبة لوزرائي وأعضادي لمناسبة ما عدت أذكرها، ولما أبصر المائدة وأصناف الطعام وأنواع الخمور، ارتبك وعهدُه ألاّ يُستدعى إلاّ لإصدار فتوى. ظل واقفا مسمّرًا يداري ارتباكه بفرك حبّات مسبحة من الكهرمان كنت أهديته إياها، وقد بدا مربّعا مدوّرا في جُبّته اللبنية، يمسح حبّات عرق تفصّدت على جبينه المعصّب بعمامة مصفرّة، ويمرّ بباطن كفّه على لحية خفيفة موخوطة بالشيب، ينتظر أمرا لا يعلم ما وراءه، ونحن منشغلون عنه بالأكل والشرب والضحك والحديث. ولما رفعت رأسي، رأيته قائما

لم يزل عن مكانه، وعينه حائرة تنظر ولا ترى، كأنه يبحث عن شيء لا يعرف ما هو.

سألته:

- يا شيخنا، قل لنا... لماذا حدّد الإسلام الزواج بأربع نساء، لا اثنتين، لا ثلاث، لا خمس... لماذا؟

بدا كأنه هزّ رأسه من نعاس، وجرت في جسده صحوة مفاجئة، ولا شكّ أن الهواجس ازدحمت في رأسه وهو يتلمس الخروج من ذلك الوضع القابض. أيتحدث عن الدين في مجلس يعبق برائحة المنكَر؟ أيذكر اسم الله وذكره الحكيم وحديث رسوله الكريم في جوّ ينضح بالإثم والكبائر؟

ولم يكن له حيلة في ما يرى ويسمع. راح يفيض بالشّرح ويستدعي من الذاكرة شيوخا وأئمة، ويسوق الأمثلة ويستهدي بالصحابة والتابعين كأنه يلقي خطبة الجمعة، ونحن في غنى عنه لاهون بالخمر نقرع الكؤوس ونتيه في أحاديث هامشية، وكلّما علت أصواتنا وتوقّف، أرسلت نحوه نظرة صارمة تحثه على الِاسترسال، وهو في حال خلت معها أنه مقبل على وضع حدّ لحياة لم يعد فيها لإجلال الشيوخ واحترام الشّرع مكان. ولم يفعل. كان الطمع في الجُود أقوى من إيمانه، فوطّنت العزم على إذلاله، لأعلم إلى أيّ مدى يمكن أن يقوده الحرص على المنصب ومنافعه.

دعوته مرة ثانية منذ الفجر، وتركته ينتظر حتى المغيب، ثم أمرت بإشخاصه، ولما حضر، أشرت إليه بالجلوس إلى مائدة عريضة، عليها

من الأطعمة ما لم يذقه، ومن الفواكه ما لم يره، ومن الخمور ما لا يميّز منها غير الألوان.

كان قميئا ضامرا ينغش في مقعده وسط الوزراء والأعوان، ذاهلا لا يدري ما يُعَدّ له.

رفعت كأسي وشربت، فشربوا إلاّ هو. سألته:

- يا شيخنا ، ما رأيك في ما نتساقى؟ حلال هو أم حرام؟

بدا لحظة معقود اللسان، لا يدري أيّ جواب يقيه الخطر المحدق. رفّت عيناه مرارا، ازدرد ريقه كأن حبّة تسدّ حلقه، ثم تنحنح وقال:

- رُوِي عن أبي هريرة...

فقاطعته:

- دعك من أبي هريرة. قل لنا ما رأيك أنت.

التجم عن الكلام برهة لعلّه لعن خلالها اليوم الذي انتُدِب فيه مفتيًا، وربّما اليوم الذي بشّرت فيه القابلة أهله بمولده، وبدا كالسّائر على سراط دقيق تُشفي حافتاه على مهلك لا يعلم أيّهما أخفّ وطأة. وقلّب طرفه مأخوذا، فإذا العيون كلها تحملق فيه كأنها تسبر غوره.

أخيرا قال:

- لقد قرأت المصحف كذا مَرّة، فوالله ما وجدتُ لها تحريما، ولكن...

- دعنا من «لكن» هذه، وقل لنا لماذا تأنف إذن مما لم يحرّمه الله؟

- لأنّ فيها مضارّ.

- وفيها منافع كما ترى، أم أنّ مجلسنا رِجْسٌ من عمل الشيطان؟

انتفض كمن يدره عن نفسه تهمة:

- معاذ الله! حاشى أن يعكّر الشيطان هذا المجلس الطاهر!

وأضاف وهو يقلّب في الحاضرين نظرات يغشاها الخوف:

- وهل يدخل الرّجس مكانا يرفرف في أعطافه فيء مولانا المفدّى أطال الله عمره؟

- دونَك هذا القدحَ إذن!

ارتدّ كمن رأى رقطاء في أنيابها سمّ ناقع، وسكت حتى خلت أنه فقد صوته، وظلت عيناه على القدح كمسامير دُقّت في لوح من الخشب، وصدره يعلو وينخفض في زفير محشرج كأنه مريض ينازع.

سألته:

- ما بك يا شيخَنا؟

قال بصوت مرتجف كأنه مقرور، وقد بدأ العرق ينضح من جبهته:

- أنا... أنا خَـ... خائف.

قلت أطمئنه:

- أتخاف وأنت في حمايتي؟ اشرب. اشرب ولا تخف.

ما قال ربُّكَ ويلٌ لشاربها   بل قالَ ويلٌ للمُصلّينَا

نكّس رأسه لحظة مخذولا مهزوما، ثم رفع نحوي نظرة فيها توسل واسترحام، قابلتها بنظرة نافذة رأى فيها المسكين القضاء المبرم، ومدّ إلى القدح يدا مرتجفة، وقال بتلعثم:

- سأشرب... عسى... عسى أن... أن يجعل الله لي فيها... شفاء من... من داء الكولسترول... عافانا وعافاكم الله.

قلت أشجعه:

- بل هي شفاء لكل الأدواء.

تجرّع القدح دفعة واحدة مغمض العينين مرتعد الأوصال، فسالت منه قطرات على جوانب فمه، مسحها بكفّه وتنفّس الصعداء كمن مرّ بمأزق عظيم.

قابل الندماء ذلك بهتاف قطعته بإشارة من يدي وقلت:

- كيف تحِس نفسك الآن؟

فأغضى بصره مثل صبيّ أتى زلّة وتمتم:

- كأني... كأني في... في مركب يا مولاي.

- خذ قدحا آخر وإلاّ تاه بك المركب.

وما زال يفرغ القدح فنملؤه حتى انحلّت عقدة من لسانه، فجعل يتحِفنا بطرائف من سيَر أبي العيناء والخليع الدمشقي وأبي العِبَر، ويُنشِد قول أبي نواس:

يـا ناظِـرًا في الدّيـنِ مـا الأمرُ ... لا قـدَرٌ صَـحّ ولا جَبْـرُ

مـا صـحّ عنـدي مِـن جميـعِ الذي ... يُذكَـرُ إلاّ الموتُ والقبرُ

قلت له:

- يا شيخَنا. ألا تخشى أن تلقى ربّك بمعصية؟

- والله... لذلك أهونُ عليّ... من عصيان مولانا.

حين غادر المجلس، كانت رجلاه لا تكادان تحملانه، ولسانه لا ينفك ينشِد أشعار أبي نواس وابن الرومي وأبي دلامة، كأنه يعاني هذيان النّزع.

وضحكوا منه وسخروا، وأنا أسخر منهم جميعا وأحتقرهم فردا فردا. كلهم كانوا دمى أحركها كما أشاء، عجينا أعركه كما أريد، ولا أحسب أن فيهم من يجسر على وضع الإصبع على مكمن الداء... كنت بحاجة إلى من يقول لي الحقيقة الغائبة، يشرح لي سبب انتفاض الرعية. حرية التعبير؟ التعبير عن ماذا؟ ليت ذلك الوزير المخلوع مضى برأيه إلى مداه، ولكنه أمسك عن الكلام كأنما اعترضت حلقه غصّة. كأنه شرق بكلمة سدّت بلعومه فقاءها دفعة واحدة ثم لاذ بالصمت.

لم يكن حولي غير أعضاء الحكومة، وهم أعجز من أن يواسوني بنشب. كان الخوف يكمّم أفواههم، والحرص المحموم على إرضائي يحيد بهم عن قول الحق، وما كنت أبحث عما يرضيني بغير سند وإنما عما هو كفيل بإطفاء لهب السؤال المحيّر:

ماذا يريدون؟

لم يبد لي بعد لأي من هو أكفأ من الطرف المقابل نفسه، للوقوف على الأسباب والدوافع التي حملتهم على إشعال نار فتنة لا تبقي ولا تذر.

أرسلت في طلب أحد المساجين ممن شهد لهم المحققون بالصفاقة والجرأة، ولما مثل بين يديّ سألته عن اسمه فقال بصوت هادئ:

- المهدي بن جابر.

ناحل ذابل يلتمّ الشعر الأشعث على رأسه ووجه يبدو منه أنف مدبب يعتلي شوارب رفيعة. خدان منخسفان وعينان تبرقان بجذوة خابية.

قلت ساخرا:

- أنت المهدي المنتظر؟
- هذا شرف لا أدّعيه.
- ما الذي حملكم على إشعال الفتنة؟

فرفع رأسه بتثاقل، وأجابني بسؤال كاليائس من هذه المقابلة:

- وما جدوى الإجابة والموت على الأبواب؟
- أنت ميّت لا محالة سواء أجبت أم لم تجب. ولأنْ تقضي قرير العين إن هديتنا إلى ما فيه أمن البلاد خير من استمرار لهيب سيجعل جماعتك كعصف مأكول.

تحركت فيه صحوة مباغتة وأحدّ بصره ليقول:

- إني لأعجب كيف تعجز الدولة بطمّ طميمها عن معرفة الأسباب الكامنة وراء التمرد.

قلت بتحدّ وإصرار وإصبعي يرسل نذُر التقريع:

- الدولة ليست عاجزة، وتقارير أعوانها تفيد بأنكم حفنة رعاع ولصوص وقُطّاع طرق ترومون العودة إلى حياة السلب والنهب.

قال محتدّا وفي عينيه وَبيصُ ذئب مستثار:

- كلا! لسنا كذلك، وما تمرّدنا إلا لأن الصدر ضاق بما لا يُطاق.

عجبت فجأة من جرأة هذا الرجل الذي لا يكاد جسده يملأ زيّ السجناء الكحلي المخطط، وواصلت استدراجه لأعلم خفايا الأمور التي بخلت بها حاشيتي. سألته:

- وبماذا ضاقت صدوركم وقد آتيناكم من الخيرات ما لا يحصى ولا يُعدّ؟

فأرسل زفرة طويلة وهو يهزّ رأسه كالبرِم من السؤال ثم قال:

- لو فرضنا أن ذلك كذلك فالخيرات دونها كرامة لا تساوي شيئا، وماء الحياة مع الذل مرفوض من قديم الزمان.

كان واقفا قبالة مكتبي ينوس كذبالة شمعة في قاعة لم يكن فيها سوانا. أبَيتُ أن أشهِد أحدا على لقائي بهذا الدعِيّ. حتى الحراس الذين قادوه أبقيتهم خارج القاعة، عسى أن يحلّ انفرادي به لسانه، فيفوه بما دعوته من أجله.

عدت أسأله:

- ماذا تريدون إذن؟

- الحرية. ردّ بحماس مفاجئ.

- الحرية! ألم تكونوا أحرارا، فماذا فعلتم بحريتكم؟

شعت عيناه وتوهج صوته:

- لا نريد حرية البهائم والسوائم نروح ونغدو ما بين نوم ونوم. نريد أن نكون أحرارا في ما نقول ونفعل.

- لا تنكر ألا مجال لحرية مطلقة. الحرية مقيدة دومًا بقوانين.

-هذا صحيح، ولكنها قوانين تلزِم الحاكم والمحكوم.

ندّت عني هزّة رأس ساخرة مشفوعة بضحكة مقتضبة وأنا أقول:

- تريد أن تسوّي بيننا وبين الرعاع؟

ردّ بصوت واثق:

- وجودكم مرهون بوجودنا. والقائد كما يقول مفكّر فرنسي هو من يحتاج إلى غيره.

وكانت تلك قطرةَ الماء التي أفاضت الكأس. خرجتُ عن طوري وغضب مباغت يشنّج أعصابي. قلت وإصبعي موجّه نحوه في تهديد:

- هذا هو الذي لوّث عقولكم!

وإذا به يلزم الصمت، ولما استعدت هدوئي قال:

- وهذا هو الذي ولّد في النفوس نقمة عارمة آلت إلى انفجار.

ضيّقتُ عينيّ في حقد وأنا أسأله:

- ماذا تعني؟

- الكبت المشفوع بالقمع يولّد الإنفجار. نحن لا نريد سوى ممارسة حقنا في التعبير.

- عن أي شيء؟

بدا عليه التردد، فملت برأسي جانبا أرعيه سمعي وأستحثه على الإجابة، وقد تسارع نبضي وتركز انتباهي، فقال وعيناه مصوبتان بحدة نحوي كأنه يحمّلني كل مآسي الدنيا:

- عن المظالم التي نتعرض لها، عن التعذيب الذي نلقاه في

السجون، عن الفساد المستشري، عن تبديد ثروات البلاد، عن غياب العدل والمساواة...

ثم رفع ذراعين ضارعتين كأنه يتوسل، وأضاف بلهجة فيها رجاء وفيها لوم خفيّ:

- هذه البلاد بلادنا مثلما هي بلادكم، ومن حقنا...

صرخت في وجهه بقوة:

- بل هي بلادي، وما أنتم إلا حفنة من رعاع، ليس أمامكم إلا الإذعان لأمري!

رأيته ينزل ذراعيه في يأس، وسمعته يقول باستسلام:

- ما دمت على هذا الرأي فالعصيان هو طريقنا الوحيدة.

صحت فيه بصوت ارتجت له جدران القاعة:

- سنشنّها عليكم حربا لا بقيا فيها ولا هوادة، حتى تعلموا أن للدولة هيبة لا يمكن أن يتطاول عليها الجرابيع!

وأضفتُ صارخا وهو يقادُ مكبّلاً:

- هذي طريقُ الخير اسلكوها أو نزلتْ عليكم لعنتي!

وفي الليل دعوت عبدو الباش كاتب إلى خلوتي الجديدة، مجلس غير الذي كان يجمعني بأميرة، شهيدة الوفاء لحبيب مجهول. هناك حيث كنت ألقاها في جوّ يعبق بالرقة والعذوبة، وتفوح منه روائح المسك والياسمين وأنواع من الطيب قيل إنها تفعل في الأنثى ما لا تفعله الهدايا ولو كانت من الزمرد واللؤلؤ والماس، وما جادت بغير رقراق ابتسام، وشكر حييّ، وأنغام رقيقة ساحرة، وصمت يتكدس

بيننا كالضباب الكثيف. رضيت بما كنت ألقاه منها، وقنعت بالتطلع إلى حسنها وتنشق وضاءتها والاستماع إلى عزفها الشجيّ حتى صارت ساعة الإختلاء بها اعتكافا بمعبد أتطهر فيه من أوضار حاشيتي وحماقاتها التي لا تعرف نهاية.

قلت حسبي منها مرأى وجهها الصبيح ونضارتها الغضة، والإمتلاء بعفتها البكر، ولأكْرِعْ حين يحمّ نداء الرغبة من حياض لا تعرف صدّا ولا إباء. كنت أحوطها بألف عين، وأعيذها بألف حجاب، وأمنع أن يلحظها غير الجواري والخادمات، ولم أدر كيف نفذ إليها سهم غادر وأصاب منها ومني مقتلا. طعنة جاءتني من خلف على حين غِرّة فقصمت ظهري، والجاني ابني ووليّ عهدي حين أتوسد التراب. طعنة نجلاء دبّرها بليل وفرّ، وخلّف جرحين وحيرة بحجم الجبال. جرح أتى على ذلك الكائن الغض النضير المجلل بالعفة والبراءة، وجرح في قلبي نافر بغير دماء، وحيرة تعلو كالموج في يوم عاصف كلما دنت الخطوب: من للبلاد بعدي وليس لي سوى ذلك الآبق الذي أردت له حياة المجد فاختار حياة المجون؟ مَن للبلاد بعدي وقد عقم الماء في صلبي من زمن، ويا ليته جفّ قبل أن يرى ذلك العاقّ النور؟

اختفى وترك في النفس حسرة مرة، وغيظا لا يدانيه مثقال، وشماتة توقد ليل الأعداء.

كان بإمكاني أن أنال منها عنوة ما أريد، ولكن عزّ عليّ ألا تجد عندي الأمان، وقد لجأت ببلادي هربا من عدوان صربي أثيم، وآثرت أن أعشقها في صمت عشقا يجلو الذنوب، ويوقد قنديل العمر بنور يطفح بالحب والأنغام.

حين كنت ألقاها، في ذلك المجلس العبق بالطيب والأنفاس الندية، كانت تطالعني بنظرات خجلى مشوبة بحزن عميق وتوق دفين إلى ديار بعيدة. كانت مثل كنار في قفص ذهبي، يلقى وليّ نعمته بترحاب لا يخفى، ولكن هاجس التحرر أقوى من كل اعتبار. كانت تعلم أني أباحتها الودّ، وأكنّ لها ما هو خليق بالأميرات، أغار عليها حتى من أشعة الشمس ونسائم الفجر، وأسكنها من القلب أبهى المنازل، إلا أنّ توقها إلى الإنعتاق ظل يجلل نظراتها الغائبة في أفق لا يعرف سواها مداه. وكنت أعاني من ذلك ألما مكتوما، وأمنّي النفس بغدٍ تغدو فيه ذكريات الصدّ رديما في مناحي الذاكرة. وشاء القدَر الأهوج أن ينتأ من صلبي مجهِض أحلامي، وقابر أمانيّ، العاجل منها والآجل.

كان يوما أسود حين جاءني الخبر. جاء جافًا في البداية، ثم لحقت الغالية، زوجتي البشعة، بالتفاصيل. لكم صرت أمقتها منذ ذلك اليوم. اقترنت صورتها في ذهني بالشؤم، كغراب البَين المنذر بسوء الختام. تظاهرتْ بالذهول والصدمة والإنسحاق وهي تعلم، كما أعلم، مقدار الفرح الذي يرفرف في صدرها الحقود. لكم وددت ساعتها لو شققت صدرها الشامت لأقرأ ما فيه، وهي التي جاءت تحمل إليّ نبأ خلاصها من خصمين تكنّ لهما من الكراهية ما لو فاض لأغرق القصر بمن فيه.

كان يوما أسودَ لا ينضح بنور. أضربتُ عن الطعام والكلام، واخترت العزلة والإنفراد علّني أغالب في وحدتي مأساتي المضاعفة حتى غبت عن الوجود، ولم أعد أرى في الصحو والمنام غير طيف

أميرة. وازدادت لوعتي حين شيّعوا جثمانها في موكب مهيب. تمنّيت يومئذ لو تمّ تحنيطه وحفظه جنبي.

استقبلني المجلس بفراغ فادح ووحشة قاتلة وصمت له في أذنيّ طنين لا يهدأ. كانت رائحتها تملأ الأرجاء وتلتصق بالستائر والفُرش وتنفذ إلى خياشيمي حتى خُيّل إليّ أنها لم تبرح المكان. وجئت المجلس كل يوم أطالع طيفا لا يبصِره غيري، وأصغي لهمس لا يسمعه سواي، حتى ظنت الحاشية بي العلّة. وما كنت لأهجره لولا أن عبدو حمل إليّ من الأخبار ما حوّل غيظي ونقمتي إلى الرعاع. وبمرور الوقت خفت أن أنشغل بأمري عن أمور البلاد، فأغلقت المجلس وأوصدت قلبي، وصرفت تفكيري عن كل ما يمكن أن يذكّرني بتلك الفتاة المسكينة.

ولكن مياها كثيرة كانت قد سرت تحت قدميّ دون أن يقدر أحد على اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب. كلهم كانوا يلتمسون رأيي في أتفه مسألة وينتظرون مني إشارة البدء والختام، وأنا مغتمّ حزين لا أرى ولا أسمع أصداء النار المندلعة حتى خلت أن انفرادي بالرأي انقلب عليّ. وكان لا بدّ أن ألتمّ على الحرائق المشتعلة حصرا وإخمادا كي لا يعمّ اللهب وينهار البنيان. إلا أن البؤر تكاثرت، فما نكاد نخمد إحداها حتى يشبّ في بقعة أخرى لهب مستجد إلى أن أنزلنا الجيش من ثكناته، وعهدنا إلى عثمان حمودة برئاسة الحكومة. عندئذ تنفّسنا الصعداء، وإن ظل المغرضون بين الفينة والأخرى يوجهون لنا ضربات متفرقة كشهيق النزع الأخير.

وكنت أشعر برغم ذلك شعورا ناتجا عن حاسة خفية وعن تجربة

أن الهدوء الذي خيّم على البلاد هدوء مضلل مريب يضمر في تلافيفه ألف شر، كالهدوء الذي يسبق العاصفة، وإن كان الظاهر لا يوحي بذلك، فالنار في زمن القحط قد تشتعل بشرر بسيط، بقدحة مباغتة، وبلادي كالأوراق اليابسة قابلة للاِشتعال في أية لحظة.

سألت عبدو:

- ما هذه الحرية التي يتحدثون عنها؟

فسوّى ربطة عنقه، وقال بصوت صار يتصنّع له الاِمتلاء منذ أن عيّنته وزيرا:

- كلام من كان في ذيل ذائل، ولما شبع صار يَنشُد ما ليس له فيه حق.

- وما الذي ينشده المارقون؟

تريّث قبل أن يقول:

- السلطة.

- السلطة؟

- أجل. وما كلامهم عن العدل والمساواة وحرية الرأي وحقوق الإنسان إلا محض تضليل، يخادعون به الناس وما يخادعون إلا أنفسهم.

- وما الذي أطمعهم في السلطة؟

أجاب في الحين كأنما هاء لهذا السؤال من مدة:

- تلك المطارحات الفكرية التي سرّبت، رغم حرصي، ما لوّث العقول وأغراها بأنماط من الحكم ما أنزل الله بها من سلطان.

وكنت حذرتك، لو تذكر يا مولاي، أننا سنعطي الدرّ من لا يميزه من البرَد.

- وأذكر أيضا أني قلت لك إننا سنضرب الأقوى بالأضعف، وإذا قويت شوكة الغالب كسرناها كما يُكسَر الشّوك.

فقال بصوت منخفض كالهمس كأنه يسائل نفسه:

- وما الحلّ والحال على ما هي عليه؟

رزته بعينين نافذتين أستجلي طويته، فأردف مقطبا جبينه:

- كيف السبيل إلى تمييز الغالب من المغلوب، والبلاد في حالة غليان؟

لتأته بعينيّ ثانية وقلت:

- أما الغليان، فلتعلم، إن كنت نسيت أصلنا القروي، أنّ البغل الهرم لا يُفزِعه صوت الجلجل. والأزمة، كل أزمة، إلى انفراج مهما اشتدت، إذا عولجت بما ينبغي أن تعالَج به الأزمات. عندئذ لن يكون مصير الغليان سوى زَبد يذهب جُفاء. ولا نظن أننا سنحار في مواجهة حفنة أوشاب فائرين، وآخر الأخبار على قولي شهيد. وأما التمييز بين الغالب والمغلوب، فذلك رهينٌ بما سوف يسفِر عنه صراع الفصائل المختلفة.

حملق فيّ مندهشا وقال:

- ولكنهم كلّ متجانس في مواجهتنا. كلُّهم...

- لا تخيّب ظني فيك. لا ينبغي أن يكونوا سوى شيَع متناحرة. ليسوا كتلة صمّاء كما تظن، وإنما زُمر لكلٍّ دوافعُه وأطماعه. ألم

تقل إن تلك المطارحات كشفت عن تباين في المواقف والآراء، انقلب إلى معارك طاحنة على الورق؟

- بلى يا مولاي.

- هذا التباين ينبغي أن ننفذ منه لنزرع الفرقة والشقاق في صفوفهم.

- كيف؟

- أنا أسألك كيف! وضربتُ النضد بجمع يدي حتى كدت أوقع قدحي. وأضفت: ألستَ وزيري ومستشاري الخاصّ؟

ثم رفعت قدحي وأومأت إليه:

- اشرب وهات ما عندك.

رأيته يرفع القدح بيد قلقة مرتعشة، ويأتي عليه في جرعة واحدة فتتقلص عضلات فكيه ويتنفس الصعداء. ولمحته يزحر لحظات كأنه مقبوض أمعاء، ثم أشرق وجهه وإذا به يقول:

- التاريخ يا مولاي عَود على بدء، وصحائف السابقين عبرٌ للتابعين، والقائد العظيم يستقوي على التّارات بمثل ما كان الأجداد يفعلون.

- هذا كلام لا يقدّم ولا يؤخر. أفصِح.

أردف وقد استراح قليلا لهذا المدخل الذي شدّ انتباهي:

- لقد كان جدّك الأول يا مولاي ذا وجاهة في النّسب وعراقة في الحسب وعظمة في المناقب والأصول، ولكنه كان أيضا ذا قسوة بالغة في الضرب على الأيدي وأخذ البريء بالمسيء،

حتى سكنت ريح الثوراتْ التي تهدد الدولة بصدْعٍ كبير.

- أفهم من كلامك أنك تريد أن نُشعلها نارا لا تنطفئ حتى تسكن ريح الفتن؟

- أسوةً بجدّك الحجّاج، الذي ما كان ليبسط سلطان الدولة لو كان ليّن العريكة رحيما بالعباد.

جدي الحجّاج!

كذبة أخرى نكرّرها ليل نهار حتى صارت حقيقة ثابتة لا يأتيها الباطل من خلف ولا من أمام، وليس لي في ما أعلم غير جدّ كان يبيع الأطمار بحيّ شعبي، وأمّ أتى عليها المرض والفاقة سريعا، ووالد معدم أرسلني إلى الجنديّة لأضمن قوتي قبل كل شيء. كان يقول لي رحمة الله عليه: «في الجيش على الأقل، لن تجوع ولن تعرى، وربما قيّض الله لك فيه حظّا يُعينني على إعالة أخواتك وتزويجهن».

جدّي بائع «الروبافيكيا»! ذلك منتهى أصلي وفصلي ولا أذكر في ما وراءه أي جذر. وهذا المنبتّ الذي لا أصل له ولا فروع يوهمني ويوهم نفسه ليعتلي المجد في إثري خطوة وراء خطوة.

ألقيت على عثمان حمودة السؤال نفسه، علّني أهتدي إلى الحلّ الذي يعيد البلاد إلى سالف ركودها فأجاب:

- الرأي عندي أن نُتبع الفرسَ لجامَها.

- ماذا تعني؟

- أن نوهم المنفلتين من عِقال الدولة بأننا استجبنا إلى مطالبهم.

- كيف؟ ألا يفسرون ذلك بضعف قبضتنا وانتصارهم علينا؟

ألا يغريهم تراجعنا بأن التمرد هو السبيل الوحيد لنيل ما يطمعون فيه؟

صعّر خدّه فارتسمت تكشيرة مقتضبة عند زاوية فمه، وظل وجهه صارما كحدّ السيف وهو يقول:

- السياسة، كما تعلم يا مولاي، مناورة، ولولا أن الأنظار مسلّطة علينا لقوّضنا معاقلهم، ودككنا مخابئهم، ورميناهم في درك وضيع.

- وماذا ترى؟

بدا ارتياح هيّن على وجهه الصارم سرعان ما امّحت آثاره، وهو يحرّك عضلات فكّيه في صمت وتوتّر خاف، كأنه يهيّئ نفسه للحظة حرجة ثم قال:

- نُصدِر عفوا عامّا ونُخْلي الجحور من فئرانها.

- نُطلِق المساجين؟

- كلّهم، حتى مساجين الحق العام.

سألته في سخرية:

- وماذا أيضا؟

- نرغّب رؤوسهم في بعض المناصب.

هذه المرة بذلت جهدا كبيرا كي أشكم رغبة في صفعه، لأنه رأس من رؤوس العشيرة الذين أعتمد عليهم في الملمّات.

صرخت في وجهه ونثار ريقي يتطاير كالرذاذ:

- أجننت؟ تريد أن تُطمعهم في السلطة؟

وهالني ألا يميل ذلك العود اليابس لحظة، وألا تطرف تلك العينان الجاحظتان رمشة، كأنه على يقين من ألا حلّ سوى ذاك، وأني سأكون على رأيه لا محالة، سواء أرغيتُ أم لزمت الصمت. رأيته يبتسم على غير عادته، فينساب الكلام من فمه في هدوء عجيب، كأن غضبي مجرد جملة اعتراضية طاشت خارج سياق الكلام، ليقول:

- يقول الإمام الغزالي، وهو من هو، إن لذّة الجاه والسلطة ألذّ من اللذة.
- هذا والله صحيح.
- والسلطة كما تعلم يا مولاي مراتب أشرفها وأنبلها أعلاها.
- أصبت.
- ورموز الأدعياء لن ينالوا منها إلا أوضَعها وأتفهها. مناصب لا تسمن ولا تغني من جوع، ولكنها كافية لأن تجعلهم منّا، ينطقون بما ندعو، ويهتفون بمن نُعلي، فإن أقنعوا أتباعهم، فذلك كسب عظيم، وإن تنكّروا لنا بعد موالاة، فقدوا لدى قواعدهم كل مصداقية. عندئذ تعود الرعية كما كانت، دهماء نوجهها كما تُوجَّهُ القطعان.

حين انتهى من كلامه، لاح بريق في عينيه اللتين تكادان تفارقان قَلْتيهما، يستحثني على مباركة رأيه.

سألته بعد صمت قلّبت أثناءه الأمر على وجوهه:

- هب أنّ... رموزهم كما تقول، رفضوا ما نعرض عليهم...

فاستبق سؤالي بإجابة محددة:

- ألم أقل لك يا مولاي إنّ السلطة ألذّ من اللذة؟ فمن يا ترى يرى لذة جاءته بعد ضنّ ويمتنع، وهو الذي سعى إليها سعيا غير مشكوم، وسيحدث نفسه بأنه وضع قدميه على طريق ستقوده إلى أعلى المراتب.

قلت أستوفي ثغرات هذا الرأي الذي راقني حتى كدت أحسب أني واضعه:

- افرض أن من انجذب إلينا قليل...

فأضاء وجهه نور الظفر وهتف:

- ذلك ما أتمنّاه يا مولاي، فهو أفضل السبل للقضاء عليهم القضاء المبرم.

- كيف؟

-إذا رأى الممتنعون ما يناله المنسلخون عنهم من حفاوة وتكريم دبّ في صفوفهم الشقاق، وانزرع في قناعاتهم الشك، وارتابت منهم قواعدهم. فمن ذا الذي يثق بعد ذلك في «زعماء» لا همّ لهم سوى مصالحهم الشخصية؟ فإما أن ينجذبوا بدورهم كما ينجذب الفرَاش إلى المصباح فيحترقوا على نار هادئة، وإمّا أن يركبوا العَنت فلا يجدوا حينئذ غير الفراغ يلفّهم من كل جانب. وفي كلتا الحالتين نجعلهم مثل جزيرة معزولة، ليس لها ما يشدّها إلا الماء. يهدهدها البحر ويلاطفها، وفي يوم، يبتلعها في أعماقه.

سألته بعد أن أثنيت عليه ثناء لا أظن أنه يفيه حقّه، وإن طار به فرحا كأنه حاز كنوز الأرض فجأة:

- هذا بشأن المارقين. فما الحاجة إلى تسريح سجناء الحق العام؟

كطالب تهيأ لامتحان عسير، كان الجواب حاضرا يصخب في عينيه قبل أن ينساب من فمه الواسع ذي الشفاه الغليظة، اتساعا لا يناسب نحول وجهه:

- حتى يكون الحدث عفو مولانا عن كلّ المجرمين، يستوي في ذلك المعربدون وقطاع الطرق والقتلة والمخربون، فتقترن صورتهم في أذهان الناس بالأوشاب واللصوص والمجرمين، ونفوّت عليهم فرصة استغلال الحدث إعلاميا في المحافل الدولية.

- جميل! أنت بذلك تفنّد رأي من قال إنك لا تملأ منصبك. ولكن، ألا تخشى أن ينخرم الأمن وتستشري الجريمة؟

- ذلك ما قصدت يا مولاي.

- ويلك! أتريد أن تعمّ الفوضى؟

- حتى يعلم الناس أنّا مِحِقّون في حَبسِهم اتّقاء الشغب والجريمة.

- وماذا نفعل إذا اختلّ الأمن؟

- نعيدهم حيث كانوا، ولن يلومنا على ذلك أحد. بالعكس، سيتنفس الناس الصعداء لكونهم استراحوا من طغمة تهدد أمنهم وراحتهم. أكثر من ذلك، سيهتفون مستبشرين كلما أبصروا رجالنا وأعواننا، بعد أن كانوا يقذفونهم بالحجارة والكلام الفاحش.

وازنت بين الرأيين يوما وليلة، وأنا أعجب من نزوع الباش كاتب إلى العنف وهو الذي ترتجف لمرأى الدم أوصاله، وجنوح

عثمان حمودة إلى تهدئة الخواطر وحقن الدماء، وهو الذي لا يرفّ له جفن إذا دعت الحاجة إلى دكّ مدينة بحالها. حسبه أن يشتعل أمامه الضوء الأخضر في شكل تلميح مني أو تصريح، وهو كفيل بعدئذ بأن يلقِم الأعداء السمّ الزعاف والموت الزؤام. كذلك فعل حينما استولت شرذمة من المنفلتين من عقال الدولة، كما يقول، على مبنى إداريّ واعتقلت من فيه رهائن يساومون بهم السلطة حول قائمة من المطالب السخيفة.

قال لي يومئذ:

- لو استجبنا فلن تكون للدولة هيبة بعد اليوم.

وقال أيضا:

- ستكون هذه العملية، إن أبدينا لهم رضوخا، كبقعة زيت على صفحة ماء راكد.

قلت له: «دونك وما تريد». فمضى يطوّق المبنى برجال أشداء مدربين على شتى فنون القتال ومختلف أنواع السلاح، ولما هدّدَنا زعيم العصابة بقوله: «سنقتل كلّ يوم نفسا، حتى تلبّوا ما نريد». علّق حمودة: «نِعم ما يفعلون!» قلت: «كيف؟» قال: «كذلك تنقشعُ أقنعتهم أمام الناس فتُظهِر وجوهُهم الحانقة الحاقدة وأيديهم الملتاثةُ بدم الأبرياء سوءَ ما يَعِدون به الرعية».

سبعة أيام بلياليها ونحن إزاءهم في رفض متبادل. هم يرفضون الاِستسلام، ونحن نرفض حتى إمدادهم بالأكل والشرب والإسعاف العاجل لبعض من انتابهم توعّك في صفوف المحتجزين. وطال بهم

الحصار حتى صار مصيدة ولم يذعنوا. ورأينا في عدم تنفيذهم ما أنذروا به أمارة خوف مستحكم وربما انهيار وشيك، فأعطى حمودة لقواتنا إشارة الإقتحام، وهو على يقين أن التعب الذهني والنفسي والجسدي قد أخذ من تلك الشرذمة كل مأخذ، ولكنه فوجئ باستبسال لم يتوقعه، ونار غزيرة حصدت من رجالنا ما حصدت. عندئذ قرّر نسف المبنى من أساسه بعد أن حاز موافقتي، وفتوى من الشيخ المنصوري بأن المحتجزين شهداء، أحياء عند ربهم يُرزقون، وإذا دويّ هول يوقظ المدينة من سبات، وإذا ألسنة اللهب والدخان تطاول عنان السماء وتبث في الأرجاء رائحة خانقة، وإذا نثار الأجساد يختلط بألواح الإسمنت والحديد والأتربة والغبار. ولم أندم ساعتها على الضحايا قدر ندمي على وجه مدينتي المشوّه.

ومن الغد، خصّصت وسائل الإعلام مساحات عريضة لضحايا الزنادقة المتوحشين، الذين لا يتورّعون عن ارتكاب أبشع المجازر إشباعا لشهوة الدم التي تسكنهم، تليها تصريحات لأعضاء الحكومة تتوعد الجناة بالثبور وعظائم الأمور. ونقل التلفزيون صور جثث مشوهة لرجال ونساء وشبان أتاهم الموت في أبشع وجه، وموسيقى حزينة ترافق صوت مذيع عقدت الفجيعة لسانه، وهو يطنب في وصف وحشية أعداء الأمة المستترين خلف شعارات ما أنزل الله بها من سلطان، المستهترين بكل القيم الإنسانية، المتواطئين مع الغرب الحاقد لزعزعة الأمن الذي تنعم به البلاد في هذا العهد المبارك... وأقيم للشهداء موكب دفن مشهود ونكّست الأعلام، وحمودة يتوعّد الناقمين بضربة قاصمة في تصريحات حازمة حاسمة،

كانت قواتنا خلالها تشنّ حملة اعتقالات وسعت كل من يمت إلى الجناة بِمَاتّة.

يوم الدفن قلت لحمودة:

- إذا لم يكن من النسف بدّ، فالعاجل أهونُ من الآجل.

وفهم في الحين قصدي، فصار يبدأ بالكيّ دون علاج حتى يقطع على أعدائنا فرصة استغلال ما يحدث سياسيا وإعلاميا في المحافل الخارجية المغرضة، كلما استوقدت فئة بؤرة. ثم جاء إقدامه على تفجير طائرة رحلات داخلية بركابها وطاقمها ومختطفيها، ليقطع عمليات الاِحتجاز من دابرها. فلما بات الخطف ارتحالا إلى موت بشع محتوم، كفّ عن أن يكون وسيلة ابتزاز.

وازنت بين الرأيين إذن فبدا لي رأي عثمان حمودة آثر بالسلامة، فلا حياة بلا استقرار، وإذا كانت القوة وحدها لا تفي بالغرض المطلوب فلترفدها المناورة، والسياسة، كما علمتني التجارب، ليست فنّ الممكن حسبما هو شائع، وإنما هي «بوليتيك» على رأي جدي بائع «الروبافيكيا»، هراء وكذب وافتراء، أن تنقض اليوم عهد الأمس تحقيقا لغاية راهنة، أن تكون على أهبة النكوص كلما دعت الحاجة. لا شيءَ ثابتٌ. الحمير هي وحدها التي لا تغيّر رأيها. وكان لا بدّ قبل أي سعي أخطوه أن أثبّت أقدام أبناء العشيرة في المؤسسات والمنظمات والاتحادات، أمّا الأمن والجيش والمؤسسات الحسّاسة فالأمر مقضيّ من زمان.

يوم اتخاذ القرار، عرضت الأمر على أعضاء الحكومة فلم ألق

منهم غير الثناء. حتى عبدو الباش كاتب الذي كان يريد أن نشعلها نارا لا يخمد لها أوار إلى أن ينطق الخصم بالرحمة، قام يهنئني بهذا القرار الوجيه، ويُنشِد أبياتا لا أدري هل ارتجلها أم استلّها من الكتب القديمة، بعد أن أسهب في الحديث عن رحابة صدري وسعة حِلمي وقصوّ نظرتي ورجاحة عدلي ويمن طالعي.

وما إن قال:

أقسمتُ بالبيتِ الحرامِ والصّفا وزمـزَمِ
لأنتَ مِن بَعدِ النبـيءِ المصطفى المُكَرَّمِ
أجَلُّ مَنْ تحتَ السماءِ مِن جميعِ الأمَمِ
لو كنتَ يا ابنَ الأكرَمينَ في الزّمانِ الأقدَمِ
لأنزِلتْ في فضلِكَ المُكَمّلِ المتَمّمِ
مُفَصَّلاتُ سوَرٍ مِنَ الكِتابِ المُحْكَمِ[1]

حتى سار بها الوزراء تيها وعجبا ينشرونها في الأقاصي مبشّرين بعهد من التسامح والوئام، مركزين على رحمتي التي وسعت كل فرد من أفراد الرعية، حتى أولئك الذين أذنبوا في حق هذه الأمة.

سألت الباش كاتب عن ارتداده وقبوله رأيا كان قد جهر بضدّه، وكنت قد أسررت إليه بخطة الوزير الأول، فقالِ وابتسامة ماكرة تطوّق فمه:

- بل ما زلت على رأيي يا مولاي، وما هلّلت لقرارك الحكيم إلا لأني لمست فيه امتدادا لوجهة نظري.

---

(1) من قصيدة للتّراب السّوسي، عن رحلة التّيجاني. تحقيق حسن حسني عبد الوهّاب.

- كيف وأنت تبغي نارا وقودها الناس والحجارة؟

فارتشف من كأسه قطرة شعّت على إثرها عيناه وقال:

- يا مولاي، إذا أطلقنا سراح المساجين وأوهمنا دعاة الشغب بالعفو عنهم، واستملنا منهم من استملنا، أمكننا أن نصل إلى أوكارهم ونكشف عن خططهم ونعرف تركيبة هياكلهم واحدا واحدا، فندكّ بنيانهم دكّا لا يعرف الرحمة ونصهرهم بأتون اللهب.

لمحني أهز رأسي بالنفي فأردف:

-أما قلتَ إننا سنجعلهم كجزيرة يهدهدها البحر ثم يبتلعها في جوفه؟

-ذلك ما يراه عثمان حمودة، ولكن بالطرق السلمية.

قال وهو يغالب ابتسامة تراوده، فيواريها بالمبالغة في إظهار استيائه:

- يا مولاي، لكل امرئ من دهره ما تعوّد، وهؤلاء الرعاع شبّوا على العنف وإثارة القلاقل، فإن لمسوا فينا الضعف طمع فينا سفهاؤهم وسخر منا حلماؤهم.

- لا خوف. إن عادت الأفعى عدنا لها...

أفرغنا السجون والمعتقلات ومعسكرات الخدمة الإجبارية، ورفِع حظر التجوّل وقوانين الطوارئ في يوم طفحت فيه المدن بأفراح فاضت على ضواحيها حتى بلغت مضارب البدو في القفار، وأدار الناس الكؤوس، ولعبت الخمر ألعابها في الرؤوس، فانجاب الليل

وانقلب نهارا، وناب عن لعلعة الرصاص ورشقات القذائف ودويّ المدافع صوت انفجار الشماريخ، في سماء خلت من ألسنة اللهب وغمام الدخان، وما عدت أسمع غير أصداء الأهازيج والهتاف ودقّ الطبول.

وشمل البلادَ موجُ أفراح وليال مِلاح وأشعار وأذكار، والناس يسبّحون بحمدي بكرة وأصيلا حتى سكروا. أسكرتهم الفرحة بلقاء أحبة خالوا أنهم فقدوهم إلى الأبد، وبانفراج ما كانوا يتوقعونه في وقت بلغ فيه التأزم ذروته. ولكني أعرف عن تجربة أن بعد السكر استفاقة مؤلمة، يراجع فيها المرء نفسه، وقد يندم على ما كان.

لذلك كان لا بدّ أن أستبق الأحداث حتى لا يجتاحني الفيض من جديد، خصوصا أن المسيرات الضخمة التي عبّرت عن استعدادها لفدائي بالدم والروح، داخَلها في كل مرة هتاف كان ينادي:

«ما دام الكبير حيّ، حمودة ما يعمل شيّ!».

ومعنى ذلك أن حمودة احتجن النقمة، كما احتجنها من قبل كل من تولى رئاسة الحكومة، ومن كان رأسا أدركته الأوجاع، ثم صار رأسه مطلوبا، فعزلته حتى نُتبع الفرسَ لجامَها كما قال، وأبقيته في حاشيتي إلى أن يُيسّرَ له الله دورا سوف يأتيه.

عادني أبناء العشيرة فردا فردا وكان أغلبهم من قادة الجيش، كلّ يمنّي النفس بالخلافة، خلافة عثمان حمودة، فإذا بالباش كاتب ينبهني بأن العسكري الذي يغادر ثكنته، كمثل الأسد الذي يغادر عرينه، لا بدّ له من صيد يُرضيه.

قلت: «ولكنهم من لحمي ودمي!».

قال: «ألم يطعن بروتوس والده يوليوس قيصر؟».

فذكرني فجأة بولدي، ولدي الذي خذلني في خريف العمر واستعاذ بالغرب مني. هل يصحّ أن أجفوَه وليس لي غيره؟ كانت نزوة عانيت منها ما عانيت حتى أنشدني عبدو الباش كاتب بيتا للبحتري، وكان يستثير بذلك كبريائي، لكي أنهض من حزني على حبيبتي الضائعة لإنقاذ البلاد. وما كاد يقول:

ولَعَمْري ما العجزُ عندي إلاّ   أن تبيتَ الرّجالُ تبكي النساء

حتى وثبت نحوه باندفاع وأمسكت عنقه بقبضة شديدة كالمعصرة أروم كتم أنفاسه، وهو ينتفض بين يديّ كطير ذبيح، وصوته المخنوق يستجديني الرحمة.

حين تركته وثاب إلي هدوئي، تساءلت إن كان حريّا بي أن أوغِل في اكتئاب فسّره ذلك السفيه بالعجز، وأغتمّ على فقْدِ امرأة وأنا الذي لا تدخل الشفقة قلبه. لكم أعجبني الشيخ زبير حين قال في إحدى روائعه: «إن الوحوش تعتريها الشّفقة، وما دمتُ لا أشفق فلستُ وحشا».

تساءلت أيضا في وقت لاحق، بعد أن شفيت من علتي وأفقت من غفوتي وصهرت المغرضين صهر اللجين المسفوح، هل يحقّ لي أن أحقد على ابني، وقد كنت له قدوة حتى في إشباع رغباته؟ فكيف ألومه وهو بذرة مني، والدماء الفوّارة التي تسري في أوصاله من نسغي؟ وهل الشراهة التي تسكنه إلا جزء من نهمي! ألأنه استأثر

بما كنت أبغيه لنفسي؟ لقد غفرت للأعداء ذنبا تَذِلّ أمامه الذنوب، ومن الحيف ألاّ أصفح عن فلذة كبدي.

عندما سألت الباش كاتب: «ما رأيك في الكبير الثاني؟» ارتسمت المفاجأة على وجهه، وبدا شاخصا ذا هلا كأنه تجمّد. واشتدّ عليه البأس وعقد لسانه، فأعدت بصوت ردّه إلى صحوته:

- ما رأيك لو نُكلّف الكبير الثاني برئاسة الحكومة؟

تلكّأ قبل أن يقول:

- ولكن مولانا الصغير... في... في مكان لا يعلمه إلا الله.

- الوصول إليه ليس مشكلتك. سألتك إن كان يحسن بنا أن نكلفه بإدارة شؤون البلاد.

بدا عليه اضطراب غريب وهو يقول:

- والله لولا خوفي من إثارة غضبك ونكوء جرحك، لكنت عرضت عليك هذا الأمر من زمان يا مولاي.

ثم غطّى الجِدّ ملامح وجهه وهو يحدثني حديث الواثق من أمره:

- يا مولاي، نحن مقبلون على مرحلة أردناها مرحلة ركود حتى نبلغ المقصود، ونقطع عن دعاة الشغب أسباب المهاوش، ونسحب من تحت أقدام الأدعياء البساط الذي يمكن أن يقفوا عليه لمناوأتنا، فيسهل بذلك احتواؤهم ثم هضمهم بالطرق السلمية كما قلت. ومولانا الصغير، كما تعرف، حامي الطبع سريع الاِنفعال، ولا أخاله يسمع لغو الجهّال ويسكت، أو يقبل أن يجالس من نعتزم استدراجهم في صفّنا. قد يلغي ما نختطّه

بجرّة قلم، وقد يكون له في قيادة الحكومة ورسم سياستها تصوّر يخالف ما نحن مقدمون عليه. والرأي عندي أن نهيّئه للمرحلة القادمة، حين يستَتِبّ الأمن، ويُكتب الِإستقرار، وتستعيد البلاد سيرتها الأولى.

- والحل؟
- الرأي رأيك أولا وأخيرا ولكن يُستحسن أن نتخيّر رجلا يناسب المرحلة.
- ومن يكون؟
- ليس في ذهني شخص محدّد ولكن من يقع عليه الِإختيار ينبغي أن تجتمع فيه خصال لا بدّ منها لاجتياز التقلبات.
- وما هي؟
- أن يكون عميقَ التجربة مُلمًّا بالملفات، واسعَ الحيلة له في كل مسألة جواب، ذرب اللسان لا يُفحمه الخصم ولا تُعوزه الحجة، طُلَعة لا يغثّ عليه أي قول، ثابتا ثبات الزيتون إذ تهدهده الريح ولا تقتلعه العواصف، زئبقيا...

يعطيك من طرَف اللّسان حلاوةً ويروغ عنك كما يروغ الثّعلبُ

- والله لا أعرف ثعلبًا غيرك!
- أمدح هذا أم قدح يا مولاي؟
- لا أرى أحدا تتوافر فيه هذه الخصال سواك.

رأيته يمدّ نحوي نظرة تتسع حتى تكاد تتعلق بشفاهي فقلت:

- ما رأيك لو أعهد لك بزمام الحكومة؟

أضاء وجهَه نور ابتهاج، وشمله فرح داخليّ مفاجئ وشت به حركاته المضطربة. تحرّكت شفتاه مرارا ولم ينطق بلفظ.

- لم تجب، قلت.

استعادت ملامحه أمارات الجدّ، فقال بنبرة من خرج من نوبة سعال حادّة:

- يا مولاي، كلّما... كلّما صار المرء خطيرا قلّ حظّه في الحياة.
- ماذا تعني؟

ازدرد ريقه مرة واثنتين قبل أن يقول:

- أن أتقلّد رئاسة الحكومة، فهذا شرف وأيّ شرف، ولكن... لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصان. وسوف تضطر آجلا أو عاجلا إلى إقالتي لامتصاص غضب الرعية، وربما إبعادي عن القصر، فأفقد بذلك كل شيء.
- ويحك! أما قلنا إنها مرحلة انتقالية تمهيدا لعودة الكبير الثاني وتدريبه على المسك بزمام الأمور؟
- بلى، ولكن...

قاطعته بحدة:

- عبدو! أنا أعرفك منذ مقاعد الدرس، وأعرف أنّ الله أودع بين جنبيك نفسا كبيرة المطامح بعيدة المطارح، ولكنك تفضّل حبْك الأمور في الخفاء على مواجهة الناس، حتى تظهر بمظهر العفيف النظيف الذي لم تلوّثه السلطة، وربما تزعم أنك المنقذ الذي تنتظره البلاد...

- مولاي...
- ... ولولا أنك صَلَفٌ تحت الرّاعِدَة، كما تقول متونُك القديمة، لنازعتَني مُلْكي!
- أتقول هذا يا مولاي وأنت تعرف أني وفيّ مطيع، بل عبدك الذي ربط اسمه باسمك الكريم، وقرن مصيره بمصيرك؟
- ألستَ ناصحي؟
- بلى، ولي في ذلك شرف كبير.
- ولا شكّ أنك تقول في نفسك إنّ الناصح أحقّ بالسلطة من المنصوح.
- معاذ الله يا مولاي! معاذ الله! إنما نذرت ما حباني به الله لخدمتك.
- أتزعم أنك تأتمر بأمري، وترفض مني مكرمة يتناحر من أجلها غيرك بالدسائس والرشاوى والفتن؟

قال والرّعدة ترجف أوصاله، وعرق الخوف يتفصّد من جبينه:
- لقد خلت أنّ غيري أولى بالمهمّة. هذا كل ما في الأمر.

صحت فيه:
- أتعرف ما لا أعرف؟
- حاشى وكلاّ!
- إذن؟

مصمص شفاهه الناشفة، ومسح بمنديله العرق عن جبينه، ثم قال بإذعان والرعدة لا تفارقه:

- مُرْ يا مولاي وسوف تجدني بيرقا من بيارقك، ورمحا من رماحك، وسيفا مسلولا يذود عنك في كل مَلمّة!

ولّيته الحكومة وفي يقيني أنها مهمّة مؤقتة، سدّ شغور ريثما يعود ابني، فإن أفلح أبقيتُه إلى أن يكتسب الكبير الثاني أقوم المسالك في تسيير الممالك، وإن خاب رددته أسفل سافلين وبحثت له عن بديل، وإذا به يُظهر قدرة على تصريف الأمور كذّبت ظني، فقد سعى أول ما سعى إلى استمالة الجمهور العريض كما يقول، بتمكينه من ممارسة أيّ نشاط يريد ما لم يكن في ذلك مساس بالمصلحة العليا للوطن، ثم جعل البلاد أعراسا متصلة: مهرجانات للغناء والرقص آخذ بعضها برقاب بعض يُستقدم لها الفنانون من شتى الأصقاع، ثم أولى منتخبات الكرة عناية خاصة وأجزل لنجومها العطاء حتى صارت رمزا لمجد البلاد، نطاول من خلالها أعداء الأمة، فتحتفي الرعية إثر كل فوز احتفاءها بجنود تُوّجوا بالنصر المبين عقب معركة، وتُرفع رايات الفرح في كل مكان. ثم أمر بتنظيم مسابقات أدبية تحوم حول خصال «الكبير الخالد» رُصِدت لها جوائز ماليّة أغرت عددا كبيرا ممّن أدركتهم حرفة الأدب، وكذلك عقد ملتقيات تناقش فيها مواضيع لا صلة لها بالراهن، كالمبنى والمعنى في المدوّنة الجاهلية، والجنس في العهد الفينيقي، واللاهوت والنّاسوت في الحضارة اليونانية القديمة، والتطيّر في المجتمعات البدائية، والحبّ العذري في العصر الوسيط، والعلاقات المتأزمة بين ولاّدة وابن زيدون...

وأسأله عن الغاية من ذلك فيقول:

- تفتيت الوعي وإذابته بالحامض الكبريتي إن لزم الأمر.

ويقول أيضا:

- يجب أن نشغل الناس، كلّ فئة في مجال اهتمامها، بما يصرف تفكيرها عنّا.

قلت محذّرًا:

- لا تنسَ القوت!
- ما به؟
- البطن الخاوي لا أذنَ له. حتى السّرحان إذا جاعت وَعْوَعت من الطوى.
- وإذا شبعت بَعبعت. لذلك ينبغي أن تجوع بمقدار، وتشبع بمقدار، فلا يتحول الجوع إلى سخط، ولا الشبع إلى بَطر.
- وكيف السبيل إلى ذلك؟
- نجمّد الأجور ونحرّر الأسعار ونغضّ الطرْف عن سبل الكسب حلالها وحرامها، فيتحول الصراع على السلطة إلى صراع من أجل البقاء، من أجل لقمة العيش.
- ولكن ألا تخشى أن ينتشر الفساد ويعمّ الكفر، ففي فساد الأخلاق زوال المُلك؟

فقال محرّفًا قولة قديمة:

- المُلك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الجوع.

وسكت برهة حتى تستقر كلماته في مستقرها من نفسي، قبل أن يضيف:

- ... وما دامت الرعية بين بين، لا تجوع فتنتفض، ولا تشبع

فتطمع، فسوف يدوم المُلك أجيالا بعد أجيال.

ولما بسط سلطان الدولة على النحو الذي أراد، التفت إلى تلك الفئة الطامعة في سدّة الحكم، فأصدر مرسوما ينظم العمل السياسي في إطار قانوني، فتهاطلت على وزارة الداخلية آلاف المطالب، وما هي إلا بضعة أسابيع حتى تجسدت تلك «التعددية» التي ما انفكّ المناوئون يصدّعون بها مسامعنا في شكل ما يقارب مائة حزب سياسي، ليس لأيّ منها قاعدة ذات وزن، ولا تشكّل، ولو ائتلف بعضها إلى بعض، أيّ خطر على حزبنا الحاكم. وكان الشرط قبل منح التأشيرة مبايعتي رئيسا مدى الحياة. كذلك كان شرطي. مقايضة. واحدة بواحدة، حتى يعرفوا أننا لسنا من الطينة نفسها لينشّفوا ريقهم في ما ليس لهم منه نصيب، ونجنّب البلاد مهاترات دعِيّ مثل ذلك الصالح الإمام الذي نفخ الشيطان في أنفه فظنّ أنه لي نديد، وما درى أني الكبير الأعظم، الوحيد الواحد الأوحد الأحد الذي صاغ عربانيا من عدم، ونفخ فيها الروح، ثم أطعمها من جوع وآمنها من خوف، ثم أسبغ عليها النّعم وأزال عنها التخلف والجهالة.

لقد كان الباش كاتب محقا حين قال لي:

- ينبغي أن نخطط للمرحلة القادمة، ونصوغ النشء صياغة محكمة، فنغربل المتعلّمين غربلة دقيقة حتى لا ينفذ إلا القليل القليل ممن ننشئهم على مبادئنا، ونطرح الباقي في أتون الحياة، يصرفون طاقاتهم في مصارعة المعيش اليومي، كبغال ضُرِبت على عيونها الغمائم.

وعندما اعترض عثمان حمودة بقوله:

- ولكننا سنُنشئ بذلك شبابا جاهلا!

أجاب الباش كاتب والإِرتياح يجلل وجهه:

- لا رأي لجاهل. العِلم ينمّي الوعي، والوعي سوف يعيدنا إلى ما كنّا فيه، أم أنك تفضّل توعية النشء ثم نسفه بالمتفجرات؟... لو خيّرناه بين أن يعيش بجهله أو يموت بوعيه، فأيهما يختار يا حضرة المستشار؟

تجاهل حمودة سؤال الباش كاتب، ومدّ بصره نحوي في نظرة استصراخ واضحة وهو يقول:

- سنخلق بذلك أمة متخلفة يا مولاي!

فقلت أنهي المسألة:

- التقدم ليس ضرورة تاريخية.

وما لم أقله، لأنه في ظني من نافلة القول، إن المجتمعات البدائية تعيش وتتناسل في غِنى عن هذه المستحدثات العصرية، سعيدة بأشيائها البسيطة وتفكيرها الساذج. ألم يقل المتنبي:

ذو العقـلِ يشـقى في النّعيـم بعقلهِ
وأخـو الجهالَـةِ في الشّـقاوةِ ينعـمُ

فلماذا نحمل الرعية على عيش شقيّ، والجهل طريق الصّلاح والفلاح. الشيء الضروري حقّا هو المال، فالمال مقدّمٌ على العلم، به يغاث العالِم وتقوم النفوس، والأصل أحق بالتفضيل من الفرع. فلا بدّ مما ليس منه بدّ أن نقطع عن الناشئة سبل العلم في سنّ مبكّرة، ونوجّههم إلى الحِرَف والصنائع وخدمة الأرض بما سوف نجني من

ورائه غنما كبيرا. وسيعلم أهل العلم والثقافة أيّ منقلَبٍ ينقلبون، يومَ يستجدون من الجهّال لقمة. ولأنْ أسوس أمّة جاهلة خيرٌ لي وأبقى من قيادة شِيَع تعتشّ في رؤوسها أفكار غريبة.

أما التاريخ فنحن صنّاعه وسدَنة ناره التي تكاد لا تخبو إلا لتستعر من جديد بفعال نسطرها في لوح محفوظ، ونحن ربّانه الذين يوجّهون أشرعته برغم الزوابع والأنواء. وسيحفظ لي أني كتبت لأمتي الأمن والإِستقرار ووقيتها التمزق والفتن.

يومُ البيعة كان يوما من أيام عربانيا الخالدات، ثملت فيه الرعية هتافا بحياتي والدعاء لي بالخلود، وبحّت الحناجر، والتهبت الأكفّ، ورفِعت أقداح الفرح على نخبي ونحِرت الأضاحي، وكانت قد سبقته مسيرات رجاء واسعة، امتدّت زهاء شهور ثلاثة بأيامها ولياليها، خرجت فيها الرعية من ولاياتنا العشرين ترفع رايات الولاء والتأييد، وتتضرع إليّ في شعارات مسجوعة، وأشعار منظومة، وبيانات موقّعة، وأصوات صادحة في الشوارع والإذاعة والتلفزيون، بالنزول عند رجائها وقبول البقاء في سدّة الحكم مدى الحياة، اعترافا منها بجليل أعمالي وجمّ أفضالي.

ورغم علمي بأن ذلك من تدبير الباش كاتب حتى تبدوَ البيعة فعلا ديمقراطيا، استجابة لإجماع عام ليس للسلطة دور فيه، فقد انتشيت برؤية تلك الجموع الغفيرة، وهي تمور كموج تتقاذفه الرياح، وصوري مرسومة من خلف ومن أمام على قمصانٍ بيضاء، تعلوها شعارات:

«لا نرضى بغيرك سيّدا!».

«فداك فداك إلى... لا نهاية!».

«نموت نموت ويحيا الكبير!».

ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة لا تني تبثّ صورا حيّة عن المسيرات الحاشدة، والزغاريد الملعلعة، والهتافات الصاخبة، والاِبتهالات الخاشعة المشفوعة بدموع سخيّة يتبعها أصحابها بنظرات استرحام مرفوعة مع الكفوف إلى السماء، والأناشيد التي تلهب الحماس لا تنفك تقرع الأسماع من كل جانب، والمذيعون والمذيعات في زيّ موحّد تتصدّر أقمصتهم البيضاء صورة كان رسمها لي ذلك المدعو فريني فيما أذكر، يستهلون براجهم بالدّعاء ويختتمونها بالرجاء، وما بين الدعاء والرجاء برقيات وهميّة من زعماء الأحزاب التي أجزنا لها التحرّك في وضح النهار، كان الباش كاتب يحبرها ليدخِل في صفوفهم البلبلة.

وتناقلت الصحف خبر امرأة من ولاية إساف هددت بوأد وحيدتها إن لم يسمع الكبير الرجاء، فإذا هي تفتح باب المزايدات على مصراعيه، وإذا رجل من ولاية سواع يعقر أبقاره قربانا لعلّ الله يهدي الكبير إلى ما فيه خير الرعية، وإذا فتية من ولاية المحرق شدّوا أحزمتهم بأصابع الديناميت وتعاهدوا على الاِنتحار إن باء الرجاء بالرفض، وآخرون من ولاية ذريح اعتكفوا بزاوية أحد الأولياء، وأعلنوا إضراب الجوع إلى أن يمنّ الكبير بالفرج، وقيل إنّ رجال ولاية يغوث بأكملها أقسموا بأن نساءهم حرام عليهم ما لم يلبِّ الكبير الرجاء. وإذا الولايات كلها تتنافس في تقديم النذور العجيبة،

والقرابين الخارقة، حتى يكاد لا يمر يوم دون أن نسمع خبرا من هذه الأخبار الغريبة التي يتداولها الناس كأمارة من أمارات التهجد والخشوع والابتهال التي تقرّب ساعة الخلاص المرتجى.

وفي كل يوم، تجتاحني نشوة ما بعدها نشوة، فلعمري لئن كان سكر الغنى ألذّ من سكر الخمر، فإن سكر السلطة ألذّ من أيّ سُكر، وليذهبِ الناعقون بغير ذلك إلى الجحيم!

لم ندعُ إلى حفل البَيعة غير الأشقاء والأصدقاء الذين أتمَّوا في سدّة الحكم ثلاثين عاما بالتمام والكمال، وكانوا من الكثرة ما جعل مدير التشريفات قائما بالليل والنهار حتى لا يعكّر جمعنا المتناغم نكير، وهم يفيضون عليّ بالتهاني والهدايا، ويثنون عليّ الثناء الأكبر باعتباري مبتدعَ المناهج القويمة في الرئاسة المستديمة، لم يسبقني إلى ذلك بشر لا في الشرق ولا في الغرب. واستأذنني بعضهم في الِاستفادة من هذه التجربة الإنسانية الفريدة، ليجنّبوا رعاياهم حملات انتخابية تتعطل خلالها المصالح وتُهدَر الطاقات بغير طائل، ما دام الإجماع على المرشح الوحيد مضمونا سلفاً، فأجزت لهم الأخذ عنّا، ونبّهتهم إلى أن ذلك ينبغي أن يتمّ وفق الطرق الديمقراطية، بعد تنقيح الدستور أو تحويره أو تفصيله على مقاس الحاكم تفصيلا.

بعد البيعة بأيام، والوفود لا تزال تتقاطر على القصر تلهج بالولاء والطاعة وتفيض بالتهاني والهدايا، والمداحون يتنافسون في تعداد مناقبي والِاحتفاء بما يسمّونه المنعطف التاريخي، رفع إليّ عثمان حمودة تقارير عن تفشّي الفحش والجريمة، وظهور قطّاع طرق يسلبون الناس أموالهم وأرواحهم.

سألته عن قواتنا فقال إنها في مأمن. قلت:

- دعهم إذن يأكل بعضهم بعضا.

تريّث قليلا قبل أن يقول:

- ألا ترى أنه آن الأوان لكي نوقف الفوضى حتى لا تتحول مع الوقت إلى أعمال شغب وربما حرب أهلية؟

- كأني بك تتلهف على إعادة الفيران إلى جحورها؟

- بالضبط.

- لن يتمّ ذلك على أيدينا هذه المرة.

واستدنينا من قادة الأحزاب أضمرَهم، فأعلينا من شأنهم، وأجرينا عليهم الأرزاق على نحو أعمى بصائرهم ورهن مصائرهم، ثم ولّيناهم مناصب في أجهزة الأمن فنابوا عنّا في الرّدع والقمع وقطع يد الجريمة حتى صاروا في عيون الناس ألأمَ من أعواننا، وكنّا نجازيهم على ما يبدونه من عسف وإجحاف بأكثر مما يستحقون، فأطمعنا بذلك قادة أحزاب أخَر وأغضبنا منهم خلقًا غير قليل، فانبروا يرفعون أصوات الِاحتجاج ويعددون المساوي، وحلفاؤنا يقارعونهم بالحجّة، ويصِمونهم بالدجَل، وينبشون في سجلاّتهم عن فضائح خافية، فإذا بهذه المعارضة المزعومة تنهش بعضها بعضا، وإذا بقواعدها حائرة لا تعرف أين تولّي وجهها، وإذا الأمور تسير كما حسبنا وزيادة.

عندئذ وطّنت العزم على نشدان ابني واستقدامه، فأرسلت في طلبه وزير خارجيتي الجديد، المكي حسونة، واحد من أبناء العشيرة

شهد له الباش كاتب بالكفاءة والحنكة والمراوغة، وكلفته في الآن نفسه بتحسين علاقاتنا مع الدول الأجنبية وتلميع صورتنا في المحافل الدولية، لنيسّر تصريف أمورنا الِاقتصادية التي باتت على شفا الِانهيار.

لما عاد، لم يكن يحمل في سلّته غير ما يحمل الصياد الفاشل. فأمّا عن ولدي، فقال إنه طلب مهلة تفكير يوازن فيها حساباته، وأمّا المهمة الثانية فلم تُبدِ غير الدول العريانة والجوعانة رغبتها في توثيق صلتها بنا، طمعا في نفحة جودٍ أو إمدادات نفط بأثمان بخسة تُدفَع بالتقسيط المملّ، فيما استمسكت دول الغرب الحاقد بموقف الصلف والعداء المستتر بأكثر من لبوس، تتخفى أحيانا بمسوح الواعظين المدافعين عن حقوق الإنسان، وأحيانا تتعرّى سافرة تكشر عن أنياب مسمومة وتزفر أنفاسها الكريهة ريح الحقد والغلّ، فتزعم أن ما فعلناه ضربٌ في حديد بارد، وأن البَيعة منافية للديمقراطية، وأنّ الحريات مفقودة، والحقوق مصادرة، وحركة زعماء المعارضة مقيدة، صالح الإمام بخاصة.

صالح الإمام! ذلك الحقير التافه الذي لا حول له ولا قوة، مثل ورقة خريف يابسة يمكن سحقها بين السبّابة والإبهام، يصبح حديث الغرب وإعلامه! ذلك الغفل الدجّال الذي لا يساوي ثمن الأهدام التي تستر عورته النتنة، يصير ما بين غمضة عين وانتباهتها الرقم الذي يراهن عليه الغربيون، وما درَوا أنه فرد من أفراد رعيتي، ورعيتي كلّها في حال سراح شَرطي لا تعلم متى تُعاد خلف القضبان.

الديمقراطية!

أما قالوا إنها حكم الأغلبية؟ ونحن الأغلب والأجدر والأقوى، نستمد شرعيتنا من حقّ كابدنا من أجله العداء بعزم غير مشكوم، وعملنا على صيانته وتطويره بجهد غير ملول، ومن إجماع تنادت خلاله مختلف فئات الرعية بالولاء والحب والفداء. كأنهم استكثروا علينا تلك الجموع المبايعة، وهم الذين لا يحوزون في صفهم عند الإِنتخاب سوى النصف!

وهذا التداول، ما معناه؟

أفلا يجوز الحكم بغير التناوب؟ أيعقل أن تُحرَم الرعية من حاكم عادل، وتبتلى بخلَف فظّ جائر يقوّض ما أسسه السلف الصالح ويسوم الرعية الخسف والذل، وهي صامتة، لا تملك غير الصبر على ما تلقى والكلام الفارغ في الصحف والمجلات؟ كيف يمكن للرعية أن تنهض وتسعد، والبلاد عرضة في كل دورة إلى حاكم يناقض في طبعه وفكره وسياسته سلفه؟ من أين للمشاريع أن تستمرّ وتثمر، وكيف للبلاد أن تحفظ لنفسها نهجا سليما إذا تعاقب عليها حكام ذوو مشارب متباينة، يتراوحون بين ما يسمّونه التقدمية واليمينية والتطرف، كل يوجه البلاد الوجهة التي يرتضي، فإذا هي كسفينة يقودها مجانين؟

وبأيّ وجهٍ يلقى الحاكم المخلوع أيامه ولياليه، إذا غدا بعد حياة النعيم والعزّ والجاه شخصا عاديا تتناوشه الألسن وتنهشه الأقلام، وربما تُسلَب منه أرزاقه فيتردّى إلى عيش ضنك وكفاف، وربما يُقتاد إلى السجن أو المقصلة وسط الهزء والشماتة والتشفي عن تهم ليس

أقلها الخيانة العظمى؟ وكم من حاكم مخلوع ممن عرفتُ أفنى العمر في إقامة جبرية أو معتقل، أو قضى نحبه رميا بالرصاص عن أفعال إن لم يكن أتاها حيكت له من غيب.

أنا لي الصدر أو القبر. لن يشير الناس إليّ بقولهم: «هذا حاكم عربانيا السابق!» كلاّ! لن يقولوا عنّي سوى: «هنا ضريح الكبير، سَيّدِ عربانيا!» وليذهبِ الحاقدون وديمقراطيتهم إلى جهنّم وبئس المصير! كذلك نحن منذ العهود الغابرة، نتنخّل من طرائق الحكم ما نراه مناسبا لبقاء الملك، وليس للغرب في ما نختار دخل ولا مشورة، وهذه البلاد نملكها، ولنا على رعيتها حق الحياة والموت، وليشرب من لا يرضيه ذلك من ماء البحر!

أليس مخزيا أن تتناقل وسائل الإعلام، في هذا الغرب الذي يريد تلقيننا الدروس، مشاهد تُظهر حكامه في أبشع صورة، في شكل دمى متحركة أو رسوم كاريكاتورية، فتجعلهم مثار الهزء والسخرية، وتخاطبهم الصّحف بلسان سمج مقذع، وتتعقب حركاتهم وسكناتهم كأنهم منحرفون يوارون سوأة بليل، وتحشر أنفها في أدق تفاصيل حياتهم اليومية، ثم تنشرها كما ينشر الغسيل، فضائح تزول إثرها كل هيبة، فإذا بالحاكم يجهد ما وسعته الحيلة لدفع التهمة، شافعا ذلك بأيمان مغلّظة على رؤوس الملأ، مثل طفل متلبّس بجرم، وإذا به أشبه بفزّاعة منهارة ما عادت تفزِع أحدا، يتناوشها الطير وتدوسها أظلاف البقر.

وهذا زعيمهم يقاد إلى التحقيق كالمجرم، ويؤتى لإقامة الحجة

عليه بالبيّنة والشهود، وتسجّل اعترافاته في شريط تتخاطفه تلفزيونات العالم، وتتناوله الصحف الكبرى بالنقد والتحليل بوصف الحدث قضية الساعة التي أقامت الدنيا ولم تقعدها، ثم جيء به إلى الشاشة ذابلا ممتقعا كأنما تقدم في العمر بغتة، ليقدّم للملايين اعتذاره ويعلن التوبة النّصوح. كل ذلك من أجل جارية أتته إلى المكتب فانتابه ما ينتاب الذّكر إذا اختلى بأنثى، وكان ثالثهما الشيطان، على رأي الشيخ المنصوري.

أهذه هي الديمقراطية التي يريدون منا انتهاجها، فتشاركنا الرعية بعد ذلك في كل أمر، وتخالط منا الأنفاس، وتحرمنا من نعمة من نعم الله؟

حدثني الباش كاتب مرة، وكان الجو كالعادة يعبق برائحة الخمرة، وأصداء الأنغام الشجيّة الهادئة، في مجلسي الجديد ذي الفُرُش الحرير والطنافس المطرزة والأرائك الفاخرة، المنبعثة من آلة تسجيل رفيعة أستعيض بها عن ألحان حبيبتي المفقودة، أن الخليفة المعتصم كان جالسا مع القاضي يحيى بن أكثم فنهض ودخل إحدى الحجرات، ولما خرج تناول شيئا من الشراب، ثم دلف إلى حجرة ثانية وغادرها بعد وقت ليتناول جرعة نهض إثرها من جديد ليدخل حجرة ثالثة، ومنها إلى الحمّام حيث اغتسل وخرج منه ليطلب مصلّى، فصلّى ركعتين، وعاد إلى المجلس ثم قال للقاضي يحيى: أتدري ما الصلاة التي صلّيتها؟ قال يحيى: لا. قال الخليفة: صلاة شكر لنعمة من نِعم الله عزّ وجلّ أسبغها عليّ اليومَ. قال يحيى: يا أمير المؤمنين، ما هي هذه النعمة؟ قال الخليفة: في هذه الساعة افتضضتُ ثلاث فتيات، هنّ من بناتِ ثلاثةٍ كانوا خصومًا لي.

وما لم يقله إن البنات حَظين بهاء الخليفة الدافق، وفي ذلك شرف لهن عظيم.

فهل نقبل بزوال هذه النعمة إرضاء لتلك الديمقراطية اللعوب؟ ثم ما شأن الغرب في مجريات أمورنا؟ هل استخلفه الله في الأرض وجعله وصيّا علينا؟ فليكنس قدام بيته أولا، فله في الجرائم والإبادة سجلاّت لا تحصى عددا!

يومئذ قال لي المكّي حسونة، والعرق ينضح من جبينه العريض ورعدة خوف غريب ترجف صوته، إن القلة القليلة، ممن لا يزالون يحفظون لنا بعض ودّ، تنصحنا بالإفراج عن صالح الإمام كتعبير عن حسن النية، ومن ثَمّ، سيكون الباب مفتوحا أمام الِإستثمار الخارجي والتعاون مع الشركات الأجنبية المهيمنة. فقابلت خوفه بابتسام، وقلت على الفور:

- فليكن. سنخرجه من سجنه الضيق، ونلقي به في معتقل فسيح الأرجاء عالي الأسوار منيع، ليهرف داخله بما يريد.

وأدرك في الحين قصدي فأضاء وجهه رقراق وجيز، وأخذ ينشف جبينه بمنديل أبيض ذي تخاريم. كان في الخمسين تقريبا. قصير مدموك مع بطن مبكر. في مشيته بطء وحذر مثل بطة تخشى أن تحدث في سيرها جلبة.

سألني في حذر شديد:

- وهل نشدّد عليه الحراسة أم نجعل له في الخفاء رقيبا؟

- هذا ليس من شأنك.

ولم يأت الإفراج بما كنّا نرجوه، فأرخينا عن الرجل العقال ليطوف في أرجاء سجنه الشاسع كما يشاء، وأبقينا على الخطوط الحمر التي لا ينبغي له بحال تجاوزها.

وفي يوم شتويّ غائم، تلبّدت فيه السماء بسحب سودٍ كثيفة، وبدت مثل غول خرافي يوشك أن ينطبق على الأرض، جاءتني الغالية، وكنت قد هجرتُ مخدعها نهائيا منذ وفاة أميرة. كانت مدوّرة مكوّرة، يفيض الشحم على كل جزء من جسمها، مثل بالونة لا يحتاج تفجيرها إلى أكثر من وخزة بدبوس، وهي تحاول أن تستر ما فعلت بها الأيام بجلابية من حرير بنفسجي مزركش، تكنس أطرافها البسط السميكة الفاخرة، وبأثقال من زينة ومساحيق تكاد لا تخفي أوراما تحوق بعينيها المنتفختين، وبلؤلؤ وخواتم وشنوف تلمع بلألاء خافق تحت أضواء الثريا، كلّما هزّت رأسها أو حرّكت يدين غليظتين بأصابع بيضٍ مبرومة كشموع الأضرحة.

أهذه هي المرأة التي خفق لها قلبي، وذُهل عقلي، وطار لُبّي، فسعيتُ في إثرها بالمال والدسائس حتى طلقتها من زوجها واتخذتُها من دون النساء حليلة؟ تذكرتُ لحظات الضعف التي كانت تنتابني، وأنا أمرغ وجهي على صدرها النافر، وأداعب منها ردفا مليئًا يكاد يطفر، وأقول في نفسي: «هي أو أهلك دونها!» فاعترتني رغبة في الغثيان. أكثر من ذلك، وددت لو أطبق بيديّ على عنقها الذي بات غائصا بين كتفيها، مندلقا من أمام على صدرها الرخو المفلطح كأنه عجين غير معروك، فأكتم أنفاسها إلى الأبد. كلما رأيتها تقبّض قلبي، وأيقنت أنها لا تحمل في عِبّها سوى نُذُر شرّ مستجدّ،

حتى صرت آنف من عشرتها ولا أكلّمها إذا جالستني إلا جوابًا.

أسفر وجهها واستبشر، فأدركت من فوري أن وراءها كارثة.

- أعرف أنك سوف تُصِمّ أذنيك عما أقول، ولكن ينبغي أن تعلم أنّ ناصحيك يخدعونك.

قلت في نفسي: كلام معاد درجت عليه منذ مدة لتوهمني بأن النصح الصادق لا يأتي إلا منها، وأن ما ينصحني به الآخرون زور ونفاق، والغاية في ما تزعم مكشوفة.

ولكنْ ما كادت تقول:

- ابنُك لن يعود.

حتى توفزّت حواسي، فأرعَيتُها سمعي وملت نحوها برأسي أروم المزيد.

أضافت وقد سرّها أن تلحظ نهم الاستطلاع في نظراتي:

- ذلك ما صرّح به للمكّي حسّونة.

- ومن أعلمك؟

- ليس حسونة على أية حال.

استحلَت برهة وقع المفاجأة عليّ وأثرها السيّـئ الذي اشتعلت به نظراتي، وتقبّضت من جَرّائه عضلاتُ وجهي، وأردفَت في نوع من المباهاة مع هزة رأس توحي باعتداد:

- أنا أيضا لي عيوني وأصفيائي.

وسكتت تسبر ردّة فعلي، وترقب أن أخرجها من صمتها بسؤال

تحسب أن ليس لي منه مناصٌ ولا عنه مَعْدى، وإذا بي أتشاغل عنها بالتطلع عبر شرفة القاعة إلى السماء وقد اربدّت وأومض البرق ودوّى الرعد بهزيم وأصداء. رأيتها تهتز للرعد حتى ليكاد يجفو عجزها عنِ مقعدها قبل أن تقول وقد تغيّر لونها:

- ألا تسألني لماذا؟

فاستجبت لسؤالها بنظرة باسرة باسلة قالت على إثرها:

- لأنه مستاء منك.

هذه المرة، نجحت في إثارة فضولي وإخراجي عن الصمت الذي لزمته، فسألت دون أن أشعر والغضب يعقد ما بين حاجبيّ:

- مستاءٌ منّي! لِمَ؟

بدا ارتياح هيّنٌ على وجهها الذي لم تفلح عمليات الشدّ في مداراة غضونه، ومطّت شفتها السفلى، وقالت ورفيف رموشها المستعارة يخفق بلا توان:

- لأنك لم تأخذ بثأره.

- مِمّنْ؟

- مِمّن حاك له الدسيسة.

قديمة! لقد سمعت هذا القول من قبل، وراجت في أرجاء القصر حكايات عن حيلة مدبّرة راح ذلك الشقيّ ضحيتها، ثم فاضت حتى بلغت العوامّ، ولكني أعرف أن من نسجوها هم ندماؤه وأصفياؤه ممن كان يغدق عليهم بغير حساب، لكي يبرّئوا ساحته فيستعيدوا بتبرئته وعفوي عنه مواقعهم ومصالحهم.

- ألا تردّ؟ سألت بعد صمت.

- قديمة، قلت.

-أنا لا أطلق الكلام جزافا. عندي الدليل إن شئت.

في تلك اللحظة، حاولت أن أعرف ما وراءها، ما الذي يدفعها إلى إقامة الدليل على براءة ابني، وهي تكنّ له كرها غير خافٍ، وأدركت بغير عناء أنها تعِدّ العدّة للخلاص من خصمٍ ينازعها شيئا ما، ولا شكّ أنها رتّبت أمرها بليل ودرّبت إحدى أصفيائها من بنات أو بنين ليستظهروا بين يديّ بما دأبت على تحفيظهم إياه.

زهدت فيها، فنهضت متثاقلة كأن برجليها أطنانا من حديد، وقد اربدت سحنتها بالغضب، واتقدت نظراتها بالحقد، ورفّ منخراها بالحنق والمقت. كنت قد أزمعت أمري على تقصّي الحقيقة بنفسي دون أن أقرّ لتلك المرأة بفضل، وكنت، أكثرَ من ذلك، بحاجة إلى تصفية حسابي مع المكّي حسونة، هذا الذي اخترته من بين خلق كثير لم تلوّثهم السياسة بأوضارها، بعدما شهد له الباش كاتب بأنه رجل تجرّدت نفسه من شهوة المطامع في حكم أو ولاية، ووضعت فيه ثقتي وأنا أحسب أنه بها حقيق، فإذا جواده يعثر في أول كبوة.

عندما نطقت الغالية باسمه كانت تعرف أن أمر الإعدام قد صدر بشأنه كأنها ضغطت على زر المقصلة، وتعرف أيضا أن ذلك سيقلق مضجعي بالليل ويسدّ عليّ سبيل النهار، لأن حسونة واحد من أبناء العشيرة، وفي الإجهاز عليه أكون كمن يقطع الغصن الذي يقتعد، خصوصا وقد أوليت الحكومة من لا ينتمي إلى العصبية الحاكمة، لا من قريب ولا من بعيد.

وكان لا بدّ، قبل تنفيذ الحكم فيه، أن أسمع منه ما بخل به عليّ، ثم أطلق لذهني العنان لأخلص منه في صمت، أو أستجير بذلك الداهية الباش كاتب كي يجد لي طريق الخلاص.

عندما استقبلته في مكتبي بادرته بالسؤال:

- لِمَ أخفيت عني؟

تفصّد العرق من جبينه، واعترته رعدة خوف تجلت في نظراته القلقة وحركاته المضطربة وهو يقول:

- لم أشأ إزعاجك يا مولاي.

- وآثرت بذلك غيري؟

ضاع منه الكلام وأخذ ينشف العرق بمنديله ويزدرد ريقه، وهو يقلّب نظره حوله كأنه يبحث عن قطرة ماء يرطب بها حلقه. ضربت المكتب بجمع يدي وصرخت في وجهه:

- تكلّم!

فاقتعد الرّعب قلبه وبدا حائرا لا يعرف هل يقول الحقيقة أو نصفها أو جزءا منها، وربما يكون قد لعن الحظّ العاثر الذي جذبه إلى أضواء السلطة وكان عنها في غنًى، فقلت أشدّد عليه الخناق وصوتي لا يبرح حدّته:

- أريد أن أعرفَ كلّ ما قال لك!

- أعطني الأمان أوّلا يا مولاي.

- لك الأمان. هه! تكلّم! لماذا لا يريد أن يعود وقد غفرت له ذنبه؟

- له في ذلك سببان: أولهما، أنه يؤمن بأن الغرب لن يغفر لنا حكاية اختطاف العرباوي.

- ماذا قلت؟

- أنا أعيد عليك ما قال لي بالحرف يا مولاي، وإن كنت لست على رأيه.

- هه! وماذا ينوي هذا الغرب الحاقد أن يفعل حسب ظنّه؟

- سيشعل الفتن على التخوم، ويستأجر مِن الجيران مَن يخلخل استقرار البلاد.

- هكذا! وما دخل هذا في رفضه العودة؟

- قال إن العدّ العكسي انطلق، وإن أيام النّظام معدودة.

لم أستطع كتمانَ غيظي، فأطلقت ضحكة حانقة عالية تردّد صداها في أرجاء القاعة، فاضطر حسونة إلى مجاراتي، وبالغ في مَطّ فمه على وسعه دون صوت فإذا ضحكته الصفراء أشبه بتكشيرة مصروع، ثم سألته عن السبب الثاني، فأجاب بأن ابني على يقين من أنه كان عرضة للظلم والغبن كأيّ فرد من أفراد الرعية الهُمْل، دون أن يجد مني سندا ونصرة، وهو مقتنع بأنه كان ضحية خدعة لا يعلم من وراءها، وإن كان يعلم اليوم غايتها. وقال إن الكبير الثاني اعترف له بأن امرأة من جواري القصر، أوهمته بأن الفتاة البوسنية متيمةٌ في هواه حتى أضلّت سبيله فكان ما كان.

- ومَن المستفيد في رأيك من إبعاده؟

- من لا يريده أن يتولى الخلافة.

- هل لديك فكرة؟

تردد قبل أن يهزّ رأسه بالنفي، وتمتم من بين أسنانه:
- الطامعون كثرٌ يا مولاي.

قلت بحدّة وجفاء:
- هذه إجابة لا تليق بمن يمارس السياسة.

ابتلع الإهانة في صمت وتضاءل في مقعده فعدت أسأله:
- ولماذا أخفيتَ ذلك عني؟
- لأنّ... لأن الكبير الثاني قال لي إنك لن تُصدّقَني يا مولاي.
- لن أصدق ماذا؟ السبب الأول أم السبب الثاني؟
- كلاهما يا مولاي.

ركزت في عينيه نظرة كأنها نار موقدة حتى احمرّ خداه والتهبت أذناه وسال عرق غزير على رقبته، وقلت له:
- أتعرف ما جزاء المقصّر؟

فأجاب في ما يشبه البكاء بصوت تخنقه الغصة:
- لا عفوَ أعظمُ من عفو ملكٍ قادر على مُذنِب عاثر.

وبتّ ليلتي متململا أكاد لا أذوق نومًا ولا راحة والأفكار تزدحم في ذهني وتضطرب، وتحمش نفسي بنَجْرٍ من ضرام واختلاج. وفي جوف الليل خطر ببالي أن أستنجد بالباش كاتب أو بعثمان حمودة، ثم عدلت عن رأيي.

كان لا بدّ أن أتلمّس طريق الحقيقة وحدي هذه المرة.

أولا، لأن قتل حسونة، على سهولة تدبيره وتنفيذه، بليّة تخبط

وتنزع وتمزّق الشّمل كله. الآن وقد علم أكثر من طرف أنه أخلّ بالعُرف، فسوف توجَّهُ الأنظار نحوي حتى وإن مات ميتة طبيعية. ثانيا، إذا صحّ ما يدّعيه ابني وتؤيّده الغالية بأن خديعة ما تمّت هنا في غفلة مني، فالأفضل أن أتحرك في الخفاء فأقطع الطريق عن المذنب وأمنع عنه المدد حتى لا يتقيَ شرّي ويسلمَ من انتقامي.

كان قد مضى من الليل أكثره، والشجون التي تجيش في صدري تلتمس منفذا ما عادت تجده، وتواردت عليّ صور مرّت في خيالي سِراعًا وأنا أتذكر تلك الغادة البوسنية التي طالما سلّت بأنغامها غيظي، وقطَعت برقّتها فَحْمتي، وهدهدتْ بوداعتها موجدتي، وشعور بالغيظ يثور بأنفاسي.

لو ثبتَ ما يُشاع فسوف يكون ذلك شرخًا في هذا الصرح الذي بنيتُ وأعليْت، وأمرًا جللاً لن يقنع مدبّرُه بما حقق، بل سوف يَطمع في ما هو أجلّ وينسج مكائد أدهى، وربما يخطط للاستيلاء على السلطة. فمَن ذا الذي تجرّأ على مقامي، واستعداني على ابني واستراح؟ من ذا الذي حفر بيني وبين من أحِبّ هوة لا تُردَم؟ ولأيةِ غاية؟

عندما خطر ضياء الصبح، أويت إلى إحدى الجواري أتلمّس في حضنها التفريج عن قلبي المكروب، وما كدت أنعم بغمضة حتى هبّ الباش كاتب يوقظني وفي صوته نذير الخوف.

سألته ولم أكن قد اغتسلت.

- ما الأمر؟

- العفو يا مولاي، ولكنْ ينبغي أن تحضر في الحين. العدو اخترق الحدود.

- العدوّ! أيّ عدوّ؟

- لا ندري بعد.

لبست ثيابي على عجل ودلفت إلى القاعة الكبرى، فوجدته في انتظاري صحبة عثمان حمودة.

عندما رآني حمودة، نهض وسلّم ثم بسط عليّ المسألة ببرود تام:

- عصابات مسلحة تسللت عبر الحدود، فقتلت وأحرقت ودمّرت، ثم انسحبت من حيث جاءت. هل نلاحقها أم نكتفي بتعزيز مواقعنا اتّقاء هجمة مباغتة؟

لذت بالصمت برهة أستجمع شتات فكري، فإذا بالباش كاتب يقول:

- لنعرف أوّلا هويتها ودوافعها.

- المعتدون تركوا خلفهم مناشير تزعم أن العملية تأديبية. أردف عثمان حمودة.

- ماذا؟ سألت في اندهاش.

- قالوا إن أعمال عنف وسلب وقطع طريق جدّت في القرى الحدودية، ولم تجد منّا الحزم اللازم.

قلت وقد اشتعلت دمائي بالغضب:

- هكذا إذن! يريدون منا أن نكون حازمين؟ حسنا. عبدو!

- نعم يا مولاي.

- أصدرْ أمرا بملاحقتهم ودكّ معاقلهم بشتى الأسلحة الفتاكة!

ومضى الباش كاتب على غير عهده بنفسه يصدر أوامر التحرك العسكري، ولم يمض يوم أو يزيد حتى غدت أوكار المعتدين خرائب. وتعالى مع أدخنة الحرائق وغبار الأنقاض احتجاج البلد المجاور عن انتهاكنا حرمته، فألقمناه بعد القذائف عيارات سباب مقذعة، وباتت عربانيا تستطعم حلاوة النصر الخاطف وتباهي بالضرب على الأيدي العابثة، وبات الباش كاتب يملأ المنابر بدويّ نفّاذ، عبر شاشات التلفزيون:

هُمُ القَومُ إن قالوا أصابُوا وإنْ دُعُوا
أجابُوا وإنْ أعطَوْا أطابُوا وأجزَلُوا
ومـا يسـتطيعُ الفاعلـونَ فعالَهـم
وإنْ أحسَنُوا في النائباتِ وأجْمَلُوا[1]

وكنت أحسب أنها غاشية لن تلبث أن تنجلي، فلم نولِ الحدث ما اعتدنا أن نرتّب له من مسيرات تأييد وتنديد، فإذا هو جزء من مؤامرة وقع الإعداد لها بدقة وتخطيط، فما كادت الأصوات تهدأ حتى جاء عثمان حمودة يعلمني بأن البلد المجاور استجار بالغرب وبدأ يدجّج على مشارف أرضنا العدّة والعتاد. وكان لا بد من وقفة حازمة، ومن اتخاذ ما ينبغي من إجراء يحول دون بلوغه أربه. أعلنّا حالة الطوارئ، واستدعينا قوّات الاحتياط، وأقمنا الحواجز في كل

(1) للشّاعر مروان بن أبي حفصة.

مكان، وأجرت قواتنا المناورات قبل أن تتخذ لها في الثغور مراكز استعدادا لمناجزة العدو.

وشمل البلادَ استنفارٌ ما رأت مثله، وبحّت الحناجر تتوعد الأعداء بالوِيل والثبور وعظائم الأمور، وتصدرت المدائنَ شعارات تحضّ على التصدي للبَغْي وحماية الذمار بالنفس والنفيس، وفداء الأرض والعِرض بالروح والدم، والباش كاتب يلهب الحميّة مذكّرا بأنّ جنود الكبير ليوث بواسل منشدًا:

فـإذا حاربُـوا أذَلّـوا عزيـزًا وإذا سـالَمُوا أعَـزّوا ذليـلاَ[1]

وكان صالح الإمام قد خرج عن صمته، فزعم خلال تجمّعات تافهة أن السبب في ما تتعرض له البلاد سياسة الارتجال التي سارت عليها الحكومات المتعاقبة، وهي سياسة لا تعبأ بما تجرّه على الناس من ويلات، وأنذر من يريد أن يسمع هراءه بأن عربانيا مقبلة على مرحلة عصيبة ما لم يغيّر الحاكم نهجه، ويدّعي بأن الرعية خائفة لا تنطق بما تطوي عليه الجوانح، لأن أفواهها مكمّمة وألسنتها مخرسة.

وسألت الباش كاتب عن موقفنا من هذا الدّعيّ وأتباعه إن خذلونا وقتَ الضِّراب، فقال:

– كما يقول الشاعر نصر بن سيّار.

– وماذا يقول؟

– إنْ يَنْصُروِنا لا نَعِزَّ بنَصرِهِمْ أو يَخْذُلونَـا فالسّماءُ سماءُ

فتحرّكت في غيظ وانفجرت بصوت هادر:

---

(١) البيت للبحتري. الديوان.

- كلاّ! من يخذلنا فهو خائن!

وأمرت بأن يُقاد الخونة، كلّ الخونة، بمن فيهم صالح الإمام، إلى السجن والإقامة الجبرية حتى لا يقربَهم أحد، ولا يسمع كلامهم الفارغ بشر، ولنا معهم حين تهدأ الغاشية حساب، وأيّ حساب!

ومضت أيّام كانت ديار عربانيا في أثنائها لا تظلّل إلاّ وجوها جاهمة عابسة متأهبة، وأبواق الغرب تتجرّأ علينا بافتراءات تنسج فصولها كل يوم، وتدعو رعايا عربانيا إلى التمرّد على طاغيتها الظلوم الغشوم كما تزعم، ونحن نكيل لها الصّاع صاعين وزيادة، حتى لكأن الحرب بيننا مدارها الإعلام وذخيرتها الكلام. ثم اعتدنا على ذلك حتى صار خبزَنا اليوميّ دون أن نرفع الإصبع عن الزناد أو نخلي الحصون. ولما سرَت في الناس همهمة ارتياح بأن العداء لن يخرج عن مجال القول، وأن قائدهم لن يدَع للبغاة جرأة عليه، ذهب عنهم ما كانوا يتوجّسونه من خوفِ ما قد تطالعهم به الأيام، فانصرفتُ إلى البحث عن هذا الدليل الذي لوّحت بذكره الغالية.

التمست اليقين لدى زبيدة القهرمانة التي تهيّئ لي عرائس الليالي الحامية. امرأة ليس بجسمها فضلة شحم تدوّر وجهها رغم أنها جاوزت الخمسين، متينة الأساس، زيتية البشرة، صموت كأنها ولدت بغير لسان. إذا حدثتها، شخصت إليّ ببصر لا يطرف ولا يتحرك حتى وإن سمعت مني أمرًا أو زجرا. وفيّة كأنبل ما يكون الوفاء، لم تفش يومًا سرّا من أسراري وهي أعلم النساء بما يعتريني وقد مال بي العمر إلى خريفه. وأعجب ما فيها أنها تحفظ في صدرها

ما تلحظ من غرائب، ولا تتحدّث في أمر عاينتْه ولو كان جريمة قتل إلا متى تُسأل.

حدثتها بالمطلوب وزوّدتها بما يغري ويفكّ عقدة الألسن، فغابت عني يومًا وليلة، وجاءتني بامرأة شابة لا أذكر في أيّ مناسبة رأيتها. في الثلاثين تقريبا، هيفاء القد مرفوعة الهامة كأن قوامها عود رمح متين، ذات شعر في لون الحنّاء تنحدر غدائره عند مجمع الكتفين، وصدر نافر لم يلقم ثدييه رضيع، في وجهها نمشٌ مبعثرٌ كالرذاذ، وفي أنفها خَنَسٌ بيّن، وفي عينيها اللتين تشبهان عيني ظبي وحشيّ حِدّة لا تناسب لونهما الكستنائي.

كانت تلك دليل الغالية، وشاهد إثبات العملية المنكَرة.

سألتها عن اسمها، فنظرت إليّ نظرة جريئة أنستها ما ينبغي لها نحوي من توقير، وقالت:

- شامة.

قلت، وأنا أركّز فيها نظرا حادّا لأجعلها تُغضي تلك العين الجريئة التي تحملق بها في وجهي دون حياء:

- اسمُكِ الكامل!

- شامة بنت صالح التبريزي.

- التبريزي! كأنه... كأنه يذكرني باسمِ شخص. هه. لا علينا. حدثيني بما تعرفين.

قالت إن لها من بين خادمات القصر صديقة حدثتها عن جارية تدعى جليلة بركة، كانت تسهر على راحة أميرة، وكانت جليلة هذه

قد تردّت إلى حال من الحزن والاكتئاب إثر انتحار البوسنية عافت فيها كل شيء حتى ظنّ من يعرفها أنها حزينة على فراق سيدتها، إلى أن باحت يوما لإحدى صديقاتها، وكان قد شتّت الحزن عقلها وأضناها النّدم، فقالت لصديقتها وهي سكرانة طافحة إن مولانا الكبير الثاني مظلوم، وحكت لها عن خطّة مرسومة لإيهام كل منهما، أميرة والكبير الثاني، بأن كليهما ما عاد يصبر على بعد الآخر.

صرخت في وجه زبيدة بأعلى صوتي، وقلبي يفور، وأنفاسي تضطرب:

- جيئيني بجليلة هذه!
- لقد اختفت يا مولاي. ردّت القهرمانة في ما يشبه الهمس.

صرخت ثانية، ونثار ريقي يتطاير في الفضاء:

- جيئيني بها من تحت الأرض!

وإذا بتلك المرأة الواقفة كالرمح تقول في وثوق من يعلم الحقيقة:

- لا تتعب نفسك يا مولاي، فلا شكّ أنها لاقت المصير الذي انتهت إليه قريبتها.
- قريبتها؟
- لقد كشفت جليلة لصديقتي أن إحدى قريباتها، وهي الطرَف الأساس في الخطة، اختفت، وأغلب الظنّ، في ما تقول جليلة، أنها قتِلت.
- وصديقتُك، ما اسمها وأين هي؟
- غادة مبروك، وقد اختفت هي الأخرى.

تملّكني الذهول وثارت في قلبي الحفيظة، وأنا لا أصدق أن كل هذا يحدث في قصري ولا أعلم، واستبدت بي رغبة في أن أكسر ذلك الأنف الأشمّ، وأحني تلك الهامة المرفوعة، ثم تمالكت، فهي خيطي الوحيد الذي سيقودني إلى صاحب الفعلة النكراء، كي أنكّل به تنكيلا يكون عبرة لمن يعتبر. سألتها:

- ولماذا كتمت عني هذا الأمر، وهو كما تعلمين خطير؟

ردت دون أن تنكّس رأسها:

- لأني خائفة، وليس لي من يحميني.
- ولكنك أعلمت مولاتك الغالية.

ترددت قبل أن تقول وفي نظراتها لمعٌ غريب:

- لأنها وعدتني بعتق رقبتي.
- وماذا ينفع العتق إذا كان القاتل ينتظرك في عطفة شارع مظلم أو في إحدى زوايا البيت؟

همّت بالكلام ولم تنبس. أحسست أنها كانت تودّ أن تقول قولا ولم تجرؤ عليه، فصرفتها هي وزبيدة، وبقيت وحدي أغتلي في حنق، وقد امتلأ قلبي حقدا وغيظا على هذا الذي أوقع بيني وبين فلذة كبدي وحرمني من فاتنتي الساحرة، وعزمت أن أتنبه، وأن أجعل سطوتي طاحنة، وإلا كانت عاقبة أمري وبالا تطمِعُ السفهاء فيّ، ثم خرجت ألتمس في حديقة القصر نزهة تهدئ من قلبي الثائر، وقد تمثّل أمام عينيّ منظر النكال الذي سوف ألحقه بمن لم يرهبه التجرؤ عليّ، أنا سيّد عربانيا!

غير أن السماء لم تكن رحيمة، فقد كانت مربدّة بشكل ولّد في نفسي الهمّ. اعتراني فجأة عجب شديد من اهتمامي بالسّماء، فمثلي ليس بحاجة إلى أن يرفع رأسه إليها يرجو حاجة. لست كذلك الخليفة الذي قال للسحب: «أمطري حيث شئتِ فخراجُكِ لي»، فالخراج يأتيني غصبًا دون الرضى، سواء أمطرت أم لم تمطر. رجعت أدراجي، وطلبت واحدا من كبار المسؤولين عن أمن الدولة يدعى مرزوق. في العقد الخامس تقريبا، وجه من تلك الوجوه التي لا تنفرد بسِمة، يراها المرء كل يوم فلا تثير فيه شيئا، ولا يحتفظ منها بأمارة. كأنه شبيه بكلّ الناس، وذلك ما كنت أريد لكي لا ينتبه لوجوده، حيثما يكون، حتى البوليس نفسه، وكلفته بإجراء تحقيق سرّي لا ينبغي أن يعلم به أحد حول البنات الأربع، حتى تلك المدعوة شامة التبريزي، دون أن أبيّن له دوافعي.

وما هو إلا أسبوع حتى جاءني بكل المعلومات المطلوبة.

فأمّا البنات الثلاث، فلا أثر لهنّ، وأغلب الظنّ، في ما يقول، أنهن غادرن البلاد خلسة، أو قتلن وورين مكانا مجهولا. وأما قريبة جليلة بركة، واسمها هادية حمدي، فقد أعلمني أنها شاطرتني الفراش ليلة، ثم تزوّجها أحد خدام القصر وجعلها في خدمة رئيس الوزراء.

دوّى الاسم في سمعي، فانتفضت كأني دست حافيا على الجمر، وسألت:

- مَن؟

- الباش كاتب، ردّ مرزوق في حياد تام.

- وتلك المدعوة شامة؟
- هذه أخت عبدون بن صالح التبريزي.
- ومن يكون؟
- ذلك الذي أشعل الفتنة بكتاباته الوقحة على الجدران.
- آه! تذكرت. عبدون التبريزي. ذلك الشعرور الدجّال الذي سوّد الجدران بسبابه المقذع. وأين هو الآن؟
- مات تحت التحقيق.
- من حقّق معه؟
- الباش كاتب.

صرفته بعد أن أمرته بزيادة التقصّي في اختفاء البنات الثلاث، هادية حمدي بخاصّة، وبقيت في مكتبي أدير خواطري في صدري أحاول أن أستشف من تلك المعلومات ملامح المجرم. وفجأة تنبّهت إلى أمر خطير. داخلني شعور بأنّ تلك المرأة دبّرت حيلة جهنّمية حتى تُوجَّه الظنون نحو الباش كاتب، وبذلك تنتقم من قاتل أخيها. فإمّا أنها تعرف أكثر مما قالت، أو أنّ الخديعة لا أساس لها من الصحة أصلا. وفي كل الأحوال تكون قد سعت إليّ ببهتان. ولكنّ اختفاء البنات الثلاث دفعة واحدة، كأنما انشقّت الأرض تحت أقدامهنّ، يظلّ لغزا لا أجد له أيّ تفسير. تساءلت، لِمَ لا تكون تلك المرأة قد انطلقت من خبر اختفائهنّ لتنسج مكيدة توقع بالباش كاتب، وتثأر لنفسها منه عن موت أخيها؟

استقرّ رأيي على دعوتها ثانية، لأرغم أنفها على الإِعتراف بما

تتكتّم عليه، وانتزاع ذلك بالقوة إن لزم الأمر، غير أن الباش كاتب جاءني بأخبار عن تحرّك قوات الأعداء على الحدود، فأرجأت النظر في هذه المسألة، وانشغلت بإعداد العدّة للمواجهة.

وفي اجتماع ضمّ أعضاء الحكومة وقادة أركان الجيش وامتد حتى الفجر، شرحت لكل واحد منهم دوره، وأمرت في نبرة حازمة عازمة بالتأهب لدكّ البلد المجاور عند أول طلقة، حتى يعلم الغرب أنّا لسنا من طينة البلدان التي تكتفي بتبادل الرشقات عبر الحدود مثل كلاب تتهارش، وإنما نحن أمةٌ إذا ما استثيرت، لن يهدأ لها رَوعٌ ولن يهنأ لها بال حتى تجتثّ الإثم من مظانّه.

في فجر ذلك اليوم، حمل إلي عثمان حمودة أخبارا لا تسرّ عن مهاوش واضطرابات في ولاياتنا الحدودية، وعن تسلّل أفواج كثيرة من رعايانا عبر الحدود لتلوذ بأحضان العدو، فقلت له:

- فأما عن الاضطرابات فلتتولّ أمرها بنفسك كما عهدتك، وأما أولئك الذين نشدوا الأمان لدى العدو، فلا شأن لنا بهم. دعهم وسوف يكتشفون بأنفسهم أي ذلّ سيلقون لدى الغريب، إن كثروا جاعوا، وإن قلّوا ضاعوا.

وداخلني الحقد على هذا الغرب الذي أغدقنا عليه من خيراتنا ما لا يحصى عددا، وأودعنا في بنوكه قروشنا البيض لأيامنا السّود، واشترينا منه كل أصناف الخردة التي تنتجها مصانعه، مصانع لو لم تجد في ربوعنا أسواقا لترويج بضاعته لأفلست وهام أبناؤه جوعا وذلاً يستجدون في الشوارع لقمة. هذا الغرب الذي يفرض علينا ثمن

البيع والشراء عنوة، يبيعنا بضائعه بالثمن الذي يريد، ويشتري منّا موادّنا الخام بالثمن الذي يحلو له، ويزعم أنه يرسم لنا طرق الصلاح والفلاح وهو لا يني يدمّر ما نبني ويخرّب ما نقيم، ثم لا يكتفي بذلك، بل يشنّ علينا الحروب في عقر دارنا، ويقتل ويشرّد ويتلف، بحجّة الدفاع عن حقوق الإنسان!

كانت نفسي فائرة بيحموم مظلم تغلي غيظا وحقدا وحيرة، ولم أجد في حيرتي تلك إلا أن أختلي بنفسي، لعلّني أهتدي في خلوتي إلى ما يضيء لي تلك الظلمات. ثم انشغلت بمتابعة سير الأحداث على قنوات التلفزيون العالمية التي لا يُسمح بالتقاطها لغير أعضاء الحكومة، لأعرف كيف أتقي خصمي وأصيب منه مقتلا، وغاب عني أمر اختفاء البنات حتى ردّني مرزوق إلى صحوتي، فقد جاء يعلمني بأن لهادية حمدي أخًا يصغرها بأعوام، اختفى هو الآخر.

- ولم يعثر له على أثر! قاطعته بصوت جافّ أجشّ، وقد اربدّ من الغضب وجهي.

فهزّ كتفيه معتذرا في عجز ثم أردف:

- ولكنْ هناك خيط يمكن أن نبدأ منه.

- خيط!

- نعم. هذا الشابّ التحق بأخته...

- ... إلى قبر مجهول طبعا!

- لا يا مولاي. أقصد أنه التحق بها قبل اختفائهما معا.

- إلى أين؟

تريّث قبل أن يجيب:
- لا أدري.

صرخت في وجهه محتدّا:
- أهذا خيطك؟ إنه أوهى من خيط العنكبوت!
- العفو يا مولاي. أردت أن أقول إنّ أخا هادية شوهد في حيّه آخر مرة على متن سيارة فاخرة يقودها رجل وسيم.
- هل عرفتَه؟

أخرج من ملفّ بنّي مسفّر ورقة، وناولني إيّاها قائلا:
- هذه صورته حسب الأوصاف التي حصلت عليها.

تأملت الصورة. رجل في العقد الرابع، شعر فاحم ذو قُصّة تغطّي جبينا عريضا، وجه مربّع، عينان سوداوان وأنف مستقيم. ثم سألت:
- من هو؟
- سأجيئك بخبره يا مولاي.
- لا تعُد إليّ إلا إذا أنهيت مهمّتك.

بعد ذهابه أرسلت زبيدة في طلب تلك التبريزي.

عندما مثلت شامة التبريزي بين يديّ نظرت إليّ ولم تتكلم، وانتظرت ما سوف أقول. بدت تقاطيع وجهها مليحة رغم حدّة النظرات والفم المنقبض الذي تكاد شفتاه لا تنفرجان.
- أنتِ أختُ عبدون؟

أومأت بحركة خفيفة، وظلت واقفة مرفوعة الرأس في تحدّ.
- تريدين أن تثأري له من قاتله؟

ارتسم على وجهها فجأة ما كان في قلبها من الخوف. جهدت عبثا في مداراته، وبدا واضحا في اختلاج شفتيها وهي تنكر بشدة:

- لا أعرف من هو.

- بلى، بلى.

ثم أريتُها الصورة وقلت:

- وهذا؟

ألقت عليها نظرة موجزة وأخرى طويلة، ثم تبسمت ابتسامة ضئيلة وشخصت إليّ ببصرها قائلة:

- كنت أعرف أنكم ستصلون إليه.

انتفضت كأنما لذعتني نار وأنا أسألها:

- أتعرفينه؟

- نعم، قالت. واسمه أبو السّعد.

- ولماذا لم تخبريني منذ المرة الأولى؟

- وما قيمة شهادتي بغير بيّنة؟

بقيتُ معقود اللسان وهي تحدثني مرتاعة ثائرة النفس عن هذا الرجل الذي ألقى بشباكه على صديقتها غادة مبروك، وكان قد أوقع قبلها بجليلة بركة، ولا شكّ أنه وعد البنت التي دبّرت المكيدة، أي هادية حمدي، بالشيء نفسه، وفي رأيها أنّ هذا الرجل وراء اختفاء البنات الثلاث. وقالت إنه بدأ يراودها هي، ولعله اكتشف من صديقتها، في ما تزعم، أنها على علم بالموضوع، وعاد ليمحوَ كل أثر لجريمته الأولى.

- من يقف وراءه في تقديرك؟

- من له مصلحة في إبعاد مولانا الكبير الثاني.

أمرت بأن تودَع المرأة في ناحية من القصر تحت حراسة مشددة، وطلبت إلى مرزوق بأن يحضر في الحال، وخطوت في مكتبي أعقد ذراعيّ خلف ظهري، وأنفاسي تفور حتى ليكاد بخارها يغطّي ناظريّ، وحمل ثقيل ينحط على عاتقي، وشيء كالخنجر المسنون يطعن قلبي. ثم جلست إلى مكتبي مطرقا ويداي على عارضَيّ.

ابني مظلوم إذن، والمجرم الدنيء يروح ويجيء هانئ البال، ويسخر منا جميعا في ضحكة ماجنة. ولكن ما الذي يدفع هذا الغمر إلى مناوأة ابني؟ ألقيت نظرة على الصورة من جديد فلم يلح لي من وسامة هذا الوغد إلا تنافس ممكن بينهما حول حريم، ثم استحضرت في ذهني ما قالته الغالية وأكدته شامة التبريزي وألمح إليه المكي حسونة من أن الدافع لا ينأى عن إبعاد ابني وحرمانه من تبوّؤ العرش بعدي، وهذا البو السعد لا مكان له في الحلبة لا من قريب ولا من بعيد، وما هو في تقديري إلا أداة، ولكنْ أداةٌ لمن والطامعون كثرٌ؟ الوحيد الذي تردد ذكره حتى الآن هو الباش كاتب، والباش كاتب لم يكن ليقبل برئاسة الحكومة لو لم أرغمه عليها، وهو إلى ذلك جبان رعديد، ثم إنه يعلم ألا حيلة له بعدي، وربما مزقت العشيرة لحمه في غيابي باعتباري سنده الوحيد، ولا أظن أنه يقدر أن يسيء إليّ وأنا صانعه من عدم وواهب رزقه ومكانته.

هل يعقل أن يُقدم رجل مثله لا يقوى على ذبح دجاجة...

وانتبهت إلى صوت استئذان عند الباب، فأذنت له، وأنا على يقين من أنه مرزوق، فإذا الزائر عبدو الباش كاتب، وقد اكتسى مظهره عزما لم يعهده فيه أحد. جلس قبالتي والغضب يغطّي ملامحه ليعلمني بأن ولاية هُبَل أعلنت انفصالها عنّا واستقلالها بذاتها، وأنّ العدوى يمكن أن تستشري وتمتدّ إلى الولايات المجاورة إن لم نعجّل بإجراء حاسم.

فدار بي رأسي فجأة، وتقبّضت عضلات وجهي وصررت على أضراسي، وقلت في صرخة جشّاء وأطرافي ترتجف:

- لا بقيتِ يا هبل!

وسألته هل ينبغي أن نشنّ غارات محدودة أم نشعلها حربا عنيفة ليس فيها بقيا ولا هوادة، وانتظرت رأيه، فإذا هو مشدوه مذهول قد استغلق عليه القول فلم يجب بكلمة، وعهدي به أسلسَ سمعا وأبينَ جوابا. صرخت في وجهه فانتفض كأنه يصحو من غفوة، وإذا ملامحه ممتقعة ونظراته شاردة. حرك رأسه مؤيّدا إشعال حرب لا تبقي ولا تذر، ومضى ينفّذ أمري بدكّ الولاية المتمردة، وهو مضطرب يكاد يتعثّر في خطاه.

عندما حضر مرزوق بادرني بالقول، ووجهه يشعّ بنور الظفر، بأن المظنون فيه رجل من أعوان الباش كاتب يدعى ثامر أبا السعد، وجلس حيث كان يجلس عبدو منذ ساعة، وإذا الصورة لا تزال على مكتبي عند مرمى البصر. وعاودني منظر الباش كاتب، وتغيّره المفاجئ، وحالة الشّرود التي اعترته كأنه تلقّى ضربة أفقدته رشده، فهتفت من فوري إلى مرزوق أن يجيئني بالرّجل إلى دار الفناء في

أسرع وقت ممكن، لأحمله على الاعتراف بكل صغيرة وكبيرة، وقد تمثلت أمام عينيّ صورة الضحية المقبلة.

وأوصيته بأن يستعين بمن يشاء، وحذّرته:

- لو يفلت منك، فالخير في أن تختفي من وجه الأرض.

انتظرت ساعة أو تزيد ولم يأتني أحد. لا مرزوق ولا ذلك الوغد الذي كنت أفرك يديّ في انتظاره، وأتصوّر بشاعة ما سوف يلقاه مني. ثم تسارعت الأخبار المتضاربة عن مقتل عثمان حمودة، عن اندلاع القتال في ولاية هبل، عن استيلاء قوّات العدو على مواقع استراتيجية تمركزت فيها وحداتنا، عن استسلام ضبّاط كبار من عساكرنا، عن فرار المكي حسونة، عن الذّعر الذي استبدّ بالناس وهم لا يعرفون إلى أي قِبلة يولّون وجوههم، وفي كل مرة أتلقى خبرا ينقض الآخر وينسخه. وإذاعتنا تتسلى بالمنوعات الخفيفة، وتلفزيوننا يبثّ أشرطة وثائقية عن تناسل السلاحف المعمّرة بجزر الغالاباغوس.

وطال انتظاري فأرجأت مسألة أبي السعد، وطلبت الباش كاتب في قاعة العمليات لأعلم هل آذن بقصف مدن هبل وتجمعاتها فإذا هو غائب. طلبته في بيته فإذا خطوطه كلّها مقفلة. عندئذ تحوّل شكّي إلى يقين، فخرجت على رأس قوة من الحرس، ونقمة سوداء تشتعل بها دمائي وتضج بها أنفاسي.

كان بيته خاليا، لا حركة ولا صوت، كأنه مهجور. حتى الخدم غائبون.

صرخت بصوت تردد صداه في أرجاء البيت الخالي:

- لقد فعلها الخائن! فعلها وفرّ!

ثم صررت على أسناني بحنق وأنا أكوّر قبضتي بعنف وأعتصرها من شدة الحقد والغلّ، وأصرخ بملء صوتي حتى ظنّ بي الحراس الظنون، وهم لا يفهمون أي خائن أعني:

- لن تفلتَ من قبضتي يا ابن اللئيمة!

وإذا بأحد الحراس يهتف بي وفي صوته انزعاج:

- مولاي!

التفتّ صوب الصوت فرأيته يشير بإصبعه إلى داخل غرفة، وهو يكمم فمه بيده. أسرعت ومددت عنقي إلى حيث يشير، وقد استدار يختضّ بنوبات غِثْي مفاجئة، فإذا منظر بشع يرجّ كياني.

جسد يسبح في دمائه كالشاة الذبيحة ممددا بأهدامه على السرير في شكل صليب، رجْل بفردة حذاء والفردة الأخرى مقلوبة تحت قدم مفرجة تنحدر على طرف السرير، وذراعاه مفردتان تسيل من عروقهما دماء غامقة لزجة، بدأت تتخثر في لطخة عريضة دكناء صبغت الزرابيّ وغيّبت ألوانها، ورأسه مائل، وفمه فاغر، وعيناه تحت الحاجبين المنفوشين سامدتان مثل عيني بومة ميتة، ولونه الأصفر الممتقع حال إلى بياض كأنه منضوح بالشمع.

كان ذلك النذل قد سبقني إلى وضع حدّ لحياة كنت أريد انتزاعها منه قطرة قطرة! ارتميت عليه أرجّه بعنف، وأخضخضه في قسوة، أمسكه من ثيابه وأسحبه إليّ بقوة ثم أرميه على السرير، وهو صامت ساكن يسخر في سرّه مني، وأنا أصرخ عاليا حتى تهدّجت

أوداجي، وقد غلى الدم في عروقي وفاض بغليانه منخراي، واستبد بي القهر والعجز، والحراس من حولي يظنون أن ذلك من فرط حزني على صديق العمر.

قال أحدهم معزّيًا:

- هوّن عليك أمرك يا مولاي. كلّ من عليها فانٍ.

فصرخت في وجهه حتى فرّ من الذعر:

- إلا هذا! أريد أن يحيا! لا أريده أن يموت! لا أريده أن يموت!

وقال آخر:

- الأعمار بيد الله يا مولاي.

فالتفتّ نحوه وقد انعقد ما بين حاجبيّ، وزحفتُ عليه بنظرة مرعبة وأنا أصر على أسناني كأني أكسر حبة لوز عنيدة:

- بسرعة!... جئني بكلّ أطباء المدينة! بكل أطباء عربانيا! أريده أن يعيش! ولو تأخروا لحظة فسوف أقتلك بيديّ!

فاضطرب واختلج ومضى في سرعة تشبه الذعر، وبقيت حائرا عاجزا أرتمض من القهر، وأنفاسي متتابعة في لهاث، وطنين يدوّي داخل رأسي ويقرع صدغيّ، وذلك المأبون المأفون يضحك بغير اكتراث في عالم خاصّ به وحده. غادرت الغرفة واتجهت إلى الصالون، واسترخيت أنتظر قدوم الإسعاف.

لم أدر كم مضى من الوقت حين أقبل عدد من أمهر الأطبّاء وأكفأ الممرضين بعدتهم وآلاتهم، وقادهم بعض الحراس إلى غرفة ذلك النتن. كنت قد غفوت برهة لا أدري كم دامت، ولما فتحت

عينيّ، وضبابة إرهاق تحجب عنّي الرؤية، سمعتهم يتهامسون حولي ويسترقون إليّ النظر، وفهمت من الهمس أن الباش كاتب لفظ أنفاسه منذ مدة وألا حيلة لهم في إنقاذه.

هكذا إذن! ابن الزانية اقترف جريمته وأفلت!

وفي لحظة أحسست أن الدنيا انقلبت عليّ وبدأت تريني من وجهها ما أكره. الخيبات تتوالى في نسق رتيب كالسيل إذ يمضي من مدبّ إلى مصبّ، والأصفياء ينفرطون مثل حبات عقدٍ تقطّع، والأعداء يطوّقونني من كل جانب كحراب مسنونة تطارد وحشا في الفلاة، والوحدة تلتف حولي مثل كمّاشة.

وفجأة نهضت كأني مصروع يفيق من غشيته، وأمرت بنقل الميت حالا إلى القصر وقد أضمرت في نفسي أمرا. وما كدت أبلغه حتى وجدت مرزوق في انتظاري. رميته بنظرة ثقيلة فلطّف نظرتي القاسية بابتسام وقال:

- البضاعة وصلت. بعد عناء، ولكن المهم أنها وصلت.
- وأين هو؟ سألت وقد أينع بداخلي شعور جديد.
- حيث أوصيتني أن يكون يا مولاي.
- دار الفناء؟ حسنا. دعه هناك حتى أتفقد قاعة العمليات.

وقبل أن أخطو خطوة استوقفني رنين الهاتف، رفعت السمّاعة فإذا صوت عثمان حمودة. أشرق وجهي بفرح مباغت. خبرُ مقتله كان إشاعة إذن! انتابني شعور غريق ظفر بخشبة في بحر هائج مائج بعد يأس. قلت له في ما يشبه الصراخ:

- أريدك حالاً!

سمعته يعتذر بكلام وخشخشة الأسلاك تكاد تذهب بصوته، ويحاول أن يشرح لي أن الوضع يستوجب بقاءه، فقاطعته بحدة:
- دع عنك كل شيء وتعال!

وجدت القادة العسكريين في ما يشبه الفوضى. الأخبار تتلاحق تباعا والقرارات معطلة والتنسيق معدوم، فبادرت بإصدار أوامر عاجلة إلى قواتنا بالتحرك السريع حيث شبّت أعمال عنف وتخريب، وأرسلت منهم بعض الضباط إلى الجبهة مع تعليمات محددة.

عند وصول حمودة استقبلته كما يُستقبل الناجي من الموت. كان كما هو. لم تزده الأحداث إلا صلابة. أسررت إليه بما استجدّ فأحس من ذلك ضربة غادرة طعنت قلبه وهو يكاد لا يصدّق ما جرى، وفسّر ذلك بأن شعور الباش كاتب بالذلّة انقلب حقدا يأكل القلب، ثم قال: «لقد كان ما كان، فلننظر الآن في ما يكون». حينئذ أطلعته على خبيئة نفسي. كنت أريد أن أمثّل بالباش كاتب تمثيلا لم يشهد التاريخ نظيرا له، وأطرحه في إحدى ساحات المدينة كالثوب المقدّد، ليكون نهبًا للقطط والكلاب والذباب، فإذا به يدعوني إلى الأناة والصبر:
- أعرف يا مولاي أنك لا تنطق لَغوا، ولا تفوّت أمرا عقدت عليه نيتك، ولكن الظرف غير مناسب، فالأعداء سيشمتون ويعتبرون أنّا منقسمون، لا نتفق على رأي ولا نتّحد في غاية، فيُطمعهم ذلك فينا. والرعية سترى أنك تيّاهٌ في قسوتك

وبطشك لا يأتمنُك حتى الأصحاب، وقد تجعل من ذلك الخائن شهيدًا، وقد تؤوّل قتله تأويلا يتلقفه الأعداء ليمعنوا في الإساءة إلينا، والثابت أن الرعية ستزداد تشتّتا واضطرابا، في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى التكاتف والتضافر.

- وما العمل إذن وقلبي ينفت عليه بنقمة لا تفتر؟

- نتركه في غرفة حفظ الموتى حتى نفرغ له، فأمامنا الآن ما هو أحرى بالعناية والسهر.

تركته يتّجه بقدم ثابتة إلى قاعة العمليات، وذهبت عنه صامتا مطرقا، وفي صدري شيء من الحنق وشيء من الحسرة. كنت أريد أن أشفي غليلي من ذلك الكلب الذليل الذي عاش حياته يتمسح على قدميّ ويقتات من فضلاتي، ولما شبع عضّني بأنياب مسعورة.

استلقيت في غرفتي لأنال نصيبا من الراحة وقد اعتراني تعب وإجهاد، وأنا أتمثل ما سوف أفعل بجثته حين تهدأ القلاقل. ثم تذكرت ذلك الذي تواطأ معه في الجريمة، فإذا بي أهتزّ وأختلج كأن بي غلمة، وإذا بي أحوّل نقمتي إليه، وأستعرض في نوبة من التشفّي الساديّ ما أنا فاعل به من غدٍ. ونمت، وقد وطّنت العزم على تقطيع أعضائه حيّا، عضوًا عضوًا، ورميها في أتون اللهب، الواحدة تلو الأخرى، كما فعل الوالي سفيان بن معاوية مع عبد الله بن المقفع.

رأيتُ في ما يرى النائم أني كنت تائها في طريق مجهول وقد صارت البقاع الفِساحُ بيدًا لا نجاةَ فيها لسائر ولا دليل لحائر، وكانت ليلة شاتية، وآواني الظلام إلى خربة استجرت بها اتقاء البرد

والمطر وأشباح الليل وآفاته، فإذا شيخ زاهد قد جلل البياض هيئته، والتهمت لحية كثة مساحة وجهه المثلث، ينبجس من الظلمة كأنما انشقت عنه الأرض أو نزل توّا من السماء . تأملت ملامحه فإذا هو الشيخ عبد الرحيم المنصوري. سألني في ما يشبه الإستنكار: ماذا جئت تفعل؟ قلت: أنشد الغفران. قال: هل جنَيت؟ قلت: مضت بي سبيل لا يُرجى منها إلا عفو الله. قال: هل ظلمت؟ قلت: كنت آخذ البريء بالمذنِب والصحيح بالسقيم والمقيم بالمسافر. قال: هل قتلت؟ قلت: كأبشع ما يكون القتل. قال: وما الذي دفعك إلى ذلك؟ قلت: السلطان . قال: ومن هو؟ قلت: هذا الذي أمامك. حدجني بنظرة قاسية وقال: اذهب عليك اللعنة في الليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى. وما كاد ينهي كلامه حتى غمر الظلماء نور، وطلع عضاريط أشدّاء في ملامحهم سماجة وفي وجوههم ندوب وفي نظراتهم شرّ مقيم. صاح أغلظهم وأقساهم إذ رآني: ها هو ذا الدجّال الذي أعيانا البحث عنه! وأمر فقادوني مكبّلا بالأغلال إلى مدينة ذات أسوار عالية وأبراج مشيّدة، ثم دفعوني إلى إيوان عظيم يقتعد عرشه رجل غريب يستر وجهه بقناع، وبجانبه امرأة مقنّعة هي أيضا. نظرت فإذا الإيوان إيواني والعرش عرشي. سألني الرجل: من أنت؟ قلت واثقا: كيف لا تعرفني؟ أنا سيّد عربانيا، وهذا العرش الذي تجلس عليه عرشي. أطلق الرجل من خلف قناعه ضحكة حانقة وقال: وما دليلك؟ بقيت صامتا أدير بصري في القوم لحظة، فلم ألمح من يعرفني أو أعرفه، وفجأة رأيت المرأة تزيل قناعها، فإذا هي الغالية زوجتي وقد بدت هيفاء رشيقة لا أثر في وجهها الصّافي لشحم ولا غضون. صرخت:

هذه المرأة تشهد بصدق كلامي! إنها زوجتي. وإذا بها ترميني بنظرة شزراء قاسحة، أعقبتها بضحكة طويلة ساخرة وقالت: قطع الله لسانك! كيف تزعم أني حليلتك وزوجي موجود؟ وأشارت بيدها الغضّة الطريّة ذات المعصم اللدن المرصّع بالخواتم والأساور إلى الرجل المقنّع، فإذا هو يقوم قومة عنيفة ويُقبل نحوي ويخلع في حركة عصبية قناعه، وإذا وجهه حين قارب وجهي مألوف، وإذا بي أصرخ حين عرفته: العرباوي! كيف عدتَ إلى الحياة وقد قتلتك بيديّ؟ قهقه عاليا في حنق وغلّ وقال: لقد شُبّه لك، فما قتلتَ إذ قتلتَ سوى الشبيه، وها قد عدتُ لأنتزع منك كل شيء. قلت: خذ ما تشاء إلا العرش. قال: ألستَ من هواة مَن تسمّيه الشيخ زْبيرْ؟ قلت: بلى. قال: ألم يقل على لسان ريتشارد الثالث: عرشي مقابل جَواد؟ أنا أهبك لقاء العرش حياتَك. قلت والمرارة تملأ حلقي وتنشّف ريقي: وماذا أفعل بالحياة من دون عرش؟ ما قيمة القصر إن لم أكن مالكَه، وما قيمة المدينة إن لم أكن حاكمَها، وما قيمة عربانيا إن لم أكن سيّدَها، وما قيمة الرعية إن لم أكن أنا فيها الآمرَ الناهي؟ قال: لقد خيّرتُك فاخترت، ولم يبق لك إلا أن تتهيّأ لانتقامي. سألت: لماذا؟ قال: لتحسّ بما أحسّ به ضحاياك. وألقى بي رجالُه في زنزانة مظلمة. انتحَيتُ ركنًا أرقب مصيري فإذا صوت خلفي يناديني: مولاي الكبير! ملت نحو الصوت وأنا أحِدّ في العتمة بصري فإذا بالصوت يقول في ما يشبه الهمس: ألا تذكرني يا مولاي؟ صرخت: عبدو! ولكنّي رأيتُك بعينيّ ذبيحا تتخبط في دمائك كأضحية العيد! قال: كلاّ! لقد تَماوتّ حتى أعلم ما يحيكُه الأعداء ضدّك. قلت: ولكنك واحدٌ منهم! قال: كيف

صدّقتَ ذلك يا مولاي، وأنت تعرف أنهم مشوا بيننا بالكذب ليفرّقوا شملنا ويكدّروا صفاءنا؟ قلت: ويلك يا مداهن! ألستَ مَنْ فرّق بيني وبينَ من أحبّ؟ قال: إنما واشٍ وشى عندك ببهتان، فإذا اطّلعتَ على براءتي لن تستحلّ مضرّتي. قلت: ألستَ السّبب في هجر ابني وموت حبيبتي؟ قال: بل هو العرباوي الفرطاس. قلت: ألم يمتْ؟ قال: كلاّ! كلُّ ما رأيتَه محضُ أوهام. مقتل العرباوي وَهْم، وانتحار أميرة وهْم، وفرار ابنِك وهْم. وهُم جميعا هنا في هذا القصر. سألت: حتى أميرة؟ أجاب: نعم. وإذا السجّانُ ينهرنا في غلظة ويدعونا إلى السّكوت، ثم أطل من الكوّة فإذا هو ولدي وقد تغيرت سحنته وتصلّبت ملامحه. صرخت في وجهه: ماذا تفعل هنا؟ قال: كما ترى. اشتعل قلبي غيظا وقلت: كيف ترضى أن تكون سجّانا وأنتَ أمير ابن أمير؟ فإذا به ينشدني شعرا، وهو الذي لم يحفظ في حياته أنشودة من أناشيد رياض الأطفال:

ولا عـنْ رضًى كانَ الحـمارُ مطِيّتـي
ولكنَّ مَنْ يمشي سيَرضى بما ركِبْ[1]

وقال لي: الفرطاس احتجز أميرة رهينة، وصار يشترط عليّ شروطا مذِلّة لفكّ سراحها، ولما وقعتَ في الأسر طلب مني أن أتولّى قتلك بيديّ. قلت: وهل تقبل؟ قال: من أجل أميرة يهونُ كلّ شيء. وابتعد وتركني بين أنّةِ حسرة وآهةِ حقد، فالتفتّ إلى الباش كاتب وقلت له: ما رأيُك في ما سمعت؟ قال: ألم يأتِك حديث العوامّ؟

---

(1) البيت ينسبه الراغب الأصفهاني في «محاضرات الأدباء» لجحظة البرمكي.

قلت: ما هو؟ قال: الوسّادة تغلب الولاّدة. قلت: ليتك خلصتني من هذا العاقّ. قال: أفعلُ إن أمرت. قلت: كيف وأنت مثلي حبيس هذه الجدران الصلبة الباردة؟ قال: أنسيتَ يا مولاي أني داهية أنتزع الحبّة من حواصل الطيور الكواسر؟ وضعت ذقني على يدي، وجعلت أنظر إليه وهو في شغل عنّي بما هو فيه من إطراق وتدبير. وبينما نحن كذلك إذ أقبلت الغالية. أطلت من كوّة الزنزانة وضوء الدهليز يتلاعب على وجهها الخمريّ المدوّر، وأرسلت ضحكة ساخرة وقالت: أراك لا تنام، فهل صحيح أنّ ليل الجبان طويل؟ قلت: لو تقعين في قبضتي أيتها الخائنة! فضحكت وقالت: مَنْ منّا الخائن وأنتَ لا تقطع ليلك إلا على مجلس للخمر والنّساء؟ قلت: لو بقيَ فيكِ ما يغري لما ملتُ إلى أحضانهنّ. قالت: بل قل إنك كنت تكثر من معاشرتهنّ لتوهم نفسَك والناس بأن الأعوام لم تفقدك قوّتك. ألم ترَ أنك صرت ناشفا ذابلا كالقديد. فقلت: لا تفرحي فحبل الخيانة قصير، وسوف أشتفي بالثأر منك...

فإن تَضْحَكي مِنّي فيا طولَ ليلةٍ
تركتُكِ فيها كالقِباءِ المُفَرَّجِ[1]

وأحسّت من ذلك طعنًا وإهانة فحملقت فيّ بعيون واسعة تشعّ بشرر النار وقالت: سنرى ما قيمتك حين تبقى وحدك بلا سند ولا رفيق. ثم نادت الباش كاتب وقالت تغريه: عبدو! سأجعل العرباوي يطلق سراحك ويعفو عنك لو وافقت على قتل هذا الرجل. ندّت عني

(1) بيت ينسبه عبد القادر البغدادي في «خزانة الأدب» لسُحيم وهو عبد لبني الحسحاس، فيما ينسبه الأبشيهي في المستطرف للحجّاج بن يوسف.

ضحكة تردّدت في أرجاء الدهليز حتى هزّت جوانبه وقلت: إن خان السفلة فعبدو لن يخون، لقد أخطأتِ المرمى. وإذا بالباش كاتب يهبّ نحوها في سرعة أشبه بالمذلة ويقول: حبًّا وكرامةً يا مولاتي! تولاّني فجأة غضب جارف وأطبقتُ على عنقه بيديّ، فصاحت الغالية في استغاثة عالية فزعة، وإذا العضاريط يقتحمون الزنزانة ويجرّونني إلى العرباوي وهو مقتعد عرشي وحوله عسس وحرس، وإذا هو يروزني بوجه أصفر يقطر السمّ، ويعرض على من يقتلني هبةً كبيرة، وإذا ابني في مقدمة المتطوعين، وبجانبه الباش كاتب وعثمان حمودة والغالية وصالح الإمام وآخرون ما عدت أذكرهم يتنافسون في قتلي، يستلّون رشاشاتٍ يصوّبونها نحو صدري ويطلقون عليّ نيرانا غزيرة، صرخت على إثرها صرخة طويلة مرعبة، وأنا أنظر إلى جسدي يسيل بأشخاب من الدم.

انتبهت في جوف الليل مرتاعا على أصداء دويّ وانفجارات غير بعيدة وصفارات إنذار، تلاها أزيز يملأ الأسماع بطنين نفّاذ، ثم قذائف المدافع المضادة للطائرات ورشقات مدافع رشاشة، ثم انهمرت الصواريخ من كل جانب في صفير حاد يعقبه انفجار يُصمّ الآذان، وإذا الليل يخفق بأضواء متلألئة مصحوبة بانفجارات صاخبة كأنها صواعق وبروق ورعود في ليلة صرد، وإذا سماء المدينة، حين أطللت من النافذة، مضاءة بنجوم خلّب كأنها شماريخ أحالت الليل نهارا، وبدت سطوح المنازل عن بعد مدكوكة منهارة. وتعالت روائح الحرائق والدخان وأصداء انهيار المباني في قرقعة مدوّية، ثم غاصت المدينة فجأة في الظلام، وران صمت لم ينشب أن مزقته صفارات

الإسعاف التي ارتفع زعيقها في أنحاء كثيرة، لا يكاد أحدها يهدأ حتى ينتأ آخر، كأنها أصوات تتنادى في الظلام.

سعيت إلى قاعة العمليات بخطى أردتها حثيثة قدر جهدي، فتناهى إلى سمعي في قاعة مجاورة مغلقة صوت يقول:
- ما كان له أن يسارع إلى حرب لم يكن مستعدًا لها.

وصوت ثانٍ يؤيده:
- ستكشف الحرب سرّ العزّ الزائف الذي أسبله علينا.

دفعت الباب بركلة من رجلي، فإذا أربعة ضباط شبّان يتجادلون في سعة من أمرهم والبلاد تشهد غزوة شرسة. عندما رأوني وقفوا في وضع استعداد. صحت في أحدهم:
- مسدّسك!

ازدرد ريقه بصعوبة وقد اتّسعت عيناه خوفا وارتسم على وجهه الرعب، وسحب المسدس من غمده وناولني إياه بيد مرتجفة. غمغم ما بين أسنانه بكلام لم يغادر حلقه وهو يشير بإصبع يكاد لا يثبتها نحو زميليه يشي بهما، فأطلقت عليهم النار جميعا دون تمييز. لا وقت لديّ لأعرف المتخاذل من المجدّ، وتركت القاعة تفوح برائحة الموت.

في قاعة العمليات كان عثمان حمودة مثل رجل مطافئ تطوّقه النار من كل جانب، يصدر الأوامر تباعا، ويعيد ترتيب الأوراق، ويسد الثّغَر، وقد بدا عليه الإرهاق وقلة النوم، والضباط من حوله يسندونه، ويبلغون تعليماته إلى شتى الفرق المرابطة على الجبهة، وينقلون إليه مختلف الأوضاع التي تشهدها الساحة.

عندما رآني هزّ رأسه يطمئنني، وقال ما بين أمرين، وعلى ملامحه القاسية جدّ صارم:

- الوضع حرج، ولكننا سنسيطر عليه.

وأراني على الخرائط المضاءة المثبتة أمامه تكتّلات العدوّ المنتشرة هنا وهناك عند الحدود، وتحرّكات جيوشنا لمواجهتها وتطويقها أو دحرها. ولم يخف عنّي، وهو يسحبني إلى مكان معزول لا يسمعنا فيه الضباط، أن ما يشغله ليس العدو، بل ما يحدث في ولاياتنا الحدودية التي بدأت تعلن العصيان، إما خوفا أو طمعا. أما العدوّ فقواته، مهما كانت جرّارة، لا يمكن أن تقتحم أراضينا دون خسائر فادحة، وهو ما يدركه المعتدون ويحسبون له ألف حساب، وليس أمامهم إلا القصف من بعيد، والقصف لا يخيف، أيّا ما تكنْ قوته.

قلت: «ولكنه مدمّر!».

- نحن في مأمن من صواريخه يا مولاي، ولن يصيبَ، وإن أمعن في القصف، إلا البيوت والناس العزّل. وسوف نعرف كيف نستغل آثار عدوانه لإبراز وحشيته أمام تلفزيونات العالم.
- وكيف السبيل لإعادة المتمردين إلى جادّة الصواب؟
- نرمي بكل ثقلنا في المعركة لسحق قوات العدوّ. وعندما يرى المتمردون أننا حققنا نصرا ساحقا ماحقا، سيعيدون عندئذ حساباتهم. ولن يكون أمامهم من خيار سوى الاستسلام أو الموت.

وافقته بغير تروّ وكنت أحسب ألا أحد يسدّ مسدّه، وما أسرع

ما اكتشفت أني أسلست القيادة لمن لا يحسن حرّ الجلاد، رغم حرصه وجدّه، وأن استئثاري بالزعامة لم يدع لغيري مجالا إلى جواري، فعربانيا كلّها رعيّة لي تسير ورائي حيثما سرت، وتتجه معي حيثما اتجهت، وليس في أرجائها من استطاع أن يرفع رأسه لينازعني القيادة، دون أن أنزع منه كل مطمع فيها، فلمّا اندلعت الحرب، لم أجد من هو أهل لقيادة الجيوش نحو الوجهة التي يكتب لنا فيها النصر، أو حتى صدّ العدى. كما اكتشفت أننا متأخرون عن الغرب بحرب على الأقل، بيننا وبينه بَوْنٌ شاسع، فقد اكتسح قواتنا بطائرات نفاثة وقنابل مزوّدة باليورانيوم المستنفد، وشتّت جمعها ومزّق صفوفها شرّ ممزق، واستطاعت صواريخه الموجهة من مسافات قصيّة أن تقتحم المخابئ المحصنة والملاجئ المدعمة، وتنفذ عبر ألواح خرسانية سميكة إلى أعماقٍ ما كان أحد يتوقع أن يدركها سلاح، وتهاوت على رؤوسنا القذائف وتعالى الصراخ والأنين.

وفي وقت وجيز، كانت الجسور والمباني والمساجد والمشافي والحدائق والساحات والطرقات والأنصاب كأنما دكّها زلزال عنيف، وإذا المدن، عندما هدأ القصف، مثل مغازة خزفية عثت فيها الفيَلة، وإذا السّماء مربدة يجللها السّواد وتطعنها ألسنة الدخان المتصاعدة في شكل دوائر كثيفة، لها رائحة تسدّ الأنفاس وتثير المعاطس، وإذا الرعب يملأ صدور الناس ويفيض على وجوههم الكاسفة، وهم يحملون بعض متاع ويفرّون مشاة أو راكبين نحو وجهة لا يدركها الوعي ولا يتبيّنها البصر.

كنت أرى كل ذلك، ورجال الإسعاف يحاولون إنقاذ الناجين من

الموت وسحبهم من تحت أنقاض صارت لبعضهم أشبه باللحود، وأنا واقف في شرفة القصر أستكشف آثار العدوان عبر منظار، والقلب جشيم بألم مرّ وحنق طاغ، أمدّ عنقي إلى السماء وأرفع نحوها قبضتي في غيظ شديد، وعجز مكين يثور بأنفاسي.

ماذا يمكن أن نفعل لو عاد العدو إلى قصفه، ومضادّاتنا رغم سيول النيران التي أطلقتها أشبه بمذبّة تذبّ بعوضا عنيدا لا يعتم أن يعود بأكثر شراسة وأمعن أذى. كانت في مواجهة عتاده مثل آنية طين تحاول الِإعتراض لآنية حديد. امتلأت نفسي مرارة وأنا أرى تلك الأسلحة التي كدّسناها وبذلنا في اقتنائها أموالا لا تحصى قد غدت في رمشة عين كأعجاز نخل خاوية، عاجزة عن أن تذود حتى عن نفسها، وإذا بي أكتشف أنها مثل لعب أطفال لا تصلح إلا للزينة والتباهي، وكنت أحسب أنها مثار فخرنا يوم تجمح الحرب وتكشّر عن أنيابها وتشمّر عن ساقها لنلقم بها الأعداء هوان الذلّ والهزيمة. أكثر من ذلك كيف نواجه العدو ونحن شيعٌ، كلمتنا مصدوعة ورأينا متفرق، والبلاد ينفرط عقدها، والرعية تقعد عن الذود عن الحمى، ثم صارت تنصر من ظلم، وتؤازر من اعتدى، والولايات تنفصل عن عربانيا كما تنفصل الأعضاء عن الجسد المتحلل. شيء وحيد كان مبعث ارتياحي بعد أن اجتاحنا العدوان من كل جانب، وهو أن القصر لم يمسّ بسوء. لكأن تميمة سحرية كانت تمنع عنه الأذى، وتحجبه عن النيران الحامية. نقّلت طرفي في أرجائه فإذا هو وسط الخرائب والحرائق والدخان مثل جزيرة مهملة في عرض بحر طامٍ، وحضرتني في نوبة من الحنين الشفيف أيام العزّ التي

شهدها، وأساطين السياسة الذين استضافهم، والأسرار التي لا يزال يحفظها.

وفي غمرة التذكر والحنين راودتني صورة أميرة وساعات الاختلاء الجميل في ذلك المجلس العبق، ثم خطرت ببالي جثة الباش كاتب المحفوظة في سرداب، وانتابتني رغبة في إخراجه ونشره كما ينشر الغسيل القذر، أو رميه على قارعة الطريق مثل كيس زبالة مهمل، ثم قفزت إلى ذهني صورة ذلك الوغد الحقير أبي السعد، القابع في مكان مظلم ينتظر القضاء المبرم. تخيلته رافعا عينين جزعتين ويدين ضارعتين يدعو الله أن يعجّل بموته حتى يسلم من عذاب محتوم. آهِ لو يعلم ذلك الحقير ماذا ينتظره! سأصبّ عليه كلّ نقمتي. سوف أقتص منه قصاصا ما سمع الناس بمثله، وأجعله يدفع نصيبه ونصيب جلوازه اللئيم. لا! بل سوف أستخلص منه كل الآلام التي حاقت بي وجعلت لياليّ محض سهاد كدير.

هبّ هواء ملوّث بروائح خانقة يطوي في تضاعيفه نيةً مضمرة، وعلا فجأة زعيق صفّارات الإنذار يخرق سماء المدينة المصطبغة بألوان الدخان والأتربة، فلجأت مسرعا إلى ردهات القصر، واتجهت إلى قاعة العمليات لأرقب عن كثب ما يُعَدّ لنا، وأحاول أن أتدارك عجز أولئك الأغرار، فإذا صفير طويل ثاقب يعقبه انفجار رهيب ودويّ مزلزل، ثم انهمرت الرجوم على القصر، ولم أشعر إلا وشيء صلب مثل حائط منهار يقع على رأسي، غصت إثره في ظلام مطبق، جعل يلفني ويتكدس عليّ.

عندما أفقت من غشيتي، ألفيت نفسي تحت جزء من سارية محطمة، وحولي كوم من حجارة ونثار حصى وزجاج مهشم، وقد تصلبت مفاصلي وتيبست أطرافي وتجمّد الدم في عروقي. جهدت بما أبقت لي الصدمة من قوة، وسللت نصفي الأسفل، وأوجاع كأسياخ النار تمزّق أوصالي، ثم استندت إلى جدار مائل وقوّمت جذعي ونهضت. دار بي رأسي واعتراني رنَح، وأنا أتزحزح خطوة خطوة محاذرا أن تقع عليّ كتلة صمّاء ترديني بلا رحمة وليس لي من مغيث.

كان القصر يرسل زفير الدمار الموجع والمصاب الفاجع وقد تحوّل في ما يشبه لمعة برق إلى أنقاض. ألواح إسمنتية منهارة، عوارض فولاذية تخرق الجدران، مواسير تنفث المياه كالنوافير، أثاث محترق لم يبق منه غير كتل صغيرة في سواد الفحم، روائح حرائق مطفأة وغازات مستشرية، ثريات مكسرة توشك على السقوط، جدران مائلة أو منكفئة على البلاطة، سقوف مبقورة تخرقها حزم من ضوء النهار، أروقة مكتظة بالأتربة والحجارة والجثث، حرّاس وخدم وعساكر مشوّهو الخلقة ممزقون كالأشلاء المُخَذّعة...

تلمّست رأسي فإذا خيط رفيع من دم جاف قد تخثر على جرح ينحدر من أمّ رأسي حتى جبيني. لم أدر كم دامت غشيتي. تأمّلت ساعتي فإذا زجاجها مشروخ وعقاربها جامدة. بدا المكان كئيبا ينضح برائحة الكارثة، خاليا لا أثر فيه لنَسَمة، مخيفا تنذر أرجاؤه بالتداعي في أية لحظة. تقدمت بخطى وئيدة حذرة وناديت فلم أظفر بجواب. رفعت صوتي وأنا على يقين من أنّ الإسعاف قادم لا محالة، بشكل أو

بآخر، فلم أسمع غير صوتي يرتدّ نحوي خاويا مرتعبا، كأنما تردّد في مكان قفر.

اعتراني ذهول وحيرة، وأنا لا أصدق أن المدينة كلها خلت مِمّن يجدّ في البحث عني، أنا، سَريّ القوم وسيّد البلاد، أتردّى إلى هذا الدرك دون أن يسأل عني أو يغيثني أحد! أفبعد العزّ ذلّ وويل؟

وقفت تحت ثغرة في أعلى السقف ينفذ منها ضوء نهار هارب، وصرخت حتى بحّ صوتي ولا من مجيب. خفق قلبي روعا وألَمّ بي قلق شديد، ثم تساءلت هل كان في المدينة ناجٍ غيري، وباغتني في الحين أمر كأنه شرر منبعث من لهيب، فتحسّست عبر الرّدم طريقا إلى دار الفناء لعلّي أظفر بذلك الشقيّ أبي السعد، لأنقع غلّتي وأرتوي من دمائه، وفي صدري عزيمة القصاص وطلب الثأر، فإذا الأمر قد تفلّت من يديّ، وإذا السرداب رميمٌ ليس فيه منفذ لطالب نجاة.

لم أستطع كبت غضبة ثائرة نتأت من بين الضلوع وتمرّغَتْ على أكوام الحجارة والحصى، وقد امتلأ قلبي غيظا وحسرة، واسودّت الدنيا في عينيّ، وأيقنت بالانهزام.

في تلك اللحظة، لم أكن أعرف أني فقدت كل شيء. قلت في نفسي إن هي إلا ساعة أو دونها وألقى رجالي وأعضادي فألُمّ الشمل وأجمع الشتات، وكان قد غلب عليّ الغيظ وأجهدني التفكير، فبحثت عن ثلمة نفذت منها وغادرت المكان.

احتوشتني المخاوف والظنون وأنا أبتعد عن قصري المدكوك بخطى متعثرة، دون حرس ولا حماية على غير عهدي بنفسي، وأتوغّل

في طرق ذات حفر كفوهات البراكين، مكتظة بركام من سيارات محترقة أو مقلوبة أو متشظية، وحولي مشاهد تعض القلب بأنياب سامّة. منازل مهدمة ومعالم محطمة، لافتات ترفع بقايا صوري الضخمة مخرومة مخرّبَة بالرصاص، مبانٍ مدخّنة لم تخبُ حرائقها بعد، وقد بدت في عتمة المساء كأنها نار قِرى. ولا حسّ ولا نأمة.

كنت مرتاعا موزّع النفس في رمم ليس فيها سائر يسير ولا طائر يطير، أبحث عن أثر للحياة في أيّ رجًا من أرجائها الخالية، لعلّي أرى من يخبرني أين اختفت رعيتي بغتة، أو أسمع صوت نشيج أو نحيب أو عديد. وأمدّ بصري بعيدا لعلي ألمح طيفا مقبلا يبل غلتي الصادية، وأردّه خاسئا خاويا إلا من ترجرج ألسنة النار خلف مناعف المباني المقوضة.

زال عني اضطراب الغضب وناب عنه اضطراب الخطوات، واكتسيت بدل العزّ ذلاًّ ألعن من الموت، وقد غدوت في طرفة عين رجلا عاديّا عاجزا عن الأمر والنهي.

وما زلت أمشي حتى أدركني الليل، وآواني إلى خربة خارج العمران، فعاودني ما رأيته في المنام، والتفتّ خلفي مرتابا مما قد يتفتّق عنه الظلام.

باب الرّعيّة

لا تظنّــنَ أن ذلك النّهرَ تحت
الجسر نائم.

شولوخوف

كنا قبله نعيش على هامش الحياة، فلما جاء ألغى الهامش وعفّن الحياة، وفي لحظة رعناء طائشة ألغاها، فإذا البلاد ركام أنقاض لا تنفع معها مرمّة.

عسكريّ وصل إلى السّلطة بانقلاب، فانطبع مفهوم الحكم عنده بالدسائس والمؤامرات لتصفية حسابات سابقة أو لاحقة. وكان قد انقلب ذات ليل بهيم على سلفه الذي جاء به إلى رئاسة الأركان، بتهمة الطغيان والارتشاء وغياب الديمقراطية وتزوير الانتخابات، فأعدمه شنقا في الساحة البيضاء ليدشّن عهدا من سلطة دموية، ووعد بانتخابات حرّة ثم نسي الوعد في درج مقفل. ولما أفرج عنه بعد سلسلة من قمع واعتقال، وقتل ونفي وتشريد، اكتشف الناس أنّ الحرية في ذهنه هي أن يختار المواطن بين أن يصوِّت للمرشّح الوحيد، أو يؤتى بمن يصوِّت عوضا عنه، وأنّ الديمقراطية عنده تنافس منظم لإيداع 99 % من الأصوات، على الأقلّ، في صناديق الاقتراع.

كان يكاد لا يُرى إلا في زيّه العسكريّ، حتى يدرك الناس، وهم يتملّون بزّته العسكرية الأنيقة، أنّ القدر اصطفى لهم قائدا من طينة لا يجود بها الزمان إلا مرّة في ألف عام. وهم، على جهلهم بالسياسة، يعرفون أنّ النياشين والأوسمة التي ترصّع صدره لم يكسبها من

معركة في ساحة الوغى ضد عدوّ خارجيّ، فمعاركه كلها داخلية، وميدانها السياسة، كما يفهمها هو، والسياسة في رأيه سلسلة متعاقبة من مناورات بالذخيرة الحيّة، لإسكات المعارضة ومنع أي مظاهرة إذا لم تكن مسيرة تأييد أو تنديد، وإخماد أيّ صوت ولو كان احتجاجا على غلاء الخبز، وإذا الشّعب في ظلّه رعيّة واجبها الأول والأخير أن تأتمر بأمره، وتهتف بحياته، وتصفّق له طويلا، وتعبّر عن أهبتها للموت من أجله، تفديه بالرّوح والدّم، وتفزع لنصرته ظالما، ومثله لا يكون مظلوما، أبدا، وتقف ذليلة في طابور طويل لتؤدّي بيعة الولاء والطاعة.

ووجد من المنافقين من زيّن له ذلك، فجرت به الألسن في وسائل الإعلام وفي المنتديات والمساجد. وفي خطبة الجمعة كان المفتي لا يني يذكّر الناس بأنّ طاعة السّلطان من قواعد الشريعة المطهّرة، وأنها فرض واجب على الرعية، تؤلّف شمل الدّين وتنظم أمور المؤمنين، بها تقام الحدود وتؤدّى الفروض وتُحقَن الدّماء وتؤمّن السبل، وأنها هُدًى لمن استضاء بنورها، وأنّ الخارج عنها منقطع العصمة بريء من الذمّة، فالخروج منها خروج من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، وأنّ عصيان السّلطان يهدم أركان الملّة، فمن غشّ السلطان ضلّ وزلّ، ومن أخلص له المحبّة والنّصح حلّ من الدّين والدنيا في أرفع محلّ. فإذا الإذعان لظلمه، والسّكوت عن جرمه، والرضى بعسفه وبطشه في رأيهم تمسّكٌ بحبل الله المتين.

عسكريّ لا يفقه من أمور العسكر غير القنص، كأنّ طريقه إلى الخلود لا تنبسط إلا إذا كانت معمّدة بدماء ضحاياه، ولا يرى

في الحريّة غير ضرب من الأفكار الغريبة المستوردة، ولا يفهم من الحكم أكثر من طاعة الشعب لأولي الأمر، وأولو الأمر عنده لا يتعدّون شخصه الكريم. يطلب الولاء والطاعة من كلّ نَفْس، حتى من الأمشاج في الأصلاب والنّطَف في الأرحام، فمثله لا يمكن أن يكون حاكما كسائر الحكّام ولا إنسانا كسائر البشر، ولا أن يكون قد خلق من نطفة، أو حملته أمّه تسعة أشهر، أو أطلق صرخة عند سقوط رأسه، أو حَبا على أربع مثل الأطفال.

كبير هو، كذلك يُلقَّب ولم يُعرف له اسم غير ذاك، كأنّ مثله لا يحسن به أن يتساوى مع البشر حتى في الاسم. ومن مآثر الكبار أنّ القدر خصّهم بخوارق ومعجزات صحبت مولدهم منذ النشأة الأولى، فتيمور لنك ولد ويداه مخضّبتان بالدماء، فكان سفّاكا سفّاحا، والحجّاج لم يقبل ثدي أمّه إلا بعد أن لطّخوه بدم جَدْي أسود، وطلوا به وجهه، فكان يفاخر بأن أكبر لذّاته سفك الدماء. كذلك كان الكبير، ولا أدري ما الذي ألقمته أمّه ليصبح بعبعا لا يبلغ أعتى الطغاة عُشُره، فلو جاءت كلّ أمّة بخبيثها وفاسقها وطاغيتها وجئنا بالكبير وحده لزدنا عليهم.

كالشيطان كان في كل مكان، لا يخلو من حضوره موضع. بصوته تفتتح الإذاعة بثها، وبصورته التي تظهر على الشاشة مثل كائن سماوي يخترق الغيوم قادما من كوكب غريب يستهل التلفزيون برامجه، ولا حديث بعدئذ إلا عن القائد وتوجيهاته، ودروسه وإصلاحاته، وعبقريته وإنجازاته، والمذيعون والمذيعات لا يفتؤون يخلعون عليه اللقبَ تلو اللقب حتى فاقت ألقابه أسماء الله الحسنى.

كانت البرامج في عهده تُقطع فجأة، في أيّ ساعة من ساعات اليوم، ليصدّع الأسماع بكلام ممجوج عن أعداء الأمة، وله في كل موسم عدوّ، كأنما يسرّي بهم عن نفسه، فيسلقهم، في خطب نارية مسهبة، بألسنة حِداد، وقبضته مكوّرة مرفوعة، يوجهها في تحدّ صارخ إلى أعداء نسمع عنهم ولا نراهم، ورشاش ريقه يكاد ينفذ عبر الشاشة، وفي ظنه أنّ «الرعية»، كما يقول، ستبلع الطعم وتنكفئ على نفسها خوفا، أو تستصرخه كي يحميها من الخطر الداهم، وهو لا يعلم أن أهالي عربانيا ينسجون حوله وحول أتباعه ممن يأكلون الشعب لحما ويرمونه عظاما، نكتا تسير بها الركبان.

نوادر لا يعرف أحد كيف تنشأ، ولا من يبدعها، ولا أيّ وقت يشهد مخاضها، قبل أن تنداح في جوف المدينة، وفي منعرجاتها وأرباضها، يتناقلها الناس همسا ويتداولونها سرّا كالبضاعة المحرمة.

وكان الناس إذا ما التقَوا في الأسمار وسلّموا واستأنسوا ألاّ خوف عليهم من جرائر القول، قام من بينهم من يقول:

- هل أتاكم حديث الكبير؟

فتتعلّق بفمه الوجوه، وقد استضاءت فجأة بأحداق متّسعة، وتهيأت للحظة انفراج ما عادت تلقاها في يومها. يواصل المتحدّث وقد استنفر الأسماع وشدّ الانتباه:

- في مجلس وزاري هاج الكبير وماج، وقال: لا بدّ أن نتحدّى الغرب. فقال له وزراؤه إنّ الغرب ليس كتلة واحدة كي نتحدّاها مجتمعة، فقال: رأسهم إذن. فقالوا له: الأمريكان. فسألهم: وماذا فعل الأمريكان؟ قالوا: نزلوا على سطح القمر.

قال: سنتحدّاهم وننزل على سطح الشّمس. قالوا له: ولكنّ الشّمس حامية جدًا يا مولانا! فأجاب: بسيطة. نذهب إليها حين يهبط الليل.

ولما انطلقت حملة الانتخابات المزعومة، وأطنبت وسائل الإعلام في الحديث عن الديمقراطية، كان الناس كلما اجتمعوا في زواياهم المغلقة، نهض من بينهم من يسأل:

- هل سمعتُم آخر نكتة؟

وما إن يردوا بالنفي حتى يقول:

- وقف الكبير وزعيم الهند وزعيم أمريكا أمام الربّ يسألونه. قال زعيم الهند: متى يهجر الفقر بلادي؟ قال الربّ: ليس في عهدك. قال زعيم أمريكا: متى يختار الأمريكان رئيسا أسود؟ قال الربّ: ليس في عهدك. سأله الكبير: متى تصبح عربانيا ديمقراطية؟ فبكى الربّ ثم قال: ليس في عهدي.

وكان لي صديق يدعى عبدون، فُصل عن التدريس لأنه لم يكن طيّعًا بما فيه الكفاية في نظر المؤسسة التربوية، التي تحولت بقدرة قادر إلى خلية من الخلايا الحزبية، تفرض على كل المدرّسين الولاء للكبير علنًا، والتنديد بالمارقين جهرًا، والانخراط في الحزب الحاكم وجوبا، والإِنضمام إلى مسيرات التأييد والتنديد قسرا. وكان لامتناعه عن استخدام المعهد لغير ما جعل له ما أوغر صدر المدير، فتعقّبه بالتقارير والوشاية حتى فُصل.

حدثني مرة عن مسابقة وطنية في مادة الإنشاء شملت مدارس

عربانيا كافة، كان موضوعها عن سهرة عائلية، وفحوى الحديث الذي يدور بين أفراد العائلة وقت السمر، وكيف اقتيد خلق كثير إلى السجن والتعذيب بعد أن وشى بهم أطفالهم عن غير قصد، إلى أن صار الناس لا يسرّون بآرائهم حتى إلى أزواجهم وبنيهم.

لم يقف الأمر عند فصله، بل أمعنوا في إهانته وإذلاله، ثم طعنه في شرفه، يوم ألقي القبض على أخته، ورفعت إلى الكبير هبة مثل القطوف الدانية، فاغتصبها وجعلها من جواري القصر. وأحسّ عبدون من ذلك طعنة دنيئة، فلزم بيته أياما، واعتزل أصدقاءه ومجلسهم، ثم قرّ منه العزم على الثأر لشرفه والانتقام للظلم الذي حاق به، فأقسم أن يكون البعوض الذي يدمي مقلة الأسد، ولا يدعه يرتاح لحظة، ولم يكن له من سلاح سوى القرطاس والقلم، ثم استعاض عنهما بقطعة فحم يشهرها في جنح الظلام.

بدأ يكتب أشعارا هجائية تكاد لا تغادر مجلسنا الضيّق في حيّنا البائس بأطراف المدينة، وكنّا لا نجتمع تحت سقف بيتي إلا خلسة في ظلمة الليل، في أمن من الأنظار، بعد أن بات تجمّع أكثر من شخصين محظورا حظرا لا يشفع لمن خالفه شفيع، وكنّا ننقلها مشافهة حين نستوثق من السامع، حتى أنشدَنا عبدون مرة:

فإن سمِعْتَ بهُلْكِ للكبيرِ فقُلْ
بُعْدًا وسحْقًا لهُ مِنْ هالِكٍ مُودِي

تُراثُهُ جنّةٌ للوارثينَ، إذا
أودَى، وجثمانُهُ للتّرْبِ والدّودِ[1]

(1) البيتان وردا في كتاب البخلاء للجاحظ، وقد استبدلنا الكبير بالبخيل.

فلمّا استحسنّا كالعادة قوله، أطرق قليلا ثم قال إنّ بقاء ما يكتبه رهين غرفة بائسة في حيّ خامل بأذيال المدينة، لا يمكن أن يحقّق له ما يرجوه، وإنه ينبغي أن يهتدي إلى طريقة تعلي في سماء البلاد صوته، وتجعله صراخا متّصلا يقضّ مضجع الكبير. ولما أفاق الناس على كتابات بالفحم تسخر من الكبير، وتهجوه هجاء لاذعا أقام عربانيا ولم يقعدها، علمنا، ونحن في السجن، أنه وجد ضالّته.

في تلك الأيام، كان كلّما لقينا يروي لنا نادرة من النوادر التي يتناقلها الناس عن الكبير ووزرائه وأعوانه وجلاوزته، وكنا نجد في ذلك تنفيسا عن قلوبنا المكروبة ونفوسنا المكلومة، وقد باتت البلاد تتجرّع الغصص وتصلى نار الغواشي. أهلكَنا الجدب وفتك بنا القمع وصهر الجَلد أبداننا وعقولنا، فإذا بنا جثث يبوس مزروعة في اليباب.

ثم صارت نوادره لا تضحكنا بل تبكينا.

ما زلت أذكر آخر ما روى لنا، وقد مرّت بنا سنةٌ أذابت الشحم وأكلت اللحم ودقّت العظام، وغصّت خلالها السجون، وضجّت بالصراخ والأنين. حدثنا عبدون قال: سأل أحد الصحافيين الأجانب مرّة ثلاثة من أهالي عربانيا: ما رأيكم في أكل اللحم؟ فقال الأوّل: ما معنى اللحم؟ وقال الثاني: وما معنى الأكل؟ وقال الثالث: وما معنى الرأي؟

تراكمت على رؤوسنا المصائب وألَمّ بنا هَمّ شديد حاولت تخفيفه ليلتها بطرفة. قلت إن الكبير كان مرّة على متن طائرة صحبة زعيم أمريكا وزعيم الصين، حين هبّت فجأة عاصفة أوقعت الطائرة

في البحر، فإذا الزعماء الثلاثة في جوف حوت العنبر وهو يتهيّأ لابتلاعهم. نظر زعيم أمريكا إلى الحوت قائلا: ألا تعرف من أنا؟ قال الحوت: لا . قال: أنا زعيم أمريكا ولبلادي أسلحة نووية فتاكة، إن لم تطلق سراحي في الحال، فسوف يدمّرك جنودي تدميرا، فخاف الحوت وفتح فمه وخلّى سبيله. ثم نظر إليه زعيم الصين وقال له: ألا تعرف من أكون؟ قال: لا. قال: أنا زعيم الصين ولبلادي مليار ونصف من البشر، إن لم تطلق سراحي في الحال، فسوف يمزّقونك قطعة قطعة، فخاف الحوت وفتح فمه وخلّى سبيله. وما كاد زعيم أمريكا وزعيم الصين يبلغان الساحل حتى وجدا الكبير قد سبقهما إلى الشاطئ، فاستغربا وسألاه: عجبًا! ألم نتركْكَ في جوفِ الحوت؟ كيف نجَوتَ ووصلتَ إلى الشاطئ بمثل هذه السرعة؟ فقال الكبير: بعد أن سرّحكما حوت العنبر التفت إليّ يسألني: وأنت من تكون؟ وما كدت أقول له: أنا سيّد عربانيا، حتى بصقني بصقة ألقت بي على الشاطئ وهو يقول: تْفُوه! لعنَةُ الله عليك وعلى بلادك! فوجدت نفسي هنا.

ولم يضحك أحد. ظلّت الوجوه متجهمة عابسة يتراقص على قسماتها الصارمة الآسية غمام الدخان.

في تلك الليلة أحسسنا أن الكلام ما عاد ينفع. كنا نروح ونغدو وفي الصدور ذلّ مكين، مع كل جرعة شرَقٌ وكل أكلة غَصَصٌ حتى استحال الذلّ غضبا ونقمة، ثم انفجر الغضب والنقمة في شكل ثورة تجرف بلا رحمة، ولم يعد أمامنا من سبيل سوى المواجهة الدامية، فالدماء، كما قال عبدون، هي خضاب الرجال. وأشرعنا صدورنا للريح والسياط والنار، ونحن نحسب أن دماءنا مِداد نكتب به أحرف

الحرية، فإذا الذين أسلمناهم رقابنا ينجذبون لأول طُعم، وإذا هم مثل متفجرات منزوعة الفتيل. كلهم كانوا يبحثون عن أقصر السبل لبلوغ أدنى مراتب السلطة. ووجدنا أنفسنا بعد فَوْت الأوان وقود نار ليس لنا منها غير الرماد، ثم تناثر الرماد أشتاتا وخلت من أهلها البلاد.

لم أدر بالضبط كيف أقفرت عربانيا.

كنت في الزنزانة حين اندكّ السجن على رؤوسنا، وفي لحظة فريدة رهيبة لا يأتي الزمان بمثلها إلا ما ندر، استوى السّجان والسّجين وكلاهما يرى الموت له راصدًا لا يميّز بين زيّ ولا هوية ولا انتساب، وهرع الجميع يطلبون النجاة تحت قصف الصواريخ وانفجار القنابل ودويّ المباني المنهارة واندلاع الحرائق، وتعالى الصراخ والبكاء والعويل، وتناثرت الجثث وتطايرت الرؤوس وتمزقت الأجساد، ولم يعد أحد يفكر إلا في جلده. كنا نتقاطع هاربين من الموت نحو وجهة لا نتبيّنها وسط الدخان والحرائق والانفجارات والأجساد المتصادمة، نركض نحو ملاجئ سرعان ما تنهار أمام أعيننا وتتقوّض أركانها وسط قرقعة هائلة وسحاب من غبار.

توهّمت أني سأكون خارج السجن في منَعة من الخطر، فإذا المدينة، والناس يجرون في أنحائها المتداعية في هوشة واضطراب وزعيق يثقب الآذان، لا نجاة فيها لهارب، وإذا الرعب يرسم على الوجوه المسودة المغبرة آثارا مريعة، وإذا السماء ظلام يخرقه برق يخلب الأبصار ويهزه رعد يخلع القلوب، وتنهمر من رحمه مذنّباتٌ تصهر كل ما تقع عليه في أتون اللهب، وإذا الموت قدَر الجميع.

وفجأة همد القصف وانقطع الأزيز والانفجار، وناب عنه سكون فاجع، سرعان ما انقلب همهمة متنامية ثم هديرا أكمد، ثم استحال خليطا من أصوات مرعبة، كأن لفيفا من الوحوش تنادت على حين غرة في غابة، ثم شمل المدينة هياج والناس يحملون ما أمكن حمله ويمعنون في الفرار، وآخرون يلقطون وسط الخرائب والأنقاض شيئا يغنمونه، وعيونهم إلى السماء خوفا مما يمكن أن تخبئه من شرور غامضة، وما عادت الجموع تسمع إلا ضوضاء تختلط بصفير الريح والروائح الخانقة.

وغادرت المدينة تحملني رجلاي صوب وجهة لا أعلمها، أقطع التلاع والوهاد وقد دمّرت بيوتها تدميرا وعلتها ألسنة الحرائق والدخان، وبدت القطعان مبقورة مشوهة ممزقة، ولاحت الحقول رُمدًا والأشجار محروقة، وفشت روائح خانقة تتراوح في الأمكنة، تزفّها رياح خفيفة تنشط بين حين وحين، وتحمل في أعطافها نتونة الجيف وشبح الموت، إلى أن بلغت بيتا مهجورا على تلعة عند رأس وادٍ صخريّ، تلفّه أشجار زيتون متداعية الفروع ملتفّة الأغصان وشجرة خروب هرمة.

في الطريق، كانت الطوابير مثل أعمدة الدخان المتصاعدة من حريق غابيّ لا يخبو ولا ينطفئ. جحافل كفلول جيش مهزوم، تغذّ السير فرادى وثُناء وجماعات، هاربة من مدينة يرين عليها الموت وقد تحولت في ساعات قليلة إلى مقبرة جماعية، والنظرات زائغة أو مخطوفة أو مشدودة إلى أديم الأرض. سيارات قديمة صدئة رصّت فيها أمتعة جنب جرحى ومصابين وعجائز عُصّبت جباههم وشُدّت

أذرعهم بأربطة وضمادات، نساء وشيوخ وأطفال بأثواب رثة ملوثة بالأوضار والدماء وهنت حركتهم وزاغت نظراتهم نحو أفق لا يلوح منه إلا سواد الدخان وحمرة الدم، رجال بوجوه ملتاحة ذاوية كالحة يحملون أمتعتهم أو أطفالهم ويخطّون في الأرض في صمت. أحيانا كان يرتفع بكاء ألم وقهر أو عويل رضيع جائع أو صراخ طفل تاه عن أهله أو نداء مبهم غامض، فلا يعيره السّاعون نحو مصير مجهول أكثر من لفتة عابرة.

علمت من بعض النّاجين مثلي، قبل أن تفرّق بيننا السّبل والمسارب والثنايا الوعرة، أنّ ولايات عربانيا انسلخت كلّها عن المركز وأعلنت استقلالها وولاءها للقوات الغازية. أما الكبير فكان لا يستقرّ بهم حوله حديث ولا يَنظِمهم بشأنه رأي. قيل إنه فرّ بجلده خارج الحدود قبل بداية القصف، وقيل إنه لم يحتمل رؤية الخراب الذي حاق بالبلاد فانتحر غيظا وحسرة، وقيل بل قتله بعض حراسه انتقاما لضياع البلاد وانفراط عقدها، وقيل إنما قتل تحت القصف الذي دكّ القصر وقوّض بنيانه، وآخرون يقولون بل إنه كالقط، بسبعة أرواح، وإنه ذهب يركع عند أقدام الغزاة سائلا بمذلة أن يمنّوا عليه بالصّلح، فمثله لا يمكن أن يفرّط في الحكم بسهولة، وإنه لن يعدم أن يلمّ حوله المنافقين والمرائين وينهض من رماد. وكان ينتأ بين حين وحين جدال حانق تكاد تنفجر له حفيظتهم حول رعونة الكبير، وقد أوقد حربا ليس كفؤا لها، وانسحب عند استعار لهيبها، وترك البلاد ثكلى، فتعلو بينهم همهمة تتجاوب فيها الأصوات بالجدل العنيف، ثم يأخذ عليهم الحزن والحيرة أسباب التفكير،

فيمدّون البصر أمامهم يستقرئون أفقا مدجّجا بالغيوم يستشفون ما وراءه.

تساءلت، وأنا ألوذ بهذا البيت المهجور، أيّ حياة تنتظرني وقد فقدت أهمّ ما يمكن أن يشد المرء إلى الدنيا، الانتماء إلى وطن، ولا أعرف جرحا أوجع من ضياعه ولا رزءا أشد عليّ من فقدِه. إن صحّ ما تناقله الناس عن تصدّع البلاد وانفراط عقدها، فإني أصبحت منفيّا، لا أرضٌ ولا وطنٌ ولا هوية. والسبب، ذلك المتجبّر السّادر في غروره، الذي لم يكن يفيق من غيّه رغم الهزّات المتعاقبة التي حاولنا أن نخلخل بها قناعاته الضالّة، ذلك الذي وضع نفسه في موضع من العظمة لو وقع منه تكسّر، وأوهمه الدجّالون بأن عربانيا، بما فيها ومن عليها، ملكه الخاص يتصرف فيه كما يتصرف ربّ الدار في شؤون بيته، حتى حملها على الدنية ورضي لها الذلة، ولم تجد من ورائها من أبنائها من ينصرها. كلهم رموها بحجر وتفرّقوا أشتاتا.

وما كان طغيانه ليبلغ ذلك المبلغ ولا أن يدرك ضلاله ذلك العمَه الفادح، لو وجد منذ انتصابه على سدّة الحكم مَن يعقله عن الظلم قبل أن يجعل الجَور شريعة، ويردّه عن الكِبْر قبل أن ينتفخ كالضفدع المغرور.

قزمة كان، وسرعان ما علا شأنه بعد أن وثب على رفاق السلاح الذين أوصلوه إلى السلطة، ثم أحاط نفسه بالأقربين في القصر وفي الحكومة وفي شتى المؤسسات والإدارات الحساسة، والأقربون كما يقال أولى بالمعروف. كلاب سغبة بدأت تنفخ في شلوه الفاضي

وتوهمه بأنه الطائي في جوده، والفاروق في عدله، ولقمان في حكمته، وابن ساعدة في طلاوة لسانه، وذو القرنين في حنكته وتدبيره، حتى صارت تدعوه أمير المؤمنين. ثم تنافست الألسن والأقلام في امتداحه حتى قالوا إنه يعلم الأمور فينقض منها المفتول، ويبرم منها المحلول، ويجيلها حتى تجول، ثم ينظر فيها إلى ما تؤول. وقالوا أيضا إن الله قد سهّل به الوعور، وجلا به الديجور، وملأ من خوفه القلوب والصدور، وزاد على ذلك كاتبه الرسمي، الملقب بالباش كاتب، الذي لم تعرف له البلاد نظيرا في التذلل والتزلف والوشاية وحبك الدسائس، وهو القائل حين قام مرّة يمدح سيده:

حلَـف الزمـانُ ليأتـينّ بمثلِهِ   حنَثتْ يمينُكَ يا زمانُ فكفِّرِ[1]

كل ذلك وزيادة، من أجل عطايا سنيّة كان يوزّعها وفق مقاييس مبتكرة، قوامها الانبطاح وفقدان الشرف والمروءة، فيبسط كفه بمقدار ويمسكها بمقدار، على قدر أهل الخذلان، وتسابق الناس إلى مرضاته وتنافسوا حتى عُدّ من لم يعلن ولاءه جهارا بهارا ممن لا يحبون الخير لهذه البلاد، ثم من الخونة الذين يحق أن يسفعهم الكبير بغضبه، وإن تمادوا جاز أن ينزل بهم شرّ عقاب. ولما آنس في الناس خضوعا وطاعة، بدأ يسنّ المرسوم تلو المرسوم يشرّع بالدستور ظلمه وبطشه، وجعل يسوم الشعب الخسف والذل، باسم القانون.

كل ذلك، وتلك الألسن تروّج في الخفاء أخبارا توحي بأنّ الله اصطفاه وأسبغ عليه شمائل وخلالاً لا يتحلّى بها إلا الرّسل والأتقياء

(1) البيت للشريف الرّضي.

وأولياء الله الصالحون، فإذا تحدّث الناس في الخفاء عن ظلمه، أشاعت حاشيته خرافة مفادها أنّ الكبير انتبه من النوم منزعجا ذات ليلة، وأصدر أمره بالقبض على ضابط شرطة يقود سيارة سوداء تنحدر في التوّ واللحظة بشارع كذا وإحضاره حالاً، فخرج الأعوان ممتثلين وجاؤوه بالضابط، وما كاد الكبير يراه حتى صاح فيه صيحة عظيمة كادت تذهب بروحه: اصدقني يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التي قتلتها السّاعة وإلا ضربت عنقك! فتلعثم الضابط واعترف بأنه صادف منذ ساعة سيدة تلوح عليها آثار النعمة، استوقفته ليقودها إلى مكان معلوم فطمع فيها وفي حليها ومالها، فاغتصبها ثم كتم أنفاسها وسلب متاعها وألقى بها بين أشجار أكمة، ثم ركب سيارته فإذا بالأعوان يوقفونه ويقتادونه بين يدي الكبير. وبعد أن اعترف الضابط بمخبأ الحلي والسلب والمكان الذي ترك فيه القتيلة، أمر الكبير بأن يُعدَم المجرم شنقا في إحدى ساحات المدينة. ولما سأله مقرّبوه عن السرّ قال إنه رأى في المنام شيخا أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادي: يا أبا الكبير الثاني! أوّل سيّارة سوداء تنحدر الآن بشارع كذا، أوقفها واقبض على الضابط الذي يسوقها، وقرّره على المرأة التي اغتصبها وقتلها اليوم ظلما وسلبها متاعها، وأقم عليه الحدّ ولا تأخذك به رحمة.

وإذا جرى الحديث بين الناس عن تبذيره، اختلقوا أسطورة عن زاهد سخّر الله له نخلة تجود عليه برطب لا تنقطع طوال العام، وبقرة تسقيه من لبنها أنهارا، فاعترى إيمانه فتور، فأزال عنه الله نعمته وحجب إجابته، فاشتدّ من ذلك حزنه وطال كمده، وما زال يشتاق

إلى زمن الكرامة ويبكي حتى يكاد يذوب أسى وحسرة، فقام ليلة من الليالي فصلّى وبكى وتضرّع ودعا الله ثم نام، فقيل له في المنام: إذا أردت أن يردّ الله لك ما كان يأتيك من رطب ولبن، فاذهب إلى الكبير سيّد عربانيا واسأله حاجتك. فسار الزّاهد يقطع الأرض حتى وصل إلى البلد الذي ذكر له في المنام، فدخله وسأل من يرشده إلى قصر الكبير فقادوه إليه، وإذا حارس عند الباب والنّاس بين يديه يسألونه حوائجهم، فانتظر حتى جاء دوره، فسلّم وقال إنه يريد مقابلة الكبير، فأعلمه الحارس بأن صاحب التجلّة والجاه له يوم واحد في الأسبوع يجتمع فيه إلى الناس، فانصرف الزاهد إلى مسجد داثر، وأقام فيه يعبد الله حتى أزف اليوم الموعود، فجاء إلى القصر، فوجد خلقا كثيرا عند الباب ينتظرون الإذن، فوقف مع جملة من الناس حتى أذن لهم بالدخول، وإذا بالكبير جالس وبين يديه أرباب دولته على قدر مراتبهم، فجعل رأس النوبة يقدم النّاس واحدا بعد واحد حتى جاء دور الزاهد، فلمّا نظر إليه الكبير قال له: مرحبا بصاحب الرّطب واللبن، اجلس حتى أفرغ من حوائج الناس وأنظر في أمرك. فتحيّر الزّاهد وهو الذي لم يفتح بعد فمه بكلمة. ولما فرغ الكبير مِمّن في مجلسه، قام وأخذ بيد الزاهد، ومشى به في دهليز القصر حتى انتهى إلى باب من جريد النّخل، فإذا به ببناء خرب وحيطان مائلة وبيت متواضع ليس فيه غير الحصر القديمة والأثاث البالي والأطمار الخلقة، فخلع الكبير ثياب المُلك ولبس ثوبا مرقّعا من صوف خشن، وجعل على رأسه طاقيّة من شعَر ثم جلس وأجلس الزاهد جنبه ونادى: يا الغالية! قالت: لبيك! قال: أتدرين من هو ضيفنا الليلة؟ قالت: نعم.

هذا صاحب الرّطب واللبن. وأطلّت فإذا امرأة كالقربة المكمّشة، عليها مسوح من شعَر خشن. فالتفت إليه الكبير وقال: نطلعك على حالنا أم نقضي حاجتك وتنصرف؟ فقال الزّاهد: والله لقد شغلني حالكما عمّا جئت بسببه. فقال الكبير: اعلم أن الله بغّض إليّ الدنيا فأردت أن أترك الناس ينظرون من يسوس أمرهم، ثم خفت عليهم دخول الفتنة وتضييع الدين، فبقيت في الحكم وأنا والله كاره، فتركت أمورهم على ما هي عليه، وأبقيت الحراس على دأبهم، وجعلت الجنود في الثّغور إرهابا لأهل الشّرور، ووَدَعت القصر مزيّنا على حاله، وفتحت له بابا يوصلني إلى هذه الخربة، فآتيها وأنزع ثياب الملك وألبس هذا، وأشرع في صناعة الأقفاص وأبيعها وأقتات من ثمنها أنا وزوجتي هذه التي رأيتها، وقد زهدتْ في الدنيا قدر زهدي، ونحن على هذه الحال منذ مدة، والناس لا يعلمون ما نحن فيه، وهم لا يرونني عن قرب إلا حينما أبرز لكشف مظالمهم، فأقم عندنا إن شئت حتى نبيع هذه الأقفاص ونشتري من ثمنها طعاما، فتفطر معنا وتبيت عندنا الليلة، ثم تنصرف بحاجتك إن شاء الله. فلما كان آخر النهار، دخل رجل، فأخذ ما صنعه الكبير وزوجته، ومضى به إلى السوق فباعه واشترى من ثمنه خبزا وزيتونا، واشترى بالباقي أسلاكا وخشبا وطلاء لصنع أقفاص أخرى. فلما كان وقت الغروب أفطروا جميعا ثم ناموا، وفي الليل قاموا يصلّون ويبكون. فلما كان السحَر رفع الكبير يديه وقال: اللهمّ إنّ عبدك هذا يرجوك ردّ رطبه ولبنه، اللهم اردده إليه إنك على كل شيء قدير، والغالية تؤمّن على دعائه، وإذا بشيخ مجلّل بالبياض وحوله هالة من نور يطلّ من السماء ويهتف: لك

البشارة بقضاء حاجتك وتعجيل إجابتك يا شيخ! ومن الغد ودّع الزاهد الكبير وزوجته، وعاد إلى نخلته وبقرته، وكان لا يسأل الله شيئا إلاّ أعطاه إياه.

حكايات وأساطير يستلّونها من كتب الدّجل والشّعوذة، ليعيدوا إنتاج الخرافة، وما درَوا أنّ الناس يبادلونهم دجلا بدجل، وخرافة بخرافة، وينسجون عن الكبير ووزرائه، الباش كاتب بخاصة، حكايات عجيبة تشفّيا ونكالة عمّا يلقونه في عهد الطاغية.

حدّث أحدهم مرة قال:

خرج الكبير والباش كاتب ذات ليلة يطوفان في المدينة متنكّرَين، فصادفا رجلا منزويا في مكان خال لا يدركه الضوء إلا لماما، فسلّما عليه فإذا هو يرتّل أورادا غريبة، ولما سألاه قال: صادفت في هذا الخلوة جنية مليحة وقد ركبها عنوة جنيّ بشع المنظر سمج التقاطيع، وهي تصرخ وتستغيث حتى أغمي عليها، فحملتُ عليه بهراوة غليظة وأشبعته ضربا ففرّ، ولما أفاقت الجنية شكرتني كثيرا وقالت: سأكون لك حليلة وأهبك الجاه والمال لو استطعت أن تفي بشرط. قلت: ما هو؟ قالت: أن تمطّط عُضوك حتى يستطيل ويبلغ الحجم الذي أريد. قلت: وكيف أعرف أنه بلغ ما تريدين؟ أجابت: عندما تصير قادرا على إيصال شخب بولك في إناء على بعد اثنتي عشرة ذراعا. قلت: هذا مستحيل. قالت: هذا شرطي، ثم اختفت. ومضت عليّ أيام وشهور وأنا أمسّد قضيبي بزهم النّعام وأخلط طعامي بالزّيت والعسل والثوم والزّنجبيل ومسحوق اللوز والجوز

وطحين قرن الكركدن وكل العقاقير التي تقوّي الصُّلب وتمتن العظم وتوقظ العصب، وفي كل فجر أضع إناء على الأرض وأجرّب حظي، فلا يبلغ بولي ربع مقدار ما أوصت، حتى كان هذا الصباح، إذ قمت وقد حققت المطلوب وأمّلت في المرغوب، فخرجت إلى هذه الخلوة أدعو الجنية إلى الظّهور لتفي بما وعدت، ولكنّ مجيئكما فجأة قد يكون أفزعها فلم تستجب لندائي. قال له الباش كاتب: هذه خرافة لا يصدّقها أحد. وقال الكبير: ولا أظنّك جادّا في ما تزعم، فلا يعقل أن يقذف الرّجل ببوله أبعد من ذراعين. فغضب الرجل وقال: أراهنكما على ألف دينار. فتراهنوا ومضوا جميعا إلى حانة فيها رجال يشربون، وفي صدارتها رجل وافر الهيبة جالس إلى نضد عليه زجاجة ويسكي. اتجه صاحب الجنية إلى الرجل وهمس في أذنه بكلام، ثم اتكأ على الكنتوار وجعل يملأ القدح ويفرغه، والكبير والباش كاتب جالسان في ركن غير بعيد يتناولان شرابا. ولما انتفخ بطن الرجل بأقداح البيرة، أمسك قدحا فارغا ووضعه على مسافة اثنتي عشرة ذراعا، ثم تعرّى وصاح في الحاضرين: انتبهوا فقد بدأ الرهان! وأمسك قضيبه بكلتا يديه وصوّبه نحو القدح الفارغ، وأفرز بوله قذفا، ولكن من فرط سكره وارتعاش يديه لم يصب المرمى، بل كان يدانيه بكثير ثم يحيد ليسقي بسائله الكبير ووزيره، وكان كلّما اندلق عليهما البول، أطلق السّكارى كلمات سمجة وضحكات ماجنة، والكبير يصرّ على أسنانه بامتعاض، ويمسك الباش كاتب عن النهوض وهو يقول: اهدأ ولا تفضحنا. ولما انتهى الرجل تنفّس الصعداء وأقفل تكّة سرواله، واتجه إلى الرجل ذي الهيبة الوافرة،

فأخذ منه حزمة من الأوراق المالية، قام بعدّها ثم سحب منها نصيبا ناوله الكبير وهو يقول: خذ، هذا حقك. فقال له الكبير: لا حاجة لي به، وإنما أردت أن أبيّن زيفك وخداعك. وإذا بوزيره يرتمي على الرجل وينتزع من يده المال وهو يقول: الحق حق، ولا ينبغي التفريط فيه. ثم نظر الكبير إلى الرجل وسأله: أخبرني، ما حكاية المال الذي أخذته من ذلك الرجل الوقور؟ فقال الرجل: هذا رهان كسبته. ثم غادر الحانة يصفر مزهوّا والسكارى خلفه يقرعون على شرفه الأنخاب. فتحيّر الكبير وأرسل وزيره يسأل صاحب الحانة، فقال الخمّار: ذلك الرّجل ضحك عليكما. قال الباش كاتب: كيف؟ أجاب الخمّار: لقد عرف أن الكبير ووزيره الباش الكاتب يخرجان كل ليلة متنكّرَين ويمرّان من مكان معلوم، فتراهن مع هؤلاء القوم على ثلاثة أضعاف ما سيراهنهما عليه أنه سيلبد لهما حتى يمرّا، ثم يحتال عليهما، ويقتادهما إلى هذه الحانة ليبول عليهما على مرأى ومسمع من الجميع، وقد كسب الرهان، فلا تعجب إذن إن خرج مزهوّا، فإن كان قد خسر ألفا فقد ربح ثلاثة.

لهفي على نفسي وعلى وطن ضاع في رجع البصر وتبخر مثل مياه السّباخ، فبعض نفسي يبكي على بعض، وبعض دمي يثور ببعض. كيف ائتمنت عربانيا على مصيرها ذلك الدّعي الغاشم الظالم وألقت إليه قيادها صاغرة، ثم سكتت عن إفكه وآثامه عقودا طوالا، لم يأتها منه غير المصائب والحكم الاستبداديّ المطلق. ما كاد يتولّى المقاليد حتى بدأ يقضم السلطات واحدة واحدة إلى أن صار على رأس كل مؤسسة. الحزب والدولة والحكومة ومجلس الشعب وقيادة القوات

المسلحة والاستخبارات وأجهزة الأمن والأجهزة الخاصة والقضاء والشعائر الدينية وأجهزة الدعاية والإعلام، بل قيل إنه كان يتولى بنفسه اختيار لاعبي منتخب الكرة. وكان إلى ذلك داهية، فإذا نال الشعب زيادة في الأجور، فهي هبة من الكبير، وإذا سلطت على الرّقاب إعدامات بالجملة، فتلك قرارات من المحكمة.

لم يسبق لي أن رأيته إلاّ كما يراه عامّة الناس في التلفزيون والجرائد والصور الضخمة التي ملأت الحيطان وسدّت الشوارع، حتى وقعت في الأسر ، وجاء من يقودني لأمثل بين يديه كما يقول زبانيته، وإذا بي أكتشف رجلا في نظره حدّة وقسوة واستعلاء، تفصح عمّا في نفسه من حقد دفين على كل من خالفه الرأي. في حديثه اضطراب موتور، وفي تفكيره قناعة بأن الناس في ظله ينبغي أن يكونوا متفقين على رأي واحد هو رأيه، متحدين في غاية وحيدة هي الغاية التي رسمها لنا، لنكون في عهده كالإبل تحمل على ظهورها قِرب الماء وهي ظمآنة، ليس لنا إلا الصبر على ما نلقى أو الموت.

عندما استقبلني في ذلك اليوم بمكتبه، اعترتني رهبة شاملة وحبس الخوف لساني، ثم استنبتّ لنفسي جرأة من قولة كان عبدون يرددها، بأنّ من خالف السلطان زهد في الدنيا، وأن الكبير، أيّا ما يكن بطشه وجبروته، بشر يبول ويتغوّط ويمسح دبره كلما فكّ حصره. لم أدر لماذا اختارني بالذات من بين خلق كثير، كانت تعج بهم زنزانات المعتقلات المنتشرة في كل مكان في شكل ثكنات وقلاع تحت الأرض، وخامرتني نية ساذجة، ورجاله يدفعونني إلى بابه بقسوة ويشتمونني في غلظة، بأني سأحدثه حديث الواعظ الناصح، فربما

يجد بعد الغيّ هدى، فإذا هو يمطرني بأسئلة لم يكن يروم من ورائها إلا معرفة أيسر السبل وأقصرها لإخماد اللهب، وكان يحسبها وترة وترت سرعان ما تخبو لتعود البلاد إلى ركودها المعتاد. وما كدت أنطق بها لا يهوى حتى بلغ منه الغضب مبلغ التوقّد، فاحمرّ وجهه وتقبّض، ولمعت عيناه لمعانا مريعا وتصلّبت أطرافه وارتجفت، وهو يشير بيده إلى الباب وزعيقه يرج الحيطان:

- هذي طريق الخير اسلكوها أو نزلت عليكم لعنتي!

حين أعادني رجاله إلى الزنزانة في ذلك اليوم، تلقّاني الجلاّدون بعذاب مستجدّ، وقد علمت ممن جاوز اعتقاله ربع قرن أنهم كانوا يكافَؤون عن مناهج التعذيب المستحدثة، كأنها براءة اختراع لا ينقصها إلا التسجيل في الهيئات العلمية العالمية. وسائل مبتكرة يذلّون بها النفوس ويرغمون الأنوف ويهدرون الكرامة ويسوّغون الجرائم البشعة، كأنهم يتشفّون بإطفاء ثأر من زمن قديم.

خلال إقامتي بذلك المعتقل الذي لا ينفذ إليه ضوء النهار ولا نجوم الليل على مدار فصول العام، كنت «أتسلّى» ورفاق الزنزانة بتعداد وسائل التعذيب التي يستخدمونها، فأحصينا منها ما يفوق مائة نوع، وزعناها إلى أربعة أقسام: طبيعيّة وعضويّة وآليّة ونفسيّة.

فأمّا الطبيعية فهي تسخير الجلادين لعناصر الطبيعة وهوامها للنيل من الضحيّة، من ذلك مثلا طرح السّجين عاريا تماما على سطح إسمنتي في فضاء مكشوف خلال ليالي الشتاء القارسة، وتعريضه لأشعة الشّمس القائظة مدّة ساعات طويلة بلا ثوب ولا

ماء ولا ظلّ، وإيداعه شهورا كاملة في حجرة رطبة مظلمة لا يتناول خلالها إلا لقمة شحيحة تُمَدّ له من كوّة بأسفل الباب، ووضعه عاريا في حجرة مليئة بالحشرات القارصة، ورمي الفطريّات التي تمتص الدّماء على جسده وثيابه...

وأما العضويّة فهي استخدامهم أعضاء البدن بأنواعها لإصابة الضحية بأكبر قدْر من الأذى، كاللكم على الوجه، والركل على البطن والخصيتين والإلية، ودعس أصابع اليدين بالجزم الثقيلة، وتغطيس الرأس في مياه عفنة، وسحل الجسد عاريا على أرض نديّة أو مرشوشة بالقزاز والقذارة...

وأما الآليّة فهي اعتمادهم على شتى الأدوات لإمعان التنكيل، كالجَلد بأعواد الرمّان، والضرب على باطن القدمين بالخيزران، وحرق القدمين بالشّموع والجسد معلّق في الفضاء، والكيّ بالسّجائر في المواقع الحساسة من الجسم، وتعليق السجين في الأرجوحة والتناوب على ضربه بالسياط المكهربة أو الكوابل المتينة، وربطه بأسلاك من حديد ووضعه تحت سطل من الماء البارد ينحدر على أمّ رأسه رتيبا قطرة قطرة، وسحبه من إيره بحبل من قنّب أو سلك معدني، وتقليع أسنانه بالكلاّبة، وحتى جدع أنفه وأذنيه وشفتيه أو بتر أحد أطرافه...

وأما النفسيّة فهي الممارسات التي يراد من ورائها الإهانة والإذلال وكسر إرادة السجين وهدر كرامته وتدمير إبائه، وهي المرحلة التي يفقد فيها الجلاّد آخر ذرّة من آدميته، ويتفصّى حتى من

وحشيته ليقتحم أشدّ مناطق الرّعب ظلمة وأحلك ما في النفس من شرّ، وهي تتراوح بين تحطيم أعصاب السجين بمنعه من النوم أو إزعاجه بأصوات رتيبة أو تعصيب عينيه وإيهامه بالقتل وإطلاق الرصاص صوبه دون إصابته، وبين التبوّل في فمه وفي مؤخرته، أو إجباره على أكل برازه، أو سبر أسته بخازوق أو قنينة، أو التّلويط به، أو اغتصاب ابنته أو زوجته أو أخته وحتى أمه أمام عينيه، أو إرغامه على مضاجعة إحدى المحارم على مرأى من الجلادين...

وما ذلك إلا بعض ما باح به الناجون من الموت، أو هذى به في همهمة مضطربة أو نوبات صرع منكرة مَن اشتد عليهم الوطء ففقدوا الصواب، أما من هلكوا تحت التعذيب فقد حملوا أسرارهم معهم إلى مقابر جماعية لا يعلم غير الجلادين موقعها، وإن كنّا، نحن الموعودين لجحيم يومي، ندرك من حجم المفقودين المتزايد يوما عن يوم سعتها وعمقها.

ومن عجب أني كنت أرثي لحال الجلادين، فهم منّا وإلينا، وملامحهم المسفوعة بصهد الشمس تشهد بأنهم من الفئات الفقيرة المضطهدة التي لم تنل حظا من علم ولا نصيبا من جاه. أحيانا كنت أقول لهم ما بين نوبة ونوبة إننا إخوة، وإنّ ما يأتونه لا يصيب فيه الرجل إلا أخاه ولا تقطع فيه يمين المرء إلا يسراه، فيلجّون في العناد ويصرّون على التنكيل ووقدة السكر تلمع في عيونهم المحمرة، ونظراتهم تنضح بشهوة الدم والجريمة، وألسنتهم تفيض بألفاظ الدعارة والسماجة، وهم يبحثون عن وسائل مستجدّة يسهرون الليل في تصوّرها كمن يقدح زناد فكره لابتكار وسائل إنتاج أفضل.

ويضنيني التذكر والتساؤل وأنا مستلقٍ على فراش بال تحت ضوء فانوس نفطيّ شاحب يلفني السكون والوحشة. لم يكن مقامي بهذا البيت باختياري. صادفته في طريقي، وكنت في حال من التعب والعطش والجوع وقلة النوم لم يعد لي معها طاقة على بذل أي جهد، فلذت به أنشد الأنس والراحة، فإذا هو خال ليس به ما يقيم الأود غير مؤونة زهيدة من كسكس ومحمصة وشيء من الزيت والقديد وبعض الخضر الذاوية والأعشاب الناشفة. بيت واطئ بحجرتين، واحدة أصغر من الأخرى. يشغل الكبرى فراش بأغطية رثّة يعلو عن الأرض ذراعا، وكليم بالٍ، وصوان قديم لحفظ الملابس، ومرآة في حجم الشبر ذات إطار من بلاستيك مصفرّ معلقة على جدار مقشر الطلاء، رأيت على صفحتها وجهي فارتعبت، وقد زادت اللّحية الكثة نحولي وغَور عينيّ. وكان في الحجرة الصغرى حصير متهرّئ عليه وسائد مسندة إلى جدار قذر تعلوه كوة صغيرة، ومائدة واطئة وموقد بريموس وكانون جنب دكّة عليها أوانٍ قصديرية مسودّة وبعض أطباق، وتحتها صفيحتا نفط وزيت موضوعتان على الأرض، وفوقها مرفع من خشب قديم منخور مثبت على الجدار، به كؤوس وفناجين وبضع ملاعق وسكاكين وعلب سكّر وشاي وملح وبهارات، وفي الركن المحاذي قُلة بعروة واحدة.

ذلك كل ما في حجرتيه البائستين من متاع.

استلقيت على الفراش وأغرقت في نوم عميق لم أنعم بمثله منذ مدة، راودتني خلاله أضغاث من صور وأخيلة وأحلام وكوابيس. ولما استيقظت قرّ مني العزم على البقاء.

إلى أين أمضي وليس لي زاد ولا مال ولا غاية، والطريق التي قد أسلكها سوف تقودني حتما إلى ولاية منسلخة أكون فيها غريبا أو كالغريب، ولا يعتم حاكمها الجديد أن يتشبّه بالكبير فيجعل بلاده نسخة من عربانيا، وهو الذي نشأ في كنفها وارتوى من لبائها.

وبقيت في هذا المكان الخالي، لأحيا حياة بدائية لا أعتمد فيها إلا على نفسي. كنت أصيب قوتي من الزّاد الموجود ومن خضر أزرعها وطيور وأرانب ويرابيع أصطادها، وأستقوي على البرد عند هبوط الليل بإضرام الأعواد اليابسة والأعشاب الجافة.

خرجت منذ اليوم الأوّل أستطلع المكان بحثا عن الماء، أصل كل شيء حيّ، فانتهيت إلى عين جارية في جوف الوادي صرت أملأ منها حاجتي وأنقلها في القلة، وكنت عثرت خلف البيت على فأس وقادوم ومشط استعنت بها في عزق قطعة منبسطة من الأرض خلف البيت، وضّبتها في شكل أحواض، ثم سعيت في الأنحاء بحثا عن بذور حتى حملتها الريح صدفة، وأخصبها مطر واكف أنبت معها ألوانا من حشائش فرشت خضرتها البارضة، وأسبغت على المكان منظرا تقرّ له العين.

خلال تلك الأيام، كنت أتطلع إلى الأفق منذ قيام الفجر لعلي آنس بشرا أو ألمح دخانا أو أسمع وقع خطى مقبلة، فلا أرى غير الفراغ يمتدّ حتى أقصى نقطة يدركها بصري، وبضعة من طيور اليمام والزّرازير والقبّر والحجل والحداء والعقبان والغربان تمرّ بي أحيانا، وأحيانا ترود حول بيتي بحثا عن قوت، وكنت أنصب لها الفخاخ

فأوقع منها ما يكون عشاء ليلي، ثم بدأت أستشعر أوجاع الوحدة والوحشة والحاجة إلى الكلام، لعلي أنفّس عمّا يضيق به صدري.

كان قد مضى على مقامي ما يقارب شهورا ثلاثة، حين قصدت العين عند طلوع النهار لأملأ القلة. وكان اليوم صحوا بعد أن جلّل المطر أعواد الشيح والعرعر والزعتر والطرفاء، ولامست ريح صباحية واهنة منابت العشب البارض، وبدأت أشعة الشمس تسطع على الأرض الندية دفيئة فاترة. ملأت القلّة وحملتها على كاهلي، وعدت بخطو متئد، فلاح لي، وأنا أتسلق مسربا رمليا ضيقا تلفه شجيرات صبّار، كلب قرب البيت يدور ويتشمّم. وما كاد يراني حتى هرب مسافة، ثم وقف يتلفّت حوله ويعود يشمّ الأرض في مواطئ أرجله. ذئبيّ الفصيلة رماديّ ناحل برزت عظامه وتدلّى ذيله بين فخذيه.

حينما بلغت البيت رفع رأسه يرقبني عن بعد في حذر وتوجّس. أسندت القلّة إلى الجدار وناديته، فظل في مكانه برهة يقلب النظر حوله ثم ولّى هاربا. دخلت وجئته بعظام أرنب كنت شويتها البارحة وألقيت بها ناحيته. رأيته يتردد لحظة كأنه يطرق، ثم يقترب بخطى حذرة حتى قارب العظام. شمها ثم رفع رأسه ثانية وأقبل عليها بنهم.

داخلني إحساس غامر، وأنا أدخل البيت، بأنّ القدر لبّى لي رغبة مكبوتة، وأيقنت أنّي سأجد في هذا الكلب أنيسا يبدّد وحشتي. ظلّ متردّدا يومين كاملين كأنه يسبر طويتي، وفي نهاية اليوم الثاني، والشّمس تميل إلى المغيب، رأيته يدنو مني ويتمسّح بي حتى لامس ذيله رجلي، ثم أقعى وعوى عواء خفيفا وتبعني داخل البيت. ليلتها

مازجني شعور بأن مسرورا، كذلك سَمّيته، سينسيني الوحدة ويزيل عني الوحشة، وأنّ البيت بوجوده محروس عامر.

وصار مسرور يألفني وآلفه، ويرافقني حيثما غدوت.

صرت أجرؤ على الابتعاد عن البيت وارتياد ما حولي، وشعور بالأمان في صحبته يدفعني إلى الاستطلاع. كنا، كلّ يوم تقريبا، نضرب في الأرض مسافات بحثا عن حياة آدمية، فلا يطالعنا غير القفار والخلاء والأراضي الموات التي تغزوها الأعشاب الطفيلية والأشواك، ونعود وفي الصدر خيبة وفي الجراب صيد معقول.

وفي غروب أحد الأيام، كنت عند جذع الخرّوبة أشوي بضعة من زغاليل اليمام، ومسرور مقعٍ قربي يرفع نحوي رأسه ينتظر نصيبه من الوليمة ولعابه سائل، وقد اعترى جسمه بعض قوّة غطت نحوله، وإذا برجل ينكث الأرض بعكّازه ويقدَم بخطو متعثّر. رفع مسرور أذنيه ودار بذيله دورة وهو يطلق عقيرته بنباح حاد، ثم انطلق يجري في حنق نحو القادم، فتركت اليمام على النار، وجريت خلفه أناديه وأستوقفه. ظلّ ينبح بقوة ثم انقلب نباحه إلى عواء فضباح، والرجل يقترب في خطى حذرة حتى بلغ فسلّم.

كان طويل القامة قد غزا الشيّب لحية كثّة تلتهم مساحة وجهه وشعرا خفيفا زالت ناصيته، وبدت أورام تحت عينين حادّتين تعتليان أنفا بأرنبة معقوفة، ولكنّ قامته المشدودة وجسمه المتين وحركاته المتّزنة كانت تنمّ عن رجل اعتاد أن يأمر وأن يطاع. التقت عيناه بعينيّ لحظة، خيّل إليّ في أثنائها أني رأيت هذا الوجه ذا التقاطيع

الحادة القوية من قبل. ثم خطا نحو جذع الشجرة خطوتين وتوقف، فبدا لي، وهو يقف متكئا على عكّازه المنقوش ذي المقبض المذهب يلفّ جسده المتين في معطف وبري داكن معفّر بالتراب، أنه عزيز قوم ذلّ.

قال بصوت جهوري خشن وعيناه تلمعان ببريق نفاذ:

- عابر سبيل.

فتحت ذراعي مرحبا:

- تفضل. لا شك أنك تنشد طعاما وراحة.

- أصبت.

- سأقاسمك ما عندي من زاد.

وجلس على حجر قبالتي فاردا رجليه وأطراف معطفه تكنس الأرض والعكّاز على ركبته، وراح يأكل ما أناوله ويتلذّذ في همهمة خافتة تنمّ عن ارتياح وشكر، ومسرور لا يني يهرّ وينظر إليه بطرف عينيه، ثم سألني الغريب وهو يمسح زاويتي فمه بمنديل أبيض:

- ما هذا؟ حجل؟

- زغاليل يمام.

- لذيذة.

- وما لذة الحياة بعد ما ضاع؟ إنما نأكل لكي لا نموت.

توقّفت يده عن تناول اللحم لحظة، رأيت على وجهه خلالها أثر الهمّ الذي يضمره في قلبه، ثم قال:

- ما شاء الله كان.

فقلت وفي صوتي غضبة ثائرة اهتزّت لها أذنا مسرور:

- بل ما شاء ذلك السّفيه!

ضيّق عينيه، وقطّب ما بين حاجبيه في عبسة عميقة، وسأل من بين أسنانه بصوت مشوب بحدّة تكاد لا تخفى:

- مَنْ تعني؟

- ومَن سِواه؟ ألم تر مبلغ جرمه وشناعة ضرّه، وقد تركنا نتمرّغ في تراب الفواجع والبؤس؟

وفجأة رأيته يجِم لحظة ويتجهّم، ثم يلقي قطعة اللّحم إلى مسرور ويفزّ قائما كالرّمح وهو يقول:

- أريد أن أستريح قليلا. لقد هدّني السّير.

نهضت وراءه واستجرنا بالبيت نطلب الراحة، ومسرور يلتفت إلى الغريب في حذر كلما بدرت منه حركة. قدت الرجل إلى الحجرة الكبرى فوقف لحظة مشدوها وجرت عيناه على الفراش. رأيته يتردّد برهة ويستنكف قبل أن ينفض بيده الغطاء ويجلس على حافة السرير الواطئ، ثم خلع معطفه ووضعه جنبه واستلقى بكل ثقله، وسرعان ما ارتفع غطيطه.

تركته ومررت إلى الحجرة الأخرى، فبسطت بعض الفرش على الحصير وتمدّدت، وتلك النّظرة اللامعة النفّاذة لا تفارق خيالي. كأني رأيتها من قبل. مازجني إحساس بأنّ الرجل واحد ممن كانوا غارقين في نعيم الكبير، فقد تغيّرت سحنته وحالت إلى ما يشبه الغضب والاستياء حين ألمحت إلى ما آلت إليه البلاد بسببه. لعلّه كان سادرا

في غيبوبة خلف أسوار مشيّدة، لا يعلم ما كان الناس يعانون في عهد الكبير من قمع وعسف وبطش.

هل كان يعلم مثلا أنّ ذلك الطّاغية رصد رجاله في كل شبر من تراب عربانيا، يصيخون بالأسماع في كلّ آن لكبت أدنى صوت يرفع التذمّر والشكوى، ويحاسبون الناس حتى على علائم الفرح والحزن إذا كانت لا توافق التوقيت العام الذي يضبطه الكبير للأفراح والأتراح، وأن رجاله كانوا يجوبون البيوت تحت جنح الظلام ليسلّموا الناس موتاهم، ولما تكاثر عدد القتلى صاروا يلقون بجثثهم في حفر بالقفر اليباب، وأنّ الكبير طغى حتى قيل إنه كان يود لو تهب الرّيح بإذنه، وتمطر السّماء بأمره، وتشرق الشمس بقراره، ويطل القمر كما تطل صورته هو على شاشة التلفزيون.

وفيما أنا في ذلك الهمّ الشاغل سمعته يتنحنح ويتحرّك، فنهضت أوقد الفانوس وأعدّ ما يمكن إعداده للعشاء، وفكّرت، وأنا أصب في القدر آخر قطرة من الزيت، أن أنزل من الغد إلى المدينة، لعلي أجد في البيوت المهجورة والدكاكين المهملة حاجتي، فزادي يشرف على النهاية وليس لي دونه بديل.

تربّعنا حول المائدة لتناول العشاء فلم يأكل. بدت ملامحه غامضة مبهمة وهو يضع ذقنه على يده مطرقا، وضوء الفانوس يتلاعب على وجهه، وتكلّم وفي صوته رنّة من الحزن:

- أنت مخطئ في حكمك.

- حول ماذا؟ قلت في دهش.

- أعداء البلاد هم الذين أذهبوا عنها عزّتها، وأفشوا فيها الثّكل والويل.
- كيف تفسّر إذن انسلاخ الولايات كلّها عن عربانيا؟

تردد قبل أن يقول:

- يجب أن تعرف أنّ ما جرى من قصف وتدمير وتهجير لم يكن سوى المرحلة الأخيرة، فالأعداء كانوا قد نفثوا في الأمّة سمومهم حتى فرّقوا كلمتها.
- ذلك ما كان الكبير يردده، حتى جعل الدفاع عن الوطن تعلّة لحرمان الشعب من أبسط حقوقه، ولو وجدوا منه العدل لما تفرّقوا.
- العدل في أيّ شيء؟
- العدل في كل شيء.

تنهّد ثم قال:

- لا يصحّ أن نجعل كلّ الآثام على عاتق رجل واحد.
- من لا يقبل أن يشاركه أحد في النّعمة، لا يجوز أن يطلب من الناس أن يشاطروه المصيبة.
- أراك في حقد على الكبير.

قلت بنبرة فيها آهة مبحوحة وفيها ألم وقهر:

- لو أريتك آثار التعذيب على كلّ جزء من جسدي لوجدتَ أن لفظة «حقد» لا تفي بالغرض، وهذا في حدّ ذاته ليس مهمّا، فالآثار التي على جسدي ستزول بموتي وينتهي الأمر، ولكن من يمحو آثار الكارثة التي حلّت بالبلاد بسببه؟

لم يجب الرجل على قولي بكلمة. ظل مطرقا يعبث بلحيته وأنا ألتهم ما في الصّحن من ثريد. وساد الصّمت بيننا، وتعالى من الخارج نُعاب بومة ونباح مسرور وزفيف واهن لريح نفذ إلينا بردها عبر فجوات الباب.

تركت له نصيبا من الأكل في قاع القدر، ودفعت المائدة جانبا، ونهضت أطبخ قليلا من الشّاي، ونار موقدة في الكانون ترسل دخانها وضوءها وتتلاعب على الجدران في خفوت. رأيته يرفع بصره إليّ صامتا وهو يعبث بلحيته بأصابعه الممتلئة.

مرت لحظة صمت ثم قال في فتور كأنه يحدث نفسه:

- وماذا ينفع الحقد الآن؟

قلت وأنا أستعيد مجلسي حذوه:

- وما الذي ينفع في رأيك إذن؟

- أن نلمّ الشمل ونوحّد الصفوف.

ندّت عني ضحكة صفراء حانقة اتّسعت لها عيناه بغتة وشعّ منهما وميض، وقلت أسأله:

- من أنت؟

حدجني بنظرة صارمة واختلجت شفتاه بعصبية وهو يقول:

- رجل يحبّ الخير لهذه البلاد.

نظرت إلى هذا الرجل الذي ما زال يحمل هموم قومه، فامتلأ قلبي إشفاقا عليه، وقلت باستسلام:

- وأيّ شمل ولم يبق في البلاد غير من كان مقامه فيها اضطرارا كمقامي بهذا الخلاء؟

جحظت عيناه وقال مستنكرا وهو يهزّ كتفيه:

- وما بقاؤك إن لم تكن لك مثل هذه الغاية النبيلة؟
- وماذا تريدني أن أفعل؟
- تساهم قدر جهدك في إعادة بناء ولو جزء من عربانيا.

ومضت لحظة أخرى في صمت، ثم استأنف الرجل القول:

- إن قيمة الأمة في قدرتها على النهوض رغم المصائب والمحن. والأمة بأبنائها ولو كانوا حفنة قليلة.

وقال أيضا:

- مضت عليّ أسابيع، وأنا أجوب الأماكن طولا وعرضا بحثا عمن يحبّون الخير لهذه البلاد، ويريدون أن يعيدوا إليها العزّة والمجد.

وغصّ بريقه فسكت، وظل يقلّب خواطره في صدره وهو ساهم كأنه في حلم. وطال الصمت بيننا وتمطط، وأنا أرثي في قرارتي لحالي وحاله، ثم تنهّد بعمق وقال كأنه يكلّم نفسه:

- لقد عشت حتى أرى هذا الخراب.

واستدرك كأنما أنكر على نفسه أن تلمّ به تلك الخواطر اليائسة، وقد سرت في صوته صحوة مباغتة:

- التّكاثر من سنن الحياة ولا بدّ للبلاد أن تعمُر. المهم أن نجمع شمل البقية الباقية ولو كانت قلّة.

حرّكت رأسي في ما يشبه السخرية المرّة وقلت:

- لنفرض أن هذه القلّة تكاثرت. سيجيء يوم يظهر فيه من يزعم أنه يريد تسيير شؤونها وتنظيم أمورها وحماية ذمارها، ويستعين في ذلك بقوة لحفظ الأمن، أليس كذلك؟

همهم في خفوت فواصلت:

-...ثم يفرض الضرائب ويسنّ القوانين، ويحتمي بالشرطة والعسس ليضمن بقاءه، ويطلق يديه ليبتزّ تلك الفئة التي ائتمنته على مصيرها فيأخذ من مالها ومن دمها، وحين تحسّ بالضّيم والجور تصرخ بالشكوى، وربما تعلن العصيان والتمرّد، فإذا هو كبير آخر يصليها بالحديد والنار، وتعود البلاد إلى سالف عهدها المؤلم، في ظل حكم استبدادي مطلق يقودها إلى الدّمار والتّشتت.

سمعته يزحر في انفعال يكاد لا يكتمه ثم يقول:

- وهل تريد أن تبقى سيبة؟

- أوليست الآن إلاّ كذلك من جرائر الظلم والاستبداد وسياسة الانغلاق والجمود؟

- من دون سلطة، تؤول البلاد إلى تسيّب وفوضى.

- ذلك أهونُ من أن تسام القمع والذلّ.

- ولكن لا بدّ لها من حام يحميها من الخطر.

تذكرت قولة كان عبدون يرددها فقلت:

- لا أدري من القائل: «ليس أخطر على شعب من حكامه».

فالحاكم يضع قوانين على مقاسه تشرّع ما يريد وتحظر ما يكره ولو رأت المجموعة عكس ذلك.

-المجموعة، كما تقول، تتنازعها الأهواء، والبلاد لا تكون في مأمن إذا لم تجتمع على رأي واحد، والحاكم مضطرّ في هذه الحالة أن يتّخذ قرارا لصالح الأغلبية، وما على البقية إلا الامتثال.

أطلقت ضحكة مريرة أزعجته وقلت:

- ومن أين لنا أن نعرف أنها الأغلب في غياب الاقتراع؟

وإذا به يقول لي بعد أن تنهّد:

- الحكم شبكة بالغة التعقيد، ولو جرّبتَه مرة لكان لك رأي مخالف.

فسألته بوقاحة:

- وهل جربتَه أنت؟

فنظر إليّ مبهوتا، ولم ينطق بلفظ.

ناولته قدحا من الشاي تردد قبل أن يأخذه. ترشّفه على مضض ثم نهض بخطى بطيئة، ومضى إلى الغرفة متلمّسا طريقه على ضوء الفانوس، ولم يلبث أن علا شخيره. ولما أفقت من الغد لم أجده، كان قد رحل منذ الفجر يضرب في المساحة الضيّقة التي بقيت من عربانيا، بحثا عمن يسايره في حلم مستحيل.

ناديت مسرورا واتجهت إلى المدينة، لعلّ الحظ يحالفني فأغنم من الأنقاض ما يجعل حياتي أقرب إلى الراحة. لم يكن في بالي شيء

محدّد عدا بعض ما يمكن أن أعثر عليه من زاد، وإن حالفني الحظ، بعض الكتب. ظلّت صورة الزائر الغريب عالقة بذهني وأنا أغذّ السّير وسط أراضٍ بدأت تستعيد الحياة، وقد نبت على أديمها عشب وشجيرات وألوان من أزهار متفتّحة، وبرزت على أعواد الشجر براعم وأوراق، ولم يبق من جثث الدوابّ غير هياكل عظمية مسودّة نخرة. أما البيوت فكانت مثل رسوم دارسة يعشش فيها البوم والغربان وقد استطالت حول حجارتها الحشائش وتسلّقت الجدرانَ المقوضة.

قدّرت أنه واحد من «الرعيّة الصّالحة» حسب تعبير أجهزة السلطة، أولئك الذين أوقفوا عقولهم عن التفكير، انسجاما مع اللحظة التاريخية التي لم يعد يحقّ أن يفكر خلالها إلا الكبير، حفاظا على راهن يرضي أطماعهم ويشبع حاجتهم، أو ربما كان غافلا عمّا يجري، لم يسمع ولم ير كيف حوّل الكبير البلاد إلى شبكة عظيمة من أجهزة شملت كل القطاعات، ليبسط سلطانه على النّاس، فيسيطر بعد الجسد على الروح ثم على الفكر وحتى على اللاوعي، بل قيل إنه كان يودّ لو يسيطر على أحلام النّاس ليعرف مَن منهم الموالي ومن هو المنفلت من العقال.

استقبلتني المدينة بخراب فادح تقبّض له قلبي كأني ألمحه لأوّل مرة، ولاح الدمار في كل منعطف، فإذا المدينة كأنها بيوت من ورق مقوّى داستها أرجل عابثة، وزادت الحفر الهائلة والجسور المهدّمة والسيارات المحروقة في تعميق المشهد الأليم، وقد نمت على الأرصفة نتف من حشيش مصفرّ، وعمّ الفضاءَ سكون كسكون المقابر المنسيّة،

لا يقطعه بين الحين والحين غير نعيق غربان ونباح كلاب وأصوات بعيدة كابية.

على مشارف المدينة استوقفني نداء جاف مبحوح. التفتّ وفي قلبي خفق مفاجئ، فإذا شيخ ذابل ناحل يعتمر قلنسوة رثّة، ويستر جسده بأسمال ممزقة، يلوّح نحوي بيده وهو مقرفص. دنوت منه ومسرور ملتصق بأذيالي، فإذا رجله مقطوعة وذراعه مبتورة، وهو يفترش ورقا مقوّى، وقد وضع في حقة قصدير أمامه أنواعا من فتات الخبز والبسكويت.

- إلى أين أيها الغريب؟ سألني وهو يرمش عينين كليلتين يغشاهما القذى.

قلت وفي صوتي اندهاش:

- لست غريبا، فهذه المدينة مدينتي.

قال معترضا وهو يلوّح بذراعه المبتورة:

- هه! كانت كذلك قبل الكارثة. الآن هي نهب للمنحرفين وقطّاع الطرق.

قلت وأنا أهزّ منكبيّ باستهانة:

- ليس لديّ ما ينهبونه.

- بلى. حياتك.

- لماذا؟

بصق ما بين أسنانه النخرة شيئا كان يطحنه، وقال وهو يتسوّك بقشّة رفيعة:

- هكذا.(وبصق عن يمينه)، ربما تشفّيا مما كانوا يلقونه في السجون.

قلّبت الطّرف حولي أستكشف مكمن الخطر الغامض، وأرثي مدينتي التي تحولت إلى وكر لصوص، فقال الشّيخ متحسّرا:

- إيه! لكم كنت ناقما على الكبير وشرطته وأعوانه ومخبريه، والآن، صرت أطلب الله أن يبعثهم جميعا، ليخلّصونا من هؤلاء المفسدين.

سألته وقد نما في صدري أمل طفيف:

- قلتَ «يخلّصونا»! هل بقي في المدينة ناجون؟

أجاب في نبرة من فاجأه السؤال:

- طبعا. ولكن أغلبهم حالهم كحالي.

- ماذا تعني؟

اتسعت عيناه الكليلتان وقال وهو يريني عاهته:

- ألا ترى؟

وقال أيضا دون أن أسأله:

- إياك أن تتوغّل في أعماق المدينة، فهناك يعشش المجرمون. اذهب إلى أطرافها، فربما تجد ضالتك.

- ضالّتي؟ سألت في اندهاش.

- وما الذي أعادك إلى الخراب إن لم تكن تبحث عما يقيم أودك؟

وأضاف، وهو يهرش شعره بقوة، ويشير إلى مسرور في نبرة لا تخلو من جدّ:

- حتى لا تضطر إلى أكل كلبك.

ندّ فجأة عن مسرور نباح حقود كأنه فهم كلام الشيخ، وترامى صداه في الأرجاء الخالية.

وجاءني صوته بتحذير جديد وأنا أودعه وأستأنف السير:

- حاذر أيضا من الكلاب فقد باتت هي الأخرى متوحّشة، لأنّ الناس يصطادونها للأكل.

شكرته عن بعد ومشيت أبحث عن ضالّتي كما قال، متجنّبا وسط المدينة وشوارعها الشهيرة، تلك التي كانت في ما مضى تنبض بالحياة وتشهد مراكزها التجارية غليانا لا يفتر، واتجهت نحو الحزام الذي كانت أحياؤه لا تخلو من نشاط وحركة، ومسرور يتبعني ويقلّب نظره حوله في حذر، ويتوقّف أحيانا ليشمّ شيئا أثاره، ثم يعاود الجري ويلحق بي في هرولة نشيطة.

كان يشمل هذه النّاحية من المدينة سكون غامر، يبعث في النفس قشعريرة رعب وسط مبان عالية متصدعة تنذر بالانهيار في أية لحظة، وثمة في الفضاء رائحة غريبة ترين على المكان، وتثير المعاطس والرغبة في الغثيان. وثمة أيضا مبانٍ سليمة أخطأها الدّمار، إلا أنّ الوصول إليها كان محفوفا بمخاطر شتّى. حفرٌ عميقة الغور كأنها فوهات براكين، ألواح خرسانيّة ضخمة متداعية تسدّ جانبي الطريق، أنابيب مثقوبة لا يزال ينفذ منها غاز يصّاعد في الفضاء في لون رمادي كالدّخان قد ينفجر لأدنى شرر.

كنت أخطو بين الخرائب والأنقاض في حذر وتوجّس، ومسرور

يسير من خلفي، حين صكّ سمعي صوت استغاثة فزعة مزّق السّكون المهيب، ووقفت له أذنا مسرور وعلا نباحه. أصخت السّمع وفي قلبي خفق شديد، فإذا امرأة من بناية قريبة تطلب النجدة بصوت مُوَلول. اعتراني خوف واضطراب، وترددت والصوت لا يفتأ يرسل استغاثة مختلجة، ثم عدوت باتجاه البناية والكلب يتبعني في هرولة خفيفة، إلى أن وصلنا إلى باب زال عنه أحد مصراعيه، وصعدنا وسط عتمة كابية مدارج تقوض دربوزها، وتشقّق بعض درجاتها حتى بلغنا الطابق الثاني، والصياح لا يني ولا يفتر، والخفق يملأ صدري، واللهاث تضيق به أنفاسي، والمخاوف تزدحم وتضطرب حتى ما عادت تجد لها في قلبي خلوة.

لم أكن أعرف ماهية الخطر المحدق ولا كيف سأواجهه. كنت مثل غِمْر يلقي بنفسه إلى التهلكة أو معتوه يصارع نارا مندلعة، ولا أدري هل كنت قادرا على إغاثة المرأة أم أنّي سأضيف إلى مصابها مصابي، وليس لي من سند غير مسرور.

وجدت باب الشقّة مواربا فدفعته ودخلت في حيطة وحذر، ومسرور يقفو أثري، وقد بدأ الصّراخ يخفت قليلا ويتحوّل إلى ما يشبه الأنين، كأنّ المرأة أسلمت أمرها أو أخذت تسلم الرّوح، فإذا برجل ضخم الجثّة عريض الجذع عاري الإلية منكب على امرأة ممزّقة الثّوب لا يظهر منها غير ساقيها العاريتين، وهو ممسك بهما بيدين صلبتين مشعّرتين حول خصره المشحّم، وقد انحدر سرواله الرثّ المرقوع على بلاطة غرفة محطّمة الأثاث من أثر معركة.

على ضوء النّهار القادم في شكل حزم دقيقة عبر إحدى النوافذ،

أبصرت كرسيّا تكسّرت إحدى قوائمه، فأسرعت أرفعه، وارتميت على الرّجل أضرب ظهره بعنف، فتكسّر الكرسيّ، وتطاير خشبه قطعا متناثرة. توقّف الرّجل فجأة واستدار نحوي كأنّي داعبته، فإذا بي أمام مسخ ما رأت عيناي أبشع منه. وجه محروق كأنه لطخة طين لزجة، التصق فيها الأنف بفوهة كالثّقب بانت منها قواطع مثلومة، وانطمست عين وبدت الأخرى دون أهداب جاحظةً مرعبة، وتوسّط جبهته المشوّهة أثر جرح عميق كأنه تلمٌ أبيض يصعد حتى أعلى رأس مقبّب جدِعت منه إحدى الأذنين.

بدا الرّجل في وضعه ذاك، وسرواله نازل أسفل ركبتيه حتى تكدّس على حذائه، وقضيبه قائم كقضيب بغل، وشعر عانته مثل دغل كثيف، كأنه وحش مخيف. زحفت عليّ من عينه الجاحظة نظرة ثقيلة مروّعة امتلأ منها صدري اختلاجا، وزمجر بِخَنين أقرب إلى النّخير وهو يمدّ ذراعيه نحوي مهتاجا. وجدت نفسي في وضع لا سيطرة لي عليه، وجرت في جسدي رعشة اصطكّت لها أسناني وركبتاي ولبسني رعب مكين؛ حتى مسرور تجمّد في مكانه مرتاعا ورأسه إلى الأرض. وفي حركة يائسة، والوحش يرمي بكل ثقله عليّ، دبّت في أعماقي ثورة عجيبة أحسست نفسي تجيش بها، وأطلقت رجلي في الهواء بركلة عنيفة باغتته وأصابت منه الخصيتين، فارتد يتلوّى من شدّة الألم والحنق ممسكًا عورته بكلتا يديه وقد تحوّل نخيره إلى قُباع.

في تلك اللحظة صحت في كلبي:

- مسرور! اهجم!

فاستجمع الكلب شجاعته وارتمى على القضيب العاري ينهشه

ويدميه، والوحش يجهد في الذّود عن نفسه وقد غدا قباعه دمدمة، يضرب مسرورا ضربات متعاقبة بقبضة كالصوان. رأيته يسلّ نفسه من أنياب الكلب في صرخة جشّاء مدوّية، ويرمي به رمية موجعة عوى إثرها في ألم، وهو يمعن في الدمدمة وقد تلطخت يداه وفخذاه بدماء نازفة، فلقفت قضيبا من خلف الباب وهويت به على رأسه بقوة. ترنّح قليلا ووقع على الأرض يتشحّط في دمائه وقعة قويّة أثارت من حوله الغبار، وفهق فهقات ألم ثمّ غُشي عليه.

عندما رأيته ملقى على الأرض اعتراني ذهول. لم أصدق أنّ مثل هذا الوحش يمكن أن يوقعه إنسان. بدا أكثر ضخامة ودمامة وذراعاه مفردتان على الجانبين في شكل صليب، وعينه مفتوحة شاخصة كأنه يحدّق في السّقف، وقضيبه آخذ في الانكماش حتى مال وهوى واستقرّ ذاويا ذابلا على وركه، وقد اتّسعت رقعة الدم التي تلطّخ سرواله البالي واندلقت على البلاطة.

كان مسرور قد استعاد توازنه حين أسرعت إلى المرأة أستر عريها، وأربّت بكفّي على خدّيها لإيقاظها قبل أن يعود ذلك الوحش إلى وعيه. بدت ممتقعة شاحبة كأنها رأت الموت في أبشع صورة. رججتها بقوة وأنا أصرخ في وجهها، ففتحت عينيها في فتور، ثم ارتعبت وأطلقت صرخة كتمتها براحة كفّي وقلت:

- لا تخافي. لا أريد بك شرّا.

ساعدتها على النّهوض، فأجالت طرفها حولها كأنها تفيق من كابوس، وما كادت تبصر ذلك الذي حاول اغتصابها ملقى على الأرض في هيئته تلك حتى وضعت يديها على عارضيها، وندّت عنها

صرخة مخنوقة موجزة، وارتمت على عنقي تحضنني بقوّة وتختلج وتهتزّ من شدة البكاء.

هدّأت من روعها، ثم خلصت نفسي من طوقها وقلت:

- بسرعة. لا وقت لدينا. ينبغي مغادرة المكان قبل أن يستفيق أو يستنجد برفاقه.

- وأشيائي؟ قالت وهي تكفكف دمعها بيديها.

- لا وقت قلت لك. سنبحث عن سواها في مكان آخر.

- انتظر! قالت.

واتّجهت إلى صوان أخرجت منه ملابس خفيفة وضعتها بسرعة في جراب من جلد داكن، ثم أسرعت إلى خزانة تناولت منها معطفا من صوف لبسته على عجل، ومدّت يدها إلى درج أسفل الخزانة، وسحبت منه مسدّسا ناولتني إياه.

- ما هذا؟ قلت.

- مسدّس.

- وماذا سأفعل به؟

- تستعمله وقت الحاجة.

واتجهت إلى الباب، وأنا ذاهل أقلّب المسدّس في يدي قبل أن أدسّه في جيب معطفي وألحق بها رفقة مسرور. وجدتها تنتظرني أسفل العمارة، وتقلّب نظرات قلقة في ما حولها، وقد عاد إلى نفسها شيء من الطمأنينة واستعاد وجهها بعض بريق.

في الثلاثين تقريبا، طويلة ناحلة، ممشوقة القدّ، مرفوعة الرأس

والأنف، يغطّي وجهها الناحل نمش وتحوق بعينيها الكستنائيتين زرقة، وشعرها خصل متناثرة في لون الحنّاء.

مدت عنقها نحو نهاية الشارع وقالت:

- هناك، اكتشفت سيارة لا تزال صالحة للاستعمال.

- حسنا. إذا استطعنا تشغيلها، فسوف نحمل فيها ما نحتاج إليه.

- إلى أين؟

- إلى بيتي.

- وأين يقع؟

- في مكان خال لا أعرف اسمه.

- المهم أن يكون بعيدا عن هذه المدينة المشؤومة.

حدّثتني، ونحن نسير باتجاه السيارة الرابضة في نهاية الشارع، عن الأوبئة التي عمّت المدينة وحصدت من الأرواح مقدار ما حصدت الحرب، وعن الكلاب المسعورة السائبة التي غدت في بحثها اليائس عن القوت مثل وحوش ضارية تفتك بكل من يصادفها، وعن عصابات المجرمين والمنحرفين الذين انتشروا في المدينة كالجراد يجوبون الشوارع والمنعرجات والخرائب، يسكرون ويعربدون ويفسقون ويقتلون ويطلقون النار فتلعلع العيارات والرّشقات في أي وقت، كأن المدينة في عرس، وهم يطوفون مشاة أو على متن السيارات والشاحنات التي لا تزال صالحة للاستعمال ولو إلى حين، وقد وضعوا أيديهم على ما في المتاجر والمخازن والبيوت، ولم تسلم من نهبهم حتى المستشفيات والثكنات والسّجون، ينهبونها بغير ضابط، لا يردعهم رادع ولا

يردّهم وازع. وقالت إنها لاذت بهذا المكان المهجور هربا منهم، وظلّت مرابطة به خوفا من الوقوع في قبضتهم، وهي على يقين من أنهم لن يهتدوا إليها بعد أن صفّوا هذا الحي من أشيائه وأهاليه، وكانت تحسب أنها أمنت شرّهم حتى فاجأها ذلك الوحش الممسوخ، دون أن تعلم كيف عرف طريقها.

قالت وهي تزوغ عن الحجارة وأكوام الأتربة والحصى:

- اسمي شامة.

قلت في ابتسام:

- وأنا اسمي المهدي... المهدي بن جابر، وهذا كلبي مسرور.

توقّفت فجأة، وحملقت فيّ لحظة وهي تردّد اسمي على لسانها:

- المهدي... بن جابر! كأني سمعت هذا الاسم من قبل.

وأردفت بعد تردّد:

- أجل. كان أخي يحدّثني عن صديق له يحمل هذا الاسم.

سألت وقد تجلّت الدهشة في نظراتي:

- وما اسم أخيك؟

- عبدون... عبدون التبريزي.

هتفت وعيناي تتسعان:

- أنت أخت عبدون! يا للصّدفة العجيبة! وأين هو الآن؟

نكّست رأسها في أسى، وصرّت عينيها على دمعتين، ثم رقّ صوتها وخضّلته الدموع وهي تقول:

- قُتل.

- تحت القصف؟

- تحت التعذيب.

ورنّت في أذنيّ فجأة صيحات وحشية عالية، ونبح مسرور نباحا يخالطه انزعاج، فأسرعت أسكته وأسحبه إلى مدخل عمارة معتم سبقتنا إليه شامة وهي تستحثني:

- أسرع! هذه إحدى العصابات قادمة!

دلفنا إلى العمارة ولبدنا تحت دربوزها في ركن لا يدركه الضوء، ونحن نصيخ بأسماعنا إلى غوغاء مقتربة تصيح وتتنادى وتقذف بعبارات الكفر والدعارة في زعيق وجلبة، وتطلق بين الحين والحين طلقات نارية تشقّ الفضاء بصفير حادّ، ويدي على فم مسرور أكمّمه لأمنع نباحه.

همست إليّ شامة في خفوت وصوتها يختلج من الخوف:

- المسدّس!

تحسّست جيبي بيد راجفة ويدي الأخرى لا تغفل عن مسرور، وأخرجت السّلاح وأزلت صمّام الأمان استعدادا لما لا يسرّ، وشامة تسرّب إلي رعدة خوف سرت في كيانها. ومن سوء الطالع أن العصابة توقّفت قرب العمارة، وأخذ أفرادها يزعقون ويتخاصمون ويصخبون، وقد رشحت أصواتهم الغليظة وألفاظهم السمجة بأثر السّكر. وطال مكوثهم قربنا فخفت أن يفضحنا الكلب بنباح، وجعلت أقلّب وجوه الرّأي في ما أنا صانع لو اهتدوا إلينا.

وفجأة سمعتهم يهرعون في صراخ وفوضى وقد هيّجهم السّكر، وألهب حماسَهم مشهد غريب. ترقّبت برهة حتى نأى آخر صوت، ثم تسلّلت على أطراف أصابعي إلى الباب أستطلع زوال الخطر، فإذا هم جمع مضطرب هائج حول ذلك الوحش، وهو في وسطهم يشوّر بيديه في حركات عنيفة حانقة، ثم انتشروا يجدّون في البحث عنّا، ولا شكّ أن خبر المرأة قد غذّى أطماعهم وأوغر نفوسهم الحانقة بشهوة مضاعفة. رأيتهم يتجهون إلى البيوت المجاورة يقتحمونها، ثم يعبرون الشارع في الاتجاه المعاكس، وقد صوّر لهم خيالهم الغائم في ما يبدو أنها الطريق التي انتهجناها. استغلق عليّ التفكير لحظة، ثم عدت إلى شامة أسألها عن السيارة، فدلّتني إلى موقعها ونوعها.

أخذت منها الكيس، وسلّمتها المسدّس، وتركت مسرورا برفقتها، وأوصيتها بأن تستعدّ للجري بأقصى سرعة حالما تسمع دوران المحرك.

لم تكن السيارة بعيدة. مرسيدس سوداء راسية بين سيّارة وحافلة محترقتين. أدركتها في حيطة وأنا أحني جذعي، أكاد أمشي على أربع. عالجت بابها بموساي التي كنت أذبح بها صيدي، ونفذت داخلها حذرا حتى انحشرت خلف المقود في وضع لا يبصرني فيه أحد، ثم فككت أسلاكها وجبيني يتفصّد من العرق، وأنا أدعو الله أن يكون بخزّانها وقود وببطاريتها طاقة، وإلا فيا خيبة المسعى.

حين وصلت السّلكين ببعضهما بعضا، قدحت شرارة خفيفة وشخر المحرك ببطء وانطفأ. حاولت ثانية ثم ثالثة فتناهت إلى سمعي أصوات الغوغاء، وقدّرت أنّا هالكون جميعا لو أخفقت. أخيرا أزّ

المحرّك ودوّى بطلق متقطع ثم دار بقوّة، فرحت أضغط على دوّاسة البنزين بيدي، وقد علا حول السيّارة دخان أسود ينضح برائحة الوقود العادم. حين سوّيت وضعي خلف المقود، رأيتهم يعبرون الشارع قادمين يلوّحون بفؤوس وسكاكين وهراوات غليظة. حرّكتُ السيّارة إلى وسط الطريق، وتقهقرت حتى بلغت حفرة تفتح فوهتها فاغرة. نزلت فرأيت شامة تجري يسبقها مسرور، والأوشاب خلفهما يطلقون النّار ويهرولون فيقع منهم من يقع، فجعلت أستحثّهما بالصوت وبالإشارة، وما كادا يصلان ويركبان بخفة حتى انطلقتُ بالسيارة على عجل هربا من الرصاص وقذائف الطوب والحجارة التي كانوا يرشقوننا بها.

كنا في فرحة عارمة نهنئ بعضنا بعضا بالنجاة، حين طلعت علينا في أول منعطف عصابة أخرى. لم يكن ورائي مجال للتراجع. صحت في شامة:

- اخفضي رأسك!

دست بقوّة على البنزين فمرقتِ السيّارة بسرعة جنونية تفرّق جمعهم، وأذهلتهم المفاجأة فتيامنوا عنا وتياسروا مثل طيور أفزعها بغتة صياد، وتراموا على الأرصفة في ذعر ووجل وهم يتصايحون. رأيتهم في المرآة العاكسة يستفيقون من ذهولهم ويصوّبون نحو السيارة أسلحتهم، وقبل أن تنطلق نيرانهم، عرجت بالسيارة يمنة في اتجاه شارع مجاور، وتعالى إثرنا صدى الرّصاص يلعلع في فضاء المدينة المدمّرة.

توقفنا في حيّ بطرف المدينة غارق في سكون عاتم أخطأ القصف جانبا من مبانيه. نزلنا، أنا وشامة، ودخلنا حذرَين إلى بعض البيوت نحمل ما يمكن أن يجعل حياتنا هادئة لمدة غير قصيرة، ونضعه في السيارة حتى ملأناها، دون أن نعثر في أي منها على كتاب، كأن أهلها حرّموا على أنفسهم القراءة. وراودتني نيّة الذهاب إلى بيتي القديم لعلّي أجد فيه كتبي، غير أن شامة منعتني بشدة، وقد تملكها الخوف، وقالت إن الخير في طلب النجاة قبل أن نندم.

وافقتها مرغما وانطلقنا عائدين. ولما بلغنا منتصف الشارع أبصرت خرطوما ملقى على الأرض، فأوقفت السيارة وأخذته، ورحت أبحث في الجوار عن صفائح وسيارات لم يخرب خزانها حتى عثرت على بغيتي، فأخذت أمتصّ البنزين من خزانات الوقود، وملأت بذلك صفيحتين.

كان الليل قد هبط حين أوقفت السيارة أمام بيتي، وأنزلت على ضوء مصابيحها «غنيمة الحرب» كما قالت شامة، وهي تساعدني في رصفها في الحجرة الصغرى حتى امتلأت، ومسرور يتبعني ويدور حولي مبصبصا بذنبه، كأنه يرجوني أن أمنّ عليه بشيء من الطعام.

أشرت إلى الأشياء المكدّسة، وأنا أقدّم للكلب بعض عظام بائتة، في انتظار أن أجد له مما جنينا أكلا يرضيه:

- بهذا يمكن أن نصمد أمام حصار.

ردّت شامة وهي تتفقّد المكان، وتجيل نظرها على ضوء الفانوس:

- ألم تجد غير هذا البيت؟

- أردته في البدء استراحة، قلت، ثم رميت بجذوري في هذه الرقعة من الأرض فعز عليّ أن أغادره.

- حتّامَ؟

- لا أدري.

بعد أن غادرنا المدينة، غابت حينا في صمت وتفكير، وغطّت ملامحها المليحة مسحة من الكآبة. قدّرت أن ما كابدته عقد لسانها عن الكلام، أو أنها غاصت في تجاويف الذاكرة تستعيد أيامها ولياليها وهي مختبئة بتلك الشقة، تعاني الوحدة والوحشة ويملأ صدرها الرعب، أو ربما كانت تسرح بخيالها بعيدا، وهي تكاد لا تصدق ما جرى، فتتصور مآلها لو لم تلقِ بي المقادير في طريقها لأخلّصها من ذلك الوحش.

داخلني شعور، وأنا ألحظها بطرف عيني، وهي مستلقية جنبي تهتز كلما اهتزت السيارة في طريق كثيرة الحفر والحداب، تمدّ أمامها البصر سارحة شاردة، بأني رجل محظوظ، وأيقنت أنّي سأرفّه بوجودها عن الآلام التي توالت عليّ، وبمنظرها الذي تخالط جماله قسوة وكآبة، وبصوتها الرخيم الذي يَعذُب في السّمع ويقع في النفس موقع الماء من ذي الغلة الصّادي، وعجبت كيف هدأت نفسي حين وجدت مصابها أفدح من مصابي، وأنها أولى منّي بالشفقة والرحمة.

فكّرت أن أسألها عن أخيها، ثم خفت أن أنكأ جروحها فعدلت عن رأيي، وإذا هي تفاجئني بقولها:

- حدثني عن عبدون.

استغلق عليّ الأمر برهة وانعقد لساني عن الكلام. أيعقل أن أكون أكثر معرفة منها بأخيها حتى أحدثّها عنه حديثا لا يكون كالقول المعاد؟ لو حدّثت غيرها عنه لفاض بالكلام لساني. ثم ماذا أقول وقد فرّقت بيني وبينه الأعوام والسجون والموت؟ هل أكتفي بالقول إنه رجل اشتملت فيه الكبرياء والأنفة، وضاق صدره بالقهر والضّيم، فأبى وثار وأنفذ رغم الموت قصده، أم أقول إنه أحسّ مما نالها طعنة أدمت قلبه، فاستقر على أن ينتقم لها ولو كان في ذلك هلاكه؟

وكأنها أدركت من صمتي ما كان يعتمل بخلدي، إذ قالت بصوت يرقّ ويختلج، وكفّاها على عارضيها، كأنها كانت تريد أن تخفي عبرات توشك أن تهمي:

- لقد عشت طويلا بمعزل عنه، ولم أملأ منه عينيّ. في البداية كانت الدراسة تحول دون لقيانا، ولما تخرج اشتغل في إحدى المدن النائية، ثم تزوّج فلم يعد يزور البيت إلا لماما، خصوصا بعد وفاة أمي. وعندما استقرّ بالعاصمة كانت يد الشرّ أقرب منه إليّ...

غشيتها سحابة من تلك الأيّام المظلمة التي عاشتها رغما عنها في القصر بين سبايا الكبير، فغلبتها العبرة وجعلت تنشج وتشهق، فمسحت بكفّي على ظهرها أحاول تخفيف دمعها، ونفسي تفيض بحزن كدت أنساه، وإذا هي تمعن في النّشيج والشهيق، ومسرور يقلّب رأسه في حيرة، ولم أشعر كيف انحدرت من عيني دمعة مواساة لم أستطع أن أمنعها. مسحت دمعتي، ثم مددت يدي إلى شامة، فمسكت يدها برفق وضغطت عليها.

مضت تقول، ولا تزال تنشج بين كلماتها:

- كأن الزّمان لم يكفه ما أصابني، فكرّ عليّ بفجيعة أنكى.

ثم سكتت وأغرقت في الصّمت لا تقوى على الكلام، فلذت بالصمت أنا أيضا خوفا من أن أعمّق جرحها الغائر، ولم نتفوّه بكلمة حتى بلغنا البيت.

ليلتها أعدّت العشاء بنفسها، وأقبلنا على الأكل بشراهة المحروم، ثم جلسنا نحتسي أقداح الشاي، وقد ران على المكان سكون شامل يحمل نفحات الليل الرطيبة، وأحيانًا نعيب بومة. وكنت ألمح شامة تتطامن كأن رأسها يميد بها من فرط ما يثقله، وخيالها يضطرب بصور تتوالى عليها سراعا. ولاح من أنفاسها المتباطئة التي تقطعها بين حين وحين بزفرات تكدّر سكون الليل أنّ صدرها ينبض بالألم ويضجّ بالأنين. لكأنها كانت تنتظر الغرّة الملائمة لتجهر بأشياء ثقلت على قلبها حتى صار يخفق في خمود.

حدثتني نفسي مرّة وزيادة أن أقطع عليها تفكيرها بسؤال، وبدا لي أن الأسئلة التي خامرت ذهني كلها محرجة، فقنعت بالإصغاء إلى أنفاسها الضاجة بهواجس سودٍ مظلمة، والرغبة عن إزعاجها تخرس لساني، وإذا هي تبادرني بالحديث، وقد جال على وجهها ظل ابتسامة آسية، كأنها تستقرئ بمرارة شيئا منشورا أمام ناظريها في عالم خاص بها وحدها، عمّا كابدته في القصر، بعد أن غدت في يوم وليلة أسيرة لا تغادره إلا بإذن، فريسة يتناهبها نزلاؤه وروّاده متى شاؤوا، مقيّدة صوريّا باسم زوج تكاد لا تراه . قالت إنّ الكبير كان من عادته أن

يستحلّ العذارى شرعًا لليلة، ثم يطلقهن عند طلوع الفجر ليودِعهن الخدور كما يودَع المتاع، وما ذلك إلا خداع سافر لاغتصاب سبيه من البنات الأبكار، لأنّ الأبكار في رأيه يطلن الأعمار، ثم يصبحن جواريَ يتلقّفهنّ الوزراء والأعيان وقادة الجيش ليقضوا منهن أوطارهم في سهرات خليعة ماجنة، أو يوضعن، مثل سيّارات المراسم، على ذمّة الضّيوف الأجانب ممن تكون له بهم حاجة. ولم تسلم من فسقهم، تقول شامة، حتى بعد أن أمر الكبير بخصاء كل من في القصر عقب انتحار محظيته البوسنية التي اغتصبها ابنه وولّى الأدبار، وما نجت من أيديهم الآثمة إلا حينما دعيت إلى خدمة الغالية، زوجته.

وقالت أيضا إن الغالية، حينما وجدت منها أنَسا، أطلعتها على خبيئة نفسها، فإذا هي تكنّ للكبير وابنه والباش كاتب حقدا لا حدود له، وفي كل مرّة تطلق فيهم لسانها، وتفيض بالحديث عن موبقاتهم وجرائمهم كأنها تشفي بحديثها نقمة، حتى باحت لها ذات ليلة، وكانت تعدّد رذائل الباش كاتب، بظروف مصرع عبدون على يديه. حينئذ، تقول شامة، استقرّ في قلبها عزم على الثأر لأخيها واستجارت بالغالية لإطفائه، فإن لم تستطع أن تنتقم بنفسها من الباش كاتب، فقد تنفّس عن حقدها إذا شاركته فيه زوجة الكبير.

كانت تشفع كلامها بحركات طائشة من يديها، وتقطعه بفواصل صامتة تصرّ خلالها على شفتيها الجافتين، وتبلع ريقها بصعوبة تغالب دفقَ دمع يوشك أن ينهلّ، وفي صوتها الحييّ رنّة حزن لا تخفى. وفجأة سكتت كأنما اعترضت حلقها غصة، فنظرت نظرة ساهمة وهي غائبة في صمت وتذكّر، ثم اختلجت شفتاها قليلا وهي تستأنف القول:

- قبل اندلاع الحرب وتدمير المدينة، جاءتني الغالية بنفسها، وكنت في القصر مقيّدة الحركة بأمر من الكبير، تعلمني بانتحار الباش كاتب. في تلك الليلة، ذرفت دمعا غزيرا، امتزج فيه الفرح بالألم المرّ والقهر والحسرة حتى تقرّحت أجفاني. بكيت فرحا لانتقامي من ذلك المجرم، وبكيت فجيعتي في أخي، وبكيت على نفسي.

وانخرطت في نشيج مكتوم، تخنقها العبرة، وتهزّ صدرها الشهقات، فواسيتها بكلام التعزية والسلوان حتى ملكت نفسها، فمسحت دمعها، ثم علا وجهها السكون وزال عنها الشهيق، واكتسى بدل ذلك هدوءا ينمّ عن راحة بعد إجهاد.

ونمنا، كلّ في غرفة، وقد أدركَنا تعب شديد وحزن ممضّ داريناه بحلكة الليل. ولما صحوت من الغد، كانت شامة قد سبقتني. رأيتها قرب الخرّوبة تمدّ البصر بعيدا نحو الأفق، وقد انحلّت منها عقدة الهمّ، وعاد اللون إلى وجهها وكسته سكينة.

عندما رأتني أقبلت نحوي وعيناها تتسعان، وارتفع صوتها بسرور مسح عن وجهها أمارات الكآبة:

- هكذا أحسن.

كنت قد ملت على «غنيمة الحرب» أغرف منها حاجتي، فغيّرت ثيابي وحلقت لحيتي إلاّ شنبا رفيعا سوّيته مثلما كان أيام زمان، وغسلت شعري الذي انحدرت غدائره على كتفيّ وسرّحته. هي أيضا سوّت هيئتها وارتدت فستانا من قطن رماديّ مزركش، وشدّت

وسطه بحزام بنّي أبرز نحول خصرها ونتوء ردفيها، وانتعلت حذاء بنّيا واطئ الكعب، فبدت في هذا المكان الخالي مثل زهرة برّيّة تفتحت على حين غفلة.

- وأنت أيضا، قلت. لقد ازداد بك المكان جمالا.

ردّت وهي تروزني بعينيها الحلوتين، وابتسامة حييّة ترقص على وجهها:

- هل كنت تقول هذا لو كان المكان عامرا بالنساء؟

- دون أدنى شك.

فانتعش محيّاها وأضاء بزهو الأنثى.

كان صباحا مسفرا عن وجه ربيعيّ جميل، وقد أمرعت الأرض، وازدانت بتشكيلة من خضرة متموّجة ترصّعها أزهار الشقيق الأحمر والنرجس الأسليّ والأقحوان والودح والحرمل، ولاحت الحقول مثل غدران انداحت عليها خطوط متراقصة من لمس النّسيم الفاتر، والأشجار عن بعد مشتعلة بألوان متنوّعة زاهية تلصف تحت أشعة الشّمس التي بدأت تلوّح بوقدتها القادمة. حملت القلّة على كتفي، واتجهت إلى العين، وأنا أتلفّت يمنة ويسرة في قلق وحيرة، أبحث في الأرجاء عن مسرور، الذي اختفى فجأة، حتى أعياني البحث ولم أقف له على أثر.

ولما كان آخر النهار، أبصرته مقبلا يسير على هينته وهو يجرّ ذيله ويغضي عينيه في خجل حتى ليكاد رأسه يلامس الأرض. أقعى عند قدميّ متمسّحا في عواء نزق، وكنت جالسا قبالة شامة أشوي بعض

الحجل والسّمان، ثم أخذ يرفع نحوي نظرة فيها تودّد وفيها اعتذار، وما إن ناولته نصيبا من الشّواء حتى أخذه بين أنيابه، ومضى لا يلوي ولا ينثني حتى غاب عن الأنظار.

نهضت أتعقّب أثره وقد رابني أمره، فإذا هو يتسلّل خفيفا بين أعواد الطرفاء والصبّار والحشائش النابتة حتى بلغ مغارة صغيرة يلف مدخلها غيل، فازددت ريبة ودنوت، وإذا هرير وانٍ ثم عواء خافت فيهما رضى وشكران يملآن سمعي، وأدركت، وأنا أتراجع مبتعدا على أطراف أصابعي، وابتسامة تحرك رأسي، أن مسرورا وجد ضالته.

عندما أعلمت شامة بذلك تبسّمت، ثم ردّت عني طرفها وقالت ورنّة حزن خافتة تمازج صوتها:

- ما أسرع ما عادت الطبيعة إلى الحياة. أتعرف لماذا؟

- ...

- لأنّها محكومة بالغريزة. أما البشر...

- وما الذي يمنع البشر من ذلك؟ سألت.

- لأنهم مكبّلون بشيء أقوى من الغريزة.

- ما هو؟

- الذّاكرة. الذاكرة بما تختزن من آلام ومآسٍ وفواجع تفسد علينا كل متعة.

- ولكننا وُهِبنا النسيان، فهو بلسم للجراح.

تنهّدت بعمق ونظراتها لا تزال في شرود وأردفت:

- النسيان لا يأتي على كل شيء. ثمة أشياء تظلّ مطبوعة في

الذاكرة مدى الحياة. ثمّة جروح تكاد لا تلتئم حتى يعيد التذكّر وَغْرها، فإذا هي طريّة نازفة كأنها وليدة اللحظة.

وصمتت برهة وهي مطرقة، ثم أضافت:

- ثم إن النسيان مرهون بالزمن.
- وبقدرة المرء أيضا على طيّ الماضي.
- هناك أمور تهجع في ذاكرة المرء حتى ليخالها ولّت واندثرت، ثم تنبجس فجأة، هكذا، دون مقدمات.

ومضت بنا أيّام ونحن في حركة دائبة، نملأ أوقاتنا بالصيد والغراسة والتجوّل في الأراضي المجاورة، نحاول أن نغسل عن كرامتنا ما أصابها من هزائم، ولم يبق من ذكر الكبير غير أحاديث تساق في السّمر للتندر، عن المهازل التي كانت تحدث في القصر كل يوم، وعن الكبير الذي لم يكن يسمح حتى لضيوفه المبجلين بأن يصافحوه إلا بعد أن يغسلوا أيديهم بنترات الفضّة، وكيف أنه كان دائما مرتابا من حاشيته وبطانته، حتى أنه وضع في خدمته رجلا يذوق له الطعام والشراب خوف التّسمّم، وكان إلى ذلك يخضع وزراءه وأعوانه لعمليّات تجسّس منظّمة، ونستعيد في سخرية مرّة مزاعم أبواق دعايته التي طالما صدّعت المسامع بمدح بطل عربانيا الذي لم يكن له في الكون كفؤا أحد، والتغنّي بسيرة سيّدها الذي تعجز النساء أن يلدن مثله، وإن تطاول الدهر حقبا وراء حقب.

وفي ظهر أحد الأيّام، خرجنا نتجوّل كالعادة على متن السيارة، وتركنا مسرورا وشأنه، فقادنا السعي إلى بيت واسع مهجور يقع

وسط بستان كثير الشّجر المثمر، به بئر بمحرك وجابية وإسطبل. بيت يتقدّم واجهته سياج واطئ تتخلله كرمة بأغصان جرداء كأنها ثعابين ملتوية، وتحيط به من الجهات الأخرى طوابي التين الشوكي، وتلفّه خضرة المراعي المترامية. وجدناه عامرا إلا من أهله، ولا شكّ أن الرّعب ملك قلوبهم في ما يبدو ففرّوا إلى مكان آمن، وتركوا أثاثا سليما يشغل غرفه الفسيحة، وقد تكدّس عليه غبار سميك، ورانت عليه رائحة البيوت المغلقة.

نظرت إليّ شامة نظرة متواطئة وسألتني:

- ما رأيك؟

وكأننا زوجان مقبلان على شراء بيت أو كرائه. لم يخامرنا لحظة احتمال عودة أصحابه، وكنّا طوّفنا في النواحي القريبة وحتى البعيدة قليلا دون أن نلمح أثرا لقدم ساعية.

قلت وقد أزمعت أمرا:

- هذا بيتك.

وما كادت تردّ مصحّحة وهي تغرز في عينيّ نظرة اكتست فصاحة البيان، وابتسامة حلوة تزين سحنتها:

- بل بيتنا.

حتى خفق قلبي، ومنّيت النفس بحياة يستعيد فيها المرء آدميته كاملة، كي لا يكون أقل حظّا من مسرور، وتبادلنا بسمة موحية تعبق بأريج الفرح القادم. تفقّدنا الغرف وأشياءها التي لم تبرح مكانها، وألقينا نظرة على البستان الذي غزته الحشائش وارتفعت، حتى

طاولت الأشجار ذات الأغصان المتشابكة والفروع المتداعية، ثم على إسطبل مغطّى بألواح من الزّنك تكدّست فيه الأوساخ وتيّبس الروث وأخثاء البقر. وفي قاع الجنان، حيث أشجار سرو وسياج من التين الشوكيّ، اكتشفنا في فرح متوهّج بضع دجاجات لائذة بقنّ مهمل، رفعت عقيرتها إذ رأتنا بقوقأة ذعر وهلع.

أخذنا طريق العودة وفي البال عزم على تحزيم أمتعتنا والانتقال إلى البيت الجديد. في السيارة، غشينا صمت لذيذ دافئ، ولاذ كلانا بنفسه يرتّب أشياءه الجميلة، ويستعرض في خياله صورا مرتجاة يطمس بلألائها آلامه، ويقدّ من عبيرها أكاليل الغد المشرق، وقد بدت لنا الطبيعة، برغم خلائها وقفارها، جنة الله على الأرض. وفي لحظة، وجدت يدي تمتد إلى شامة لتمسك يدها في ضغطة حانية، قابلتها بحنوّ ونفَس ارتياح عميق.

عندما وصلنا وجدنا في انتظارنا مفاجأة مذهلة.

مسرور يخطر مزهوّا وبجانبه كلبة شهباء من فصيلة كلاب الرّعاة تدلّت أطباؤها، وحولهما ثلاثة جراء صغيرة قصيرة الأذناب تنطّ وتتهارش وتتمرّغ على التراب، وتهرّ هريرا أشبه بالمواء، تملأ الرّحب بدفق الحياة.

قفزت شامة وجرت نحوها في فرحة من رأى أطفاله بعد غياب، وهمّت أن تلقف أحد الجراء لترفعه بين ذراعيها، وإذا بالكلبة تطلق نباحا غاضبا كأنه زئير مخنوق، وقد ثبتت أرجلها حتى حفرت آثارا في التراب، وقرّبت جسدها من الأرض تتحفّز لوثبة تدفع بها الخطر

عن صغارها، لولا أن مسرورا ارتمى عليّ مغتبطا حتى كاد يوقعني. أحسّت الكلبة الأمّ فرحته بقدومنا فهدّأها ذلك المنظر، وعاد إليها السّكون والاطمئنان.

اعتراني من ذلك سرور دافق وأنا أمسح على رأس كلبي، وهو يبصبص بذنبه وينظر إليّ كأنه يلاعبني، بينما انشغلت شامة بأحد الجراء تحضنه وتضمّه إلى صدرها بقوة، وتمسح على شعره الناعم، وتقبّله بحنان، ثم أقبلت على الكلبة وجثت قريبا منها، والتفتت إليّ لتقول:

- سأسميها ميمونة. ما رأيك؟

- نعم ما تختارين يا ...

كدت أقول «عزيزتي»، ثم تمالكت، ولجمت لساني في آخر لحظة، وكان يوشك أن يفضحني وينطق بما يعتمل في صدري، ولكن شامة، وقد التقت عيناها بعيني في نظرة حميمة مترقرقة، لم يفتها من أمري ما أخفيت. أدركَت قصدي، فضحكت من خجلي وقالت في غنج:

- العيون مداخل إلى القلب.

- وهل دلّتكِ على ما فيه؟

- منذ أيام.

- بل أكثر.

- ولماذا كتمتَ أمرك؟

- لكلّ شيء أوان.

كانت تلك أوّل مرّة يجري فيها الحديث بيننا، ولو تلميحا، مجرى

البوح عمّا يجيش في الصّدر من لواعج الوجدان. كأنّ شعورا خفيّا كان ينضج على نار هادئة. والحقّ أنّ قلبي ما فتئ ينبض بخفق غير معهود منذ أن استجارت بي، ولم ينطلق به لساني، ربما لأني أربأ بنفسي أن أكون كالقدر المحتوم، ليس لها منه مهرب، وهي التي لم تمنحها الحياة فرصة اختيار. قلت في نفسي إن شاءت شئت، وإن أبت كظمت أمري في مهجتي وعشت، كما اعتدت، عيشة الرّهبان، فلا خير في حياة لا يكون فيها الحبّ جامعا بين اثنين.

لم ألمس مرّة في نظراتها ولا في كلماتها ما يوحي بأن قلبها يجدل في أعطافه ضفائر الوجد والهيام. كانت متّزنة، عميقة، لها رجاحة عقل تذكرني بعبدون، حتى ساورني ظنّ ذات ليلة مسهدة أنها ليست كالنساء، ولا يخامرها ما يخامر الأنثى.

وقت العشاء، كانت واقفة تعدّ طبيخا فائح الرائحة حين دنوت منها حتى لامست كتفي كتفها، وقلت مستجمعا شجاعتي لأفصح عن أمر ضاق به الصّدر ولَجّ به الخيال:

- هل ترضين بي زوجا؟

توقّفت يدها لحظة عن تحريك القدر كأنما هي آلة انقطع عنها التيار على حين غرّة، ثم استأنفت عملها في صمت حتى خلت أنها لم تسمع ما قلت، أو أنها سمعت ولم تفهم. ومرّت ثوانٍ من سكون ثقيل يرهق السّمع ويعتصر الأمعاء، قبل أن تقول وهي لا تفتأ تحرّك القدر:

- هل كنت تميل إليّ لو كان حولنا نساء أُخَر؟

- بكل تأكيد، أجبت دون تردّد.

- ألا تخشى الشّعور بالنّدم بعد ذلك؟

- لِمَ؟

مطّت شفتيها في زمّة من يغالب دمعه وأردفت:

- لأني لستِ امرأة ككل النساء.

قلت مبتسما أحاول تهدئتها، وأنا أدرك ما تكابد:

- إن هي إلا جروح أصابتك كما أصابتني، ولم نكن نملك لردّها حولاً ولا قوّة.

وكأن ذلك حلّ من مأساتها عقدة، استدارت نحوي، وألقت يديها على كتفيّ تطوّق بهما عنقي، وأمالت رأسها على صدري، وانفجرت تنشج بالبكاء. ضممتها إليّ بقوّة، وداعبت كتفيها ورأسها ولثمت شعرها، وإذا هي ترفع نحوي عينين تنديان بالدمع والحنان، وتضع كفّيها على عارضيّ، وتقبّلني من فمي قبلة ندية ساخنة، ثم تسحب نفسها بخفّة، وتعود إلى القدر تحرّكها وتصبّ فيها كوبا من الماء بعد أن أوشك مرقها أن يشيط.

بقيت برهة كأني في ذهول الحلم، أستطعم طراوة شفتيها وحرارتهما، واعترتني نشوة ثمل بها كياني، وغمرتني سخونة صعدت حتى رأسي، واتّقدت لها أذناي، وإذا صوتها الهادئ يردني إلى صحوتي:

- سيكون زواجنا في البيت الجديد.

وقالت أيضا وهي ترفع القدر عن موقد البريموس:

- عندما نعدّه ونرتّبه نعيش فيه عيشة الأزواج.

قلت في ما يشبه الشكوى:

- وهل أصبر حتى ذلك الوقت؟

فحوّلت عينيها عنّي وفي صوتها رنين اللّوم:

- صبرت على التعذيب سنين طويلة، ولا تقدر أن تصبر على الفرح ولو أياما معدودة؟

بعد العشاء، جلست بجانبي، أكثر قربا من ذي قبل، كأنّ الرباط الذي فتلنا ألیافه في صمت وخفية أياما وليالِيَ، بدأ يشدّ بعضنا بعضا ويلتمس لتَدانينا العلل، وداخلني إحساس حادّ ألا أحد يقدر أن يسلّ من قلبي الحبّ الذي ملأه وملك عليه زمامه.

ولاحظت عليّ شرودي فسألتني:

- فيم تفكّر؟

فزممت شفتيّ وصمتّ لحظة، ثم قلت كأني أحدّث نفسي:

- أفكّر في زواجنا الغريب.

- غريب؟ سألت وهي تسدد نحوي نظرة دهش يخالطه ريب.

- لا عدول ولا شهود ولا صداق ولا مهر ولا زفّة.

- وهل تحتاج إلى نظرة الآخر كي تكون سعيدا؟

فتداركت كلامي وقلت مبتسما:

- إنما أردت أن أشهِد الناس أجمعين على سعادتنا.

فهزّت كتفيها وأردفت في بسمة وانية:

- خير السّعادة ما كان مستورا. على الأقلّ لن يعكر صفونا ما ينخر حياة المحبّين من شكّ وغيرة.

تذكّرت كلاما كان عبدون يردّده كلما سمع زعيق السيارات وهي تجوب الشوارع في مواكب الأعراس الصيفية فابتسمت. كان يقول: «كأنّ الواحد منهم يصرخ بأعلى صوته: أيّها الناس اسمعوا وعُوا! إنّي الليلةَ مقدِمٌ على افتضاض بكارة أنثى برضى والديها وبعلم عشيرتها وتزكية السلطات! والحاضر يعلم الغائب!».

وعلا فجأة خارج البيت نباح مسرور يمزّق سكون الليل، فتداعت له أصوات ميمونة وجرائها بالنباح، ثم خرست وعادت إلى الهمود، فندّت عن شامة ضحكة وهي تمدّ عنقها ناحية الباب وتقول:

- إن كان لا بدّ لك من شهود، فليس أمامك إلا هؤلاء.

جاريت ضحكتها بابتسام، وإذا هي تتدارك قولها، وتنظر في عينيّ قائلة، وقد استعادت ملامحها أمارات الجد:

- إنما نُشهد الله الذي يرانا ولا نراه.

ونهضَت بعد أن أخذ منها التعب والنّوم مأخذا عظيما، فخلوتُ إلى نفسي أرتّب الهواجس التي تزدحم في صدري حتى غلبني النعاس. ولما صحوت من الغد في بكرة الصباح خرجت أحوّم في البرية صحبة مسرور، وعدت بقواع سمين ذبحته ورميت بأمعائه وأرجله للكلاب تتناهشه في هرير مسموع، وحملت اللحم إلى شامة، وكانت قد أفاقت من النوم وسوّت زينتها، لتعدّ لنا أكلاً قبل أن نشرع في تحزيم أمتعتنا والانتقال إلى البيت الجديد.

مرّت ساعات ونحن نرتّب أشياءنا، ونصرّ أمتعتنا، ونقتلع من

الخضر حاجتنا للأيام القادمة، ونضعها في أكياس، ثم نرصفها في السيّارة، والكلاب من حولنا تدور وتلهو وتتهارش أو ترغث أطباء أمّها، إلى أن حان وقت الغداء.

كنت أتفقّد السيّارة حين ارتفع النباح، وهبّ مسرور مسرعا باتجاه الثنية التي تقود إلى بيتي، تتبعه ميمونة وجراؤها. رفعت رأسي فلمحت عن بعد طيفا مديدا يتوكأ على عكّاز. تركت ما بيدي وهرولت أنهر الكلاب حتى لا تنهش القادم، وقد عرفت فيه ذلك الزّائر الغريب الذي اختفى فجأة.

ظلّت الكلاب تنبح نباحا متقطّعا محتشما، والرجل يغرز العكّاز في الأرض مستندا بكل ثقله، ويخطو بخطى بطيئة واهنة كأنه يخسف في الرّمال حتى وصل. جرت عيناي على ثيابه المغبرّة المتهرّئة وشعره الأشعث وظهره المقوّس وحذائه الممزّق، وسمعته يلهث لهاثا يكاد يخنق أنفاسه، وهو يمدّ يدا راعشة إلى جبينه العرقان بمنديله الذي حال لونه إلى صفرة وسواد، فأشفقت عليه.

قلت مرحّبا:

- أهلا وسهلا.

ردّ على تحيتي بهزّة من رأسه، ونظرة هاربة من عينيه اللتين غشيهما التعب. ألقى نظرة على السيّارة، ومدّ عنقه مشيرا إلى الحجر المركون تحت الخرّوبة كأنه يدعوني إلى الجلوس. جاريت خطوه الواهن إلى أن قعد وأرسل زفير ارتياح، فجئته بشربة ماء رطّب بها حلقه، ثم تنفّس إثرها الصعداء بقوّة حتى خلت أنه لفظ أنفاسه.

كانت الكلاب لا تزال تدور حولنا وتتشمّم مرتابة، حين أعدت التّرحيب وأضفت، وأنا أروز سيماءه:

- أين اختفيت يا رجل؟

لمعت في عينيه فجأة تلك النّظرة الثاقبة لمعانًا كالبرق الخاطف، سرعان ما انطفأ، وحوّل عنّي وجهه، كأنه لم يحتمل منّي تلك اللفظة ولم ينطق بكلام. كان بادي الإرهاق وقد غطّت الغضون وجها اعتراه تجهّم ونحول، وتيبّست أصابعه كأنما أصابها برد وخَصَر، وترهّل جسده ونحل فاتّسعت عنه أهدامه وبدت فضفاضة. حتى قميصه المصفرّ، الذي علته أدران العرق والغبار، اتّسعت ياقة رقبته حول عثنون متدلّ كجلد قربة خاوية.

عدت أسأله محاذرا إثارة حفيظته، وأنا ألمس من انخرام هيئته وسرعة انفعاله أن سعيه باء بالفشل:

- هل عثرت على ناجين؟

فأطرق قليلا، ثم تبسّم ابتسامة ضئيلة وقال:

- لقد كابدت وَعْث الطّريق من أجلك.

- من أجلي أنا! لماذا؟

تابع بنظره الكلاب، وقد عادت إلى ضباحها وهراشها المرح بعد أن اطمأنّت إلى الزائر، وقال متجاهلا سؤالي:

- الكلاب أكثر وفاء لهذه الأرض. انظر. لقد استطاعت أن تلمّ شتاتها وتعيد دورة الحياة، وعمّا قريب سوف تتكاثر وتعمّر البلاد.

- هل أفهم من كلامك أنّك لم تعثر على أحد؟
- بلى! ردّ بشدّة.

ثم ركز فيّ نظرات حادّة، وأضاف وهو يمد يده بعيدا نحو الأفق:
- هناك، خلف تلك الجبال، وجدت امرأة هي مفخرة لعربانيا. قالت إنها ترفض أن تغادر أرض الأجداد ولو سامها الأعداء العذاب والويل. وقالت أيضا، غدا ستعمُر البلاد وتعود إلى سالف مجدها.

سألت، وكأني أحدّث نفسي، وقد امتلأ قلبي شفقة على هذا الشّيخ المتهدّم الذي ما زال يحمل هموم عربانيا، ويحلم لها باستفاقة تنفي الذلّ وتعيد الشّرف، وكان مسترسلا يستعيد كلام المرأة بانتشاء:
- وماذا يمكن أن تفعل امرأة وحيدة؟

وإذا به ينتفض ويمدّ يده فيمسك ذراعي بشدّة، ويتلفّت حوله حذرا كأنه سيفشي سرّا لا ينبغي لغيري أن يسمعه، ويميل عليّ ليقول في همس:
- لذلك فكّرت فيك.
- أنا؟
- هي تكبرك بسنوات قليلة لا محالة، ولكن هذا ليس مهمّا. المهمّ أن رحمها لا تزال خصبة.

نترت ذراعي من قبضته، وقلت في دهش يشوبه استنكار:
- ماذا تخرّف؟

فشعّت في عينيه تلك النظرة التي لم يفلح سنّه المتقدّم في تخفيف

حدّتها، وقال بصوت تصنّع له اللين:

- ألستَ تريد الخير لهذه البلاد؟

- بلى، ولكن...

قاطعني وهو يحرّك سبّابة راجفة في شتّى الاتجاهات:

- فكيف تريدها أن تعمر إذن ويعود إليها المجد الذي طاولت به الأنجم؟ هه! هل تكون هذه الكلاب البكماء أكثر منك وفاء وأحرص على حفظ السلالة؟

وقبل أن أفتح فمي بكلمة ألفيته ينهض قائما، وقد استعاد في لحظة هيبته القديمة، ويلوّح بعكازه في الفضاء مشيرا إلى الأراضي الفساح، وراح يقول بنبرة غليظة فيها بحّة كأنه يلقي خطبة:

- لتعلم أن القدر اصطفاك لتؤدّي واجبا مقدّسا سوف يحفظه لك التاريخ مدى الحياة. لا وقت لدينا للتفكير والتردّد: إنها لحظة تاريخية، وسينفخ نسلك الرّوح في هذه الرّبوع، وغدًا تزدان عربانيا بأبنائك ويكتب لها الخلود.

وقال أيضا: «ألا تعلم أن النّفس الواحدة يفتدى بها أهل البيت، وأهل البيت تفتدى بهم القبيلة، والقبيلة تفتدى بها البلاد إذا نزلت بها حاجة؟».

وعلا صوته فأطلّت شامة، وفاحت حينما فتحت الباب رائحة الأكل فغمرت خياشيم الرّجل الغريب، وإذا هو يتوقّف فجأة عن الكلام ويتشمّم، ثم يقول:

- هِمْ! رائحة طعام شهيّ.

وإذا شامة تقول في نبرة لم أعهدها منها:

- ليست أشهى من أطعمة القصر.

التفت الرّجل صوبها، وأطال النّظر إليها، ثم سألها في دهش يخالطه ريب:

- أتعرفين القصر؟

- وأعرف كل من فيه، ردّت شامة بجفاء، وهي تحتمل نظرته بنظرة تتّقد بشرر كأنه النار.

أخذ الغريب يحدّق فيها، وكأنه يسترجع وجها سبق أن رآه، ثم سألها وهو لا يزال يروز سيماءها:

- وفي أي جناح كنت؟

- كنت من مقرّبات الغالية. أتعرفها؟

- هه! امرأة حمقاء. قال وهو يهزّ كتفيه باستهانة.

- ليست بالحمق الذي تتصور.

سألها، وهو يمسح بكفّه على لحيته الكثّة، ويميل برأسه إلى الوراء ويزوّي حاجبيه:

- من أنتِ؟

- ما كنت أحسب أنّك ضعيف الذاكرة. أنا شامة، أخت عبدون التبريزي. أنسيت؟

أرسل نحوها نظرة قاسية ولم يتفوّه بكلمة، وإذا بشامة تستأنف صارّة على أسنانها في تشفّ:

- وهي التي ساعدتني على الانتقام لأخي من الباش كاتب.

في تلك اللحظة أدركت هويّة الرّجل، ومرّت بي خطفا ذكرى لقائي به، وعجبت كيف لم أتعرّف عليه، لا في المرة الأولى ولا هذه المرة، ثم تتالت تلك الصّور التي كانت تقتحم غصبا ذاكرة كلّ فرد من أفراد عربانيا. نظرت مبهوتا إلى هذا الرّجل الذي كان مثالا للصّلف والكِبْر، لم يعرف في حياته غير الأمر والنّهي، والقمع والزّجر، وقد تضعضعت نفسه وانطفأت فيه سَورة الكبرياء التي كانت تدفعه وتجمح به. تلفّتَ خلفه يبحث عن مقعد، وهو يكاد لا يرى ما أمامه من شدّة غضبه المكتوم، ثمّ جلس على الحجر تحت الخرّوبة في حركة من يقتعد الشّوك، وأغرق في الصّمت مطرقا في هيئة من أصابته طعنة غادرة بين لوحتي الكتف، وإذا بشامة تلاحقه بصوت فيه رنّة التشفي والشّماتة:

- الغالية هي التي رتّبت كلّ شيء، وكانت منذ البداية على علم بخطّة الباش كاتب، ورغم ذلك لم تمنعه.

كوّر قبضته بقسوة وتمتم من بين أسنانه:

- الخائنة!

- أتعرف لماذا؟ واصلت شامة كأنها لم تسمع تعليقه... لأنها كانت تريد أن تتخلّص من ابنك بأية وسيلة، ثم تشدّد الخناق على... صاحبك، حتّى تقضي عليه. تريد أن تعرف التفاصيل؟

بقي صامتا لا يقوى على الكلام، فواصلت:

- أنا لم أكن أعرف ولا واحدة من البنات الثلاث...

وتوقّفت تستحلي أثر الصّدمة في جحوظ عينيه، وأضافت:

- ... ولكن الغالية أخبرتني بكلّ صغيرة وكبيرة، وأعلمتني بأن

جليلة بركة حملت إليها ما كانت تخطّط له هادية حمدي تنفيذا لأوامر الباش كاتب، فأمرَت بإبعادها في مكان مجهول. كانت تريد أن تضبطه بالجرم المشهود وتجبر خادمته على الاعتراف، غير أنه كان أكثر دهاء منها، إذ سرعان ما محا كل أثر لخيانته، وأزال بالقضاء على خادمته هادية حمدي دليل الإدانة.

وما زالت تفيض عليه بالتفاصيل، والألفاظ تنساب من فمها تباعا، بلا تعثّر ولا توقّف ولا تردّد، وهو صامت مطرق بوجه يقطر السّمّ، وما كاد يسمعها تقول إن الغالية هي التي أوعزت للمكّي حسونة بأن يذكر عنده سيرة الكبير الثاني، وهو الذي لم يُعرف له مكان، حتى رفع رأسه منتفضا وسأل:

- حسونة تواطأ معها على نفي ابني؟

- لا، بل على إيهامك بأنه قابله، والتكتّم على الحديث المزعوم الذي نقله على لسانه حتى تحدّثك به الغالية، فيبدو الأمر حينئذ أقرب إلى الصدق، وتنطلي عليك الحيلة.

ارتسمت على سحنته المتجهمة أمارات الحيرة وهو يسأل:

- ولأية غاية طاوعها حسونة؟

فأرسلت شامة ضحكة طويلة مصطنعة تكاد تكون ماجنة، ثم قالت تمعن في إذلاله:

- ألا تعلم؟

وصمتت حتى يستقرّ الشكّ الأليم في صدره، وهو شاخص إليها يركّز في وجهها نظرة قلقة، ثم أردفت:

- يا لبؤس نفسك! ألا تعرف أن حسونة هو عشيق الغالية؟
- هراء! صاح بشدّة وهو ينفي كلامها بحركة من يده. لا أحد يصدّق ما تقولين. لقد أعماك الحقد فجعلت تختلقين الأكاذيب. هذا كلّ ما في الأمر.

ثم صرف وجهه عنها، وندّ عنه صوت ساخر يشبه الضّحك، وهو يقول من بين أسنانه:
- حسونة! ذلك الغرّ الذي يخاف من ظله... عشيق الغالية!

وإذا بشامة تضع إحدى يديها على خاصرتها، وتقول وهي تشوّر بيدها الأخرى في هزة رأس ساخرة:
- ألم تتساءل مرّة من ذا الذي سعى إلى الباش كاتب كي يعيّن حسونة وزيرا، وقد وصفته بنفسك بأنه غرّ لا يفهم السّياسة؟

وسكتت برهة حتى تستقرّ كلماتها في مستقرّها من حفيظته فتزيدَها اشتعالا وضراما، وأردفت:
- كانت تريده عينا على قرارات مجلس الوزراء لغاية لم تذكرها. لعلّها كانت تريد أن تهيّئه لخلافتك، ربما، أو تستعين به في الانقلاب عليك... من يدري.

وإذا به يقوم قومة عنيفة رافعا صوته في هياج كأنه الخبَل، حتى انتفضت الكلاب وأخذت تحوم حولنا مستريبة، ويصيح:
- لن يخلفني أحد ما دمت حيّا! أنا الكبير سيد...
- ... كبير في السّنّ، قاطعته شامة في سخرية زادت من هياجه.

وأشارت إليه باحتقار، وهي تخاطبني وعلى فمها ابتسامة شامتة:

- انظر! صدق من قال: «اخلعوا عن الملك جنوده وأسلحته تروه عاريا!».

صرّ على العكاز بقبضة شديدة كالمعصرة، وقد أحسّ من تلك الكلمة التي سمعها طعنة يكاد قلبه يتمزّق لها غيظا، وزادت حقده التهابا واتقادا، وابتعد بضعة أمتار متعثرا يكاد ينكفئ. وكان في ثورة نفسه يتحرّك في اضطراب، فيخطو نحو وجهة، ثم يرتدّ عائدا إلى وجهة أخرى. ثم توقّف واستدار ملوّحا بسبّابته في تهديد، وصاح في شامة وأطرافه ترتجف من الحنق:

- سوف تندمين!

ثمّ توجّه إليّ قائلا كأنه يستنجد بي في حيرته:

- فكّر جيدا. إنّ حقّ عربانيا أكبر من حق الأمومة عليك. المرأة في انتظارك فلا تنسَ.

صحت فيه:

- ولم لا تتزوّجها أنت وتخلّف لعربانيا رعيّة جديدة تحكمها... إن كان في عمرك بقية؟

استغلق عليه القول برهة، وسكت يغالب الطّعنة الجديدة التي أصابت منه مواقع الألم، ثم بلع ريقه، وقال وهو يشفع كلامه بحركة من سبابته، وقد لمع الشرّ في نظراته:

- اسمع نصيحتي قبل أن تندم. لا يغرّنّك شباب هذه المرأة. ما هي إلا جارية تداولها الرجال كما تُتداول القيم المنقولة.

وكأن شامة كانت تنتظر تلك الكلمات لكي تفرج عن رغبتها

المكتومة في الانتقام ممن لوّث شرفها وكان سببا في القضاء على أخيها وضياع البلاد. صاحت بصوت حادّ تأمر ميمونة بالهجوم عليه وقد غلبها الغضب، وامتزج في قلبها حقد المرأة الموتورة بحزن الأخت المفجوعة. وقبل أن تندّ عنه حركة، كانت الكلبة قد وثبت عليه فمزّقت سرواله، وعضّته في فخذه وكادت تنزع نَساه، فتراجع في هلع شاهرا عكازه، وخرّ على الأرض في نداء استغاثة مخنوق. أسرعت إلى الكلبة أبعدها عنه وأخلّصه من أنيابها. حاول أن يقف على قدميه وهو يترنّح من ضعف الشيخوخة ووهن الأيام المثقلة بالوجع وهول الصّدمة، فمددت إليه يدي كي أساعده، غير أنه رفضها واستعان بعكّازه فنهض، وسار بغير هدى وهو يعرج مضطربا يكاد يتعثّر في خطاه، وقد سال دمه عبر سرواله الممزّق وبان جرحه. وكان في سيره المضطرب يغمغم بكلام مبهم متقطّع كأنه يخاطب نفسه، حتى ظننت أنه جنّ من وقع مصابه، ثم سكت لا يقوى على الكلام، وعاد إلى مجلسه تحت الخرّوبة. أيقنت أن قلبه جائش بالألم والقهر، ورأسه مضطرم بما فيه من الهموم، فلم أشأ أن أزيد آلامه بلوم، أو أن أذكّره بما مضى من بغيه وجوره.

كانت شامة قد انسحبت إلى البيت، فتركته وسعيت خلفها، فإذا هي تجمع آخر أشيائها وهي تنشج بالبكاء. حينما رأتني قالت:

- يجب أن نرحل في الحال. لا أحتمل رؤيته.

لم تعد لي رغبة في الأكل أنا أيضا. حملت الأمتعة ورصفتها في السيارة، ثم ناديت الكلاب فاعتلت أكوام العلب والصّرر في الخلف، ولحقت بنا شامة وقد حال لونها واربدّت قسماتها. شغلت المحرّك فأرسل شخيرا تعالى إثره دخان داكن غمر المكان برائحة قوية، ثم

بدأ يدور دورانا يميل إلى الهدوء، ونزلت متوجّها صوب الكبير وهو جالس في مكانه ينوس مثل ذبالة شمعة توشك أن تنطفئ.

حينما رآني مقبلا، قوّم جذعه ونفخ صدره وقطّب جبينه وزوّى حاجبيه واستعاد هيبته المفقودة، ثم بسط رجليه واتكأ على عكازه، واتقدت في نظراته تلك الشعلة الدموية، كأنه أنف حتى اللحظة الأخيرة أن يُرى في وضع لا يناسب قدره. كأنه لا يزال يتمثّل صور المعارك التي يدّخرها، والنصر الذي يعتزم تحقيقه، والأعداء الذين سيسفك دماءهم، والخلق الذين سيهتفون بحياته. أحسست وأنا أقترب منه أنّ دثور عربانيا لم يزده إلاّ قسوة، وأن تعطّشه إلى السّلطة لا يزال يضطرم في قلبه المكدود. حسبه أن يجد في هذه الرّقعة الباقية من يخلف رعيته.

رفع رأسه ومدّ عكّازه باتّجاهي كأنه يريد أن يحدّد لي المسافة التي لا ينبغي أن أتجاوزها، وقال بصوت جهد كي يكون ذلك الممتلئ العميق الذي خاطبني به يوم أمر بإحضاري في مكتبه بالقصر:

- لقد أخطأت في حقّ البلاد مرّتين. الأولى حين عصيتَ أمري، والثانية حين سمحتَ لتلك الجارية بخدش كرامتي، أنا سيّد عربانيا.

- إن كنت أخطأت في حقّ البلاد مرّتين كما تزعم، فأنت الخطأ يسعى على قدميه. وأمّا هذه التي لا تستحي أن تسمّيها جارية فهي أشرف امرأة على وجه الأرض، وكان يمكن أن تقتلك انتقاما لأخيها.

فرفع صوته يريد إغراق صوتي:

- لقد خيّبت ظنّي. اذهب فأنت منبتّ، والمنبتّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى.

- لعلّك تريد أن أصوّر جرائمك على أنها فعل حضاريّ، يكتب بالإبر على مآقي البصر ليكون عبرة لمن يعتبر!

فتنفّس نفسا مضطربا كأنه يختنق، وقال في ما يشبه الهدير، ونظره معلّق في نقطة هلامية:

- ويل للخائن مني!

تجاهلت تهديده علني أخفف من وطأة ما يعاني، وأشرت إلى البيت:

- البيت وما فيه لك إن شئت. نحن راحلان.

وإذا به ينتفض كأنه داس على جمر لاهب، ويرفع إلى السّماء يدا مقبوضة، وصوته مرتعش النّبرات من الحنق:

-لا يرضى بحياة الذلّ إلا الذليل!

وما كاد ينشد:

ونحـن أنـاسٌ لا توسّـط عندنـا

لنـا الصّـدرُ دون العالمـينَ أو القبرُ

حتى قلت بانفعال، وقد أوقد صلفه في نفسي ذكريات أليمة، ولم يبق في قلبي محلاّ لرحمة:

- فليكنْ هذا البيت قبرَك إذن!

فغشيه ذهول الواله المشدوه، كأنما أصيب بلكمة عنيفة في وجهه

على حين غرّة، وداخلني من ذلك ندم مبهم، فقلت، وشامة تضغط على منبّه السيارة تستحثّني:

- أتذكر يوم قلت لك إنّ القائد هو الذي يحتاج إلى غيره؟

سألني في نظرة ميّتة، ولم يفق بعد من ذهوله، فأضفت:

- نحن في غنى عنك، أمّا أنت فإنّك محكوم باقتفاء أثر النّاجين، لأنّ في حياتهم حياتك. هل تعرف أنّ من سمتهم العذاب والويل هم مبرّر وجودك؟ انظر إلى أين آلت حالك في غيابهم.

رفع الكبير رأسه في تحدّ، وقال بصوت منخفض وهو يعبس عبسة عميقة:

- لو عادت الأمور إلى نقطة البدء لفعلت الشّيء نفسه. لم يكن ذلك إلاّ من أجل مجد عربانيا وعزّتها. وما حاق بها ليس إلا أمرا طارئا مثل العواصف التي لا بدّ منها كي تحافظ الطبيعة على توازنها.

وأردف بعد صمت، كأنه يقوّي عزمه، ويقنع نفسه بصلاح ما أقدم عليه:

- السياسة سجال، والخذلان لا يعرف طريقه إليّ. إنّ سعيي إلى لَمّ الشتات وبعث الحياة هو من طبيعة عملي، فالربّان لا يغادر سفينته ولو ألّمت به العواصف الهُوج.

حين تركته، كان لا يزال يردّد بصوت مختنق بالغضب، وجمع يده مقبوض يطاعن أعداء لا يزالون يعشّشون في ذهنه:

- سأخرج الحيّ من الميّت، وسأبعث في عربانيا شعلة الرّوح!

لاحقنا صوته، والسيارة تغادر المكان، يتردّد في ثنيات الشّعاب:

- ... وسيعلم الذين خانوا أيَّ منقلب ينقلبون!

في السيارة، ران علينا صمت وهمّ ثقيل. لم نتبادل على طول الطريق كلمة، كأن ذلك الطاغية أعادنا إلى ما كنّا فيه، وأوقد في أعماقنا الألم الذي خلنا أننا دفنّاه. كانت شامة متّكئة بمرفقها على حافة النافذة، تضع ذقنها على يدها وتقضم بين الحين والحين أظفارها، ونظرتها شاردة تتابع أسراب طيور بدأت تعود إلى أوكارها، والكلاب في المقعد الخلفيّ رابضة خانسة، تقلّب في صمت عيونا وجلة مثل مسافرين في أوّل رحلة على متن سيارة. ولم تفلح النّسائم اللطيفة التي كانت تداعب وجهي، وأنا مرتفق بذراعي على النافذة أدير عجلة القيادة بيد واحدة، في تبديد صورة ذلك المشهد البائس الذي أوقعنا فيه الكبير.

رجل أنهكته شهوة خائبة فإذا هو، رغم ذلّ الهزيمة، مقيم على صلفه، أنفه في السّماء وإسته في الماء، كما يقول المثل، كأنّ الكارثة لم تضرب بذقنه الأرض، يجوب هذه الرّقعة الضئيلة طولا وعرضا بحثا عمّن يخلّف له رعية، لعلّه يصيب طريدتين بطلقة: رعيّة تأتمر بأمره ولو كانت حفنة قليلة لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة، وكرسيّ يجلس عليه ليأمر وينهى، ولو كان مقعدا من أسل أو خيزران، فذاك منتهى أمله وعلة وجوده، كأنه لم يخلق إلا للجلوس في صدر إيوان، أو لم يتعلم في حياته غير الحكم، ومثله كان حريّا به أن يسعى إلى الخلاص بالموت، أو الهرب على الأقلّ، والاختفاء عن عيون الناس. وعجبت من نفسي كيف أخذتني بذلك الطاغية شفقة حتى بعد أن

هتكت شامة ستره وكشفت حقيقته، وأنا الذي كان قلبه ينفت عليه بحقد لو فاض لأغرق طغاة العالم أجمعين.

تذكّرت سنوات الجمر في سجن معزول لا يزار ولا تدخله حتى أشعّة الشّمس، قبل أن يأمر الكبير باستقدامي إلى سجن بالمدينة، لأكون في متناول يديه إذا ما أراد بي شرّا، وقد نقل إليه زبانيته، في ما علمت، أني صفيق لم تنفع معي هوادة ولا إذلال، وتمثّلت لعينيّ ليالي العذاب في زنزانة مظلمة تنضح بالرطوبة والقذارة والروائح النتنة، وتغصّ بالبقّ والقمّل والبراغيث والصّئبان، صحبة نفر ممن تحدّوا الكبير وظلمه جهارا، فأنزل بهم شرّ عقاب.

في ذلك السّجن الرّهيب، كنت مستعدّا أن أهبَ حياتي مقابل فسحة ضيّقة من سماء صافية لا يظلّل زرقتها غمام، أو حقل معشوشب تحلّق فوقه أسراب الطيور، أو حتى شجرة تغرّد في أفنانها العصافير. وكم مرّة تساءلت، وأنا أتنقل من ظلمة إلى ظلمة، كيف يمكن للمرء أن يحيا داخل قبر ولا يُصاب بالجنون. كنّا نبيت اللّيل نضمدّ جروحنا بغير أنين، ونشدّ أزرنا في عزم لا يفلّ مضاءه حدّ، ونتبادل النّصح في خفوت لكي لا يخالط عقولنا خبل، إلى أن انضمّ إلينا رجل يقال له رافع العيساوي. غامق السمرة ناحل ناشف، ذو عينين غائرتين وحاجبين مقوسين وجبين ضيق يبدو عليه أثر شروط قديمة، في صوته هدوء، وفي حركاته رصانة، وفي صمته الدّائب سكينة عميقة كأنه بوذيّ. تولّى تدريبنا على مقاومة الخوف وتجاهل الكلام المقذع الذي كان السّجّانون يقذفوننا به، وتجاوز الألم والاستهانة بوسائل التعذيب والإذلال بأنواعها.

كان يقول لنا: «هنا تجري الأمور». ويضرب جبهته ذات الغضون البارزة بسبابته ووسطاه مجتمعتين ضربات خفيفة متوالية، ويقول أيضا: «إذا استطاع المرء أن يركّز تفكيره بقوّة ليغوص في أعماق ذاته، ويستفرغ ما في ذهنه، ويعزل دماغه تماما عن تلقّي أي معلومة يصدرها الجسد حول ما يتعرض له من آلام ولو كانت مبرّحة، صار جسده غريبا عنه، فلا يصيب الجلاّدون حينئذ غير كتلة من لحم وعظام».

بفضله، تعلّمنا كيف نمضي إلى الجلاّدين في كلّ آن كما يمضي العامل إلى عمل شاقّ، وكانت أجسادنا تستقبل السّياط والكيّ واللّكم والرّكل وحتى وسائل التعذيب المبتكرة، كما تستقبلها أكياس الرمل. كذلك قاومت وصمدت وأبقيت على الرّمق وحفظت عقلي من مسّ بدا أوّل عهدي بالسّجن كأنه أمر محتوم.

ورغم ذلك كنت كلما جمعنا بالزنزانة ليل، أقسم، بيني وبين نفسي، يمينا لا رادّ له سوى الموت، بأني منتقم من الكبير طال الزّمان أم قصر، فهو رأس البلاء وموئل الشر ومنبع الآثام التي تنهال علينا بنكال مستجدّ، فإن قُطع الرأس جفّت العروق، وإن دُمّر الموئل دَثر الشرّ، وإن نضب المنبع انقطع المدد وانزاح عن عواتقنا الكابوس، فما الجلادون في النهاية إلا توابع كالكلاب السلوقية المدربة، تكرّ على الطريدة بالإشارة، أو هم، على رأي العيساوي، مصابيح لا تتوقّد إلا بمولّد للطاقة، فإن عدمته انقطع عنها التيّار وآلت إلى أشياء خرساء عديمة الجدوى، يغلّفها الغبار وذرق الذباب. وأبيت في ليالي السّهد أقلّب نقمتي عليه وجهًا وقفا، وأتمثّل سبل الثأر التي سوف أرغم بها

أنفه، وأكسر عتوّه، وأطمس كبرياءه، وأمرّغ عرضه، وأقِضّ مضجعه، فلا يهنأ له بال في سير ولا في إقامة.

ولما أزفت السّاعة وجاءني يسعى بقدميه وحيدا أعزل، أشفقت عليه، واعتراني أسف على ما أصابه، وندم على ما فاه به لساني، كأنّ صورة الرّجل لم تكن تناسب الصّورة الماثلة في ذهني عن مطفئ نقمتي المرتقب. لطالما هيّأت نفسي، في لياليّ الطويلة، لملاقاة خصم لدود عنيد مدجّج بالحرس والسّلاح، تنفرج له الجموع رهبة، وتنحني له الرّؤوس مهابة، وتفيض الألسن عند مروره بعبارات الرياء والمداهنة، فأشفي منه غليلي، وأثلج صدري إثلاجا يترك في الدّنيا دويّا، لتكون نهايته عبرة لمن يعتبر، فإذا بي أمام شيخ ما له ثاغية ولا راغية كما يقال، قد طوى عنه الزّمان كشحه، ثم سقاه الكدرَ والغمّ، فكَسَعه بلا رحمة وأرداه في درك وضيع، تائها وسط القفار بغير هادٍ، موزّعا بين ماضٍ تولّى وفجر لا يبين، لاهثا خلف حلم مجنون وأفق من سراب.

تخيّلته جالسا تحت الخرّوبة يغالب ألمه ويحمل نفسه على تأمّل ما يأتي به الغد القريب، لعله يجد من يخصب له تلك المرأة لتهبه ذرّيّة قد يبذل في تنشئتها كل مرتخَص وغالٍ، كي يستعيد ولو بضع ذرّات من مجده الآفل، فرثيت لحاله وحال بلاد أسلمت قيادها لرجل لم يكن يحمل غيرَ هَمّ نفسه.

ظلّت صورته تشغل فكري حتى بعد أن استقرّ بنا المقام، ورتّبنا البيت، وهيّأنا غرفه، وأودعناه أشياءنا الهزيلة، وأقبلنا على البستان نشذّب أشجاره، ونقتلع أعشابه، ونحفر مساربه، وقد وجدنا من

الأدوات ما يسّر عملنا، واستعنت ببطارية السيارة في تشغيل المحرّك واستعماله لتوليد الكهرباء في أوّل الليل، بعد أن طهّرت البئر من الأوساخ والأوراق الميتة التي تراكمت على صفحة مائه. أمّا السّقي والشّرب والاغتسال والتنظيف فكنّا نتوسّل في ذلك بالجهد العضليّ، ونقنع بالدّلاء لننهل من البئر حاجتنا ونستزيد.

منذ الليلة الأولى، قالت لي شامة معاتبة، وفي صدرها استياء وشت به قسماتها المكفهرّة:

- كيف تحتفي بعدوّك وتكرمه؟
- ما كنت أعرف أنه هو.

اتّسعت عيناها إنكارا ودهشة وهي تقول:

- عجبا! رغم تلك الصّور المبثوثة في كلّ مكان!
- ومن أين لي أن أعرفه وقد تغيّر شكله وغطّى الشّعر وجهه؟

أجابت على مضض وضيق:

- ولما عرفتَه، لماذا تنكّبتَ عن الأخذ بثأرنا جميعا؟
- الثأر؟

فتوهّج في عينيها بريق وهي تقول:

- نعم. الثّأر لك ولي ولصديقك.

فلطّفت من غلوائها وأنا أشفع كلامي بضحكة مقتضبة:

- إنه كالنطيحة أو العرجاء التي لا يحلّ اتّخاذها أضحية.

ابتسمت ابتسامة كالامتعاض وأشاحت عني بوجهها فأضفت:

- وهل بقي فيه ما يصلح أن يكون مطفئا للثأر؟

فردت وهي تُحِدّ بصرها اختجاجا:

- أما سمعت تهديده وإصراره على البغي؟

حاولت أن أهوّن الأمر بقولي:

- إن هو إلا شعلة تطفئها حفنة من تراب.

وقلت أيضا:

- الموت لمثله رحمة، فرَج بعد شدّة عصيبة. دعيه فلا أحسب أن عقابا ينزل به أقسى مما يلقاه من ذلّ وهوان، وقد بات بائسا أو كالبائس يحمل بين الضّلوع همّا يداري به خيبته.

وأراحت نفسها بصمت ثقيل ندّت عنها خلاله آهة عميقة كدّرت هجعة الليل، وهي تكبت نزوعا إلى البكاء كأنما غمرتها دفقة من الماضي، ثم جعلت تلعن الكبير في غيظ تكاد لا تكتمه.

ومرّ يوم وراء يوم ونحن في شغل دائب، نتعهّد الشّتل ونسقي الأحواض ونقلّم الأشجار ونتفقّد الدّجاج ونلقط البيض وننشر الغسيل ونطهو جرادق الخبز في فرن الطين جنب الإسطبل، ونطوف بالكلاب قرب البيت ننصب الفخاخ، ونتطلّع إلى الأرجاء وفي عيوننا شوق إلى أحياء غير الحيوان والنّبات، وحين يجمعنا الليل تحت أضواء المصابيح الخافتة، ونحن نقتعد كنبة منقوشة من خشب مبرنق، في غرفة جلوس مربّعة تزين جدرانها بعض التّحف الرّخيصة، وأمامنا صينيّة الشاي، تغمر شامةَ أصداءُ الماضي فتحدّثني، كأنها تروم التّنفيس عن كرب قديم، عن الكره الذي تضمره الغالية نحو الكبير وهي ترى وتسمع ما يأتيه من فحش تحت مظلّة شرعيّة يزكّيها المفتي، عن الحقد

الذي تكنّه لابنه، وكان ينافسها وينافس أقاربها الذين لا يحصون عددا في الاستحواذ على خيرات البلاد، عن المضاربات التي تقع بين الوزراء علنًا لمصادرة أرزاق النّاس بالمراسيم أو التّزوير أو إلباس التّهم أو الاستيلاء عليها بالقوة، عن تهريب الأموال والقطع الأثرية إلى الخارج، عن جهل تلك المرأة الفادح، وكانت لا تتورّع عن افتتاح المؤتمرات السياسية، وترؤس الندوات العلمية، والمساهمة في الملتقيات النسوية بمحاضرات لا تحسن حتى قراءتها، عن الموبقات التي تحدث في القصر علنًا، إلى أن تحوّل إلى ما يشبه دار بوار في قاع المدينة...

كنت أنصت كلّ ليل لحديثها مبهوتا، وهي تسهب في ذكر الواقع الأليم بصوتها الذي يختزن أحزانا قديمة، ونظراتها منصبّة عليّ أو شاردة في أفق غائب، محاذرا أن أشغلها بغيره، وقد لمست لديها رغبة لا تقاوم في إفراغ ما تنوء بحمله، كأنّ في ذلك شفاء مما يضني ذاكرتها المعذبة، وأنتظر في صبر ساعةَ تصفو فتشعّ عيناها بنور ابتهاج، وتفيض نفسها باللّين والمودّة، لعلّي أحقّق الفرح المؤجّل.

وكنت مرّة داعبت شعرها، وهي واقفة تسرّحه أمام مرآة خزانة تشغل جانبا من غرفتها التي تعبق برائحة الأنثى، ثمّ لم أملك نفسي، فاندفعت ألثم جيدها في ما يشبه نهمَ الملهوف، وإذا هي تنتفض كأنما لدغها ثعبان أو لامست جلدها نار، وتعقد ما بين حاجبيها احتجاجا، وتسدّد نحوي نظرة ارتياب متّقدة. تطلّعت إليها في دهشة انعقد لها لساني، فوجمتْ برهة لا تميل ولا تزول، ثم اغرورقت عيناها، وقالت بصوت رطّبته الدموع:

- لم أعرف من الرّجال غير الاغتصاب. اصبر، أرجوك. لا تكن مثلهم.

وصبرت حتى عيل صبري، ثم أزحت ذلك الهمّ الشاغل عن بالي، حتى كانت ليلة ربيعية دافئة، وربما فوق الدّفء بقليل، جفاني فيها النّوم حتى ساعة متأخّرة، وما كادت جفوني تثقل وتنطبق وتتماسك حتى أحسست بكتلة لدنة تتمدّد بجانبي، وتلتصق بجسدي، وتفكّ تماسك الأجفان، وإذا بصوت منخفض كالهمس يجيئني في الظّلام:

- أنا خائفة.

سألت في همس أنا أيضا، وقد توفّزت حواسّي وتيقّظ النّبض في شراييني واعترتني سخونة مفاجئة:

- من؟ شامة! ما بك؟

طوّقتني بذراعيها بقوّة، وازدادت بي التصاقا حتى لامس خدّها خدّي، وقالت وأنفاسها الحامية تلفح وجهي وتكاد تغرق مخّي:

- كابوس... رأيت الكبير على رأس رجال يريدون بي شرّا.

أحطتها بذراعيّ برفق، وضممتها إلى صدري بحنوّ، وداعبت خصل شعرها، ولثمت خدّها وأنا أهدهدها مثل طفلة، وقلبي ينوء بخفق شديد:

- لا تخافي. أنا هنا.

وإذا ثغرها النديّ يقارب فمي وينطبع على شفتيّ في قبلة طويلة مضنية، وهي تضغط عليّ مضطربة الأنفاس حتى تماسّت ثنايانا، وإذا نحن نغوص متعانقين في حلم لذيذ.

ومن الغد، كنت لا أزال مستلقيا في فراشي، والشّمس قد توسّطت السّماء، وبدأت ترسل أشعّة حارقة تنذر بنهار مصوّح، حين جاءتني شامة بالفطور باسمة، وتورّد البهجة يلوح في وجنتيها مثل وردة سقاها النّدى.

وضعت طبقا من نحاس، به بيض مسلوق وجرادق صغيرة وفطائر ساخنة وقدحان من الشّاي على حافة السّرير، وجلست حذوي، وقالت وابتسامة عريضة تضيء وجهها الصافي:

- صباح الخير يا عريس.

فملت عليها أحضنها وأداعب شعرها وأردّ على تحيتها بقبلة.

ومنذ ذلك اليوم، أغلقَت شامة فمها نهائيا عن إثارة ما يمتّ إلى القصر بمتات، ومحوتُ من ذهني الكبير وطمست ذكره، وأقبلنا نغنم من الحاضر لذّاته، ونعوّض ما فات.

ومرّت أيام مفعمة بالحبّ مجلّلة بالعشق والآهات الحميمة، ونحن في سعادة غامرة، ننتعش بدفقة الحياة التي وُهِبْناها من جديد، إلى أن جاء يوم خرجت خلاله منذ أن أصبح الفجر أستطلع الأمكنة المجاورة، وكنت قد لمحت في غروب اليوم الآفل دخانا يصّاعد عن بعد، وجاءت الأصداء البعيدة بما يشبه هدير محرّكات.

تركت شامة نائمة وركبت السيّارة ومعي مسرور، وانطلقنا نشقّ مراعيَ يتموّج فيها العشب والزّرع المهمل وتتراقص الأعواد في رفق وتتلامس كلّما هبت عليها نفحة من النّسيم الفاتر، وكان الحرّ على وقدته، والشمس لم ترتفع في الأفق قدر ذراع، وبعض

طيور القمري والحداء تحلّق في حَبَر وتطلق في الفضاء صداحها الصّباحيّ.

وأنا أحيد عن المسرب الذي يقود إلى بيتي، وأتوغّل في طريق ضيقة مبلّطة بالحجارة والحصى، أبصرت على مشارف دغل كثيف شاحنة خفيفة تكدّس في مؤخّرتها نساء وأطفال. خفق لرؤيتها قلبي، وضغطت على دواسة البنزين حتى أدركتها. حينما رآني السّائق توقف. رجل ذو بشرة قمحية ووجه مثلث وعينين صغيرتين فيهما بريق.

حيّيته وسألت بصوت عال، وأطفاله يتطلّعون إليّ في فضول من حافة الشاحنة:

- إلى أين؟

مدّ عنقه وأومأ برأسه أمامه قائلا:

- ضاقت بنا سبل الحياة فقلنا نعود إلى أرضنا.
- وهل هناك عائدون غيركم؟
- نعم. سمعت خلقا غير قليل يقولون: إن كان موتٌ فلنمت في بلادنا.

قلت محذرا وأنا ألوّح له بالتحيّة:

- إياك أن تذهب إلى المدينة، فقد تحوّلت إلى وكر مجرمين.

فهزّ رأسه يشكرني، ورفع يده بالتحيّة هو أيضا.

تجاوزته ومضيت أبحث عن عائدين آخرين، وقد سرّني ألاّ نكون بعد اليوم أشبه باليتامى، حتى صادفت في طريق معبّد كوكبة من رجال ونساء وأطفال بألبسة بالية، يسيرون على الأقدام ويحملون

أمتعتهم على عربة يجرّها بغل، ثم لمحت في حقل على حافة الطريق رجلا وامرأة يقتلعان الحشائش ويعزقان الأرض، وخلفهما، قرب بيت واطئ، خرفان ترتع جنب كلب رفع أذنيه وأمعن في النّباح، حين توقّفت أسأل الرّجل.

استخفّه سرور لرؤيتي، وقال إنه كان يحسب أن ليس في هذه الأرض غيره، وقد مضى عليه أسبوعان لم ير فيهما بشرا، وقال أيضا ألا علم له بمن عاد ولا بمن سيعود. ورغم ذلك مازجني إحساس، وأنا أودّعه، بأن الحياة عائدة لا محالة وإن بتقتير شديد.

عندما أخبرت شامة بذلك استبشرت كثيرا وانبسطت أساريرها، وخطرت في البيت بخطى قصيرة واهنة، وهي تجرجر طماقها في إيقاع بطيء له في السّمع ألطف الأثر، وقد شفّ ثوبها الخفيف عن جسدها الرائع، ثم مال رأسها فجأة، واختلّت حركتها حتى صارت لا تستوي. رأيتها تستند إلى جدار كأنما ألَمّ بها وجع طارئ، فأسرعت إليها، وإذا هي تكمّم فمها براحة يدها، وتضع يدها الأخرى على بطنها في ضغط تقلّب أثناءه شفتيها وتصرّ عليهما بأسنانها، وتتلوّى من الألم وتختضّ، وقد امتقع لونها وحال إلى ما يشبه البياض، ثم تنسحب من بين يديّ وتتجه على عجل إلى بيت الحمّام.

كانت منحنية على المغسل تغثي غثيا يهزّ كامل جسدها حين لحقت بها، وأنا ذاهل حائر، أسألها في لسان معوجّ عمّا أصابها دون أن تبلّ حيرتي بجواب. ثم قوّمت جذعها ببطء، ورشقت فيّ لحاظا تلمع ببريق دمع طفيف، وقالت وقد دبّت فيها صحوة نشاط، وعاد إلى وجهها شيء من رواء:

- مبروك.

انعقد لساني لحظة، ووقفت أحدّق فيها مشدوها أكاد لا أصدّق ما سمعت. انتعشت شفتاها بطيف ابتسامة غلب عليها الحياء، وأغضت رأسها فانثنى شعرها وسقط على عارضيها، فغمرني فرح دافق وتوهّج في عينيّ رقراق نديّ، واندفعت أقبّلها بحرارة، ألثم وجهها ويديها، وأداعب بطنها براحة يدي، وهي تخلّل بأصابعها الطويلة لمّة شعري في رفق وتبتسم.

بتنا ليلتنا تلك نجدل أشعار الهوى، ونتمثّل صورة وليدنا المقبل وجنسه واسمه، ونرسم للغد أحلاما فريدة، حتى ساعة متأخرة من الليل. وما كدنا نغرق في نعاس لذيذ حتى انتبهت إلى شامة توقظني وفي صوتها نذير الخوف. أرهفت السّمع فإذا الكلاب في هرج كأنها تتأهّب لنزال، وإذا ضجّة تقترب، فيها أصوات ترتفع حينا وتخبو حينا. غادرت الفراش منتفضا، وأصخت بأذنيّ في شيء من الريبة، والأصوات تقترب ولا تتّضح، ونباح الكلاب يزداد حدّة ويغرق مفرداتها. لبست ثيابي بخفّة وخرجت أستطلع الأمر، فإذا الكبير واقف في اعتداد ويده على جبهته يتّقي أشعّة الشّمس، ومعه أربعة رجال غلاظ في قسماتهم سماجة، وفي نظراتهم قسوة، وفي أيديهم عصيّ يرفعونها في تهديد، ووراءهم سيّارة حمراء قديمة، رابضة عند مرمى البصر. كان قد سوّى هيئته وكسا جسده ببذلة غير التي كان يرتديها آخر مرّة.

سرت رعشة باردة في جسدي وغاص قلبي في صدري، وأنا

أقلّب فيهم نظرات جافلة أستشعر خطرا لا أعلم كيف أصدّه، وإذا الكبير يصيح بي بصوت خشن زاده الموقف امتلاء:

- أين المرأة؟

ضيّقت عينيّ في حقد وقلت:

- ماذا تريد؟ دعنا وشأننا! أما يكفيك ما فعلت؟

فقال بصوت تجمّعت في نبراته نذر الوعيد:

- خير لك أن تجيئنا بها!

- ماذا تريد منها؟

التفت مقلّبا عينيه في الوجوه القاسية، وأشار بعكّازه إلى أحدهم، فتقدّم إلى الأمام خطوة:

- هذا الرجل طلب منّي يدها، وأنا وافقت.

وأضاف وهو يشير إلى الآخرين:

- وقد جئت بالشّهود.

صحت فيه وسحنتي تتقلّص بالغضب:

- ومن جعلك وصيّا عليها؟

فقلّب في الحاضرين نظراته يشهدهم على غَرارتي في هزّة رأس ساخرة، وأطلق قهقهة حانقة أجابوه بقهقهة مثلها، ثم اربدّ وجهه، وارتعشت أطرافه وصاح:

- أنا الكبير، سيّدها وسيّدك وسيّد عربانيا قاطبة!

قلت باشمئزاز رافعا طاقة صوتي إلى مستوى نبرته:

- إن كنت تريد عربانيا فالخراب أمامك!

- خراب! إنما ذلك ضريبة الدّم فِداءً للوطن.

هززت منكبيّ في سخرية، وقلت، وطرف عيني على الرّجال الذين وقفوا يتابعون المشهد بعيون ترشح بالشرّ والعدوان، وهم يربّتون على أكفّهم بالعصي منتظرين الإشارة:

- ما أكثر ما يكون الحاكم سخيًا حينما يضحّي بدماء غيره.

- ومن يقود البلاد لو ضحّى القائد بنفسه؟

- قائد آخر، أم أنك نمرود جديد؟

تلوّى في صدره الغضب حتى فارت به دماؤه وصاح مرتجفا:

- هذه البلاد لي ولن يحكمها أحد سواي!

- حسنا. ذي عربانيا أو ما تبقّى منها أمامك، فاذهب لتحكمها واتركنا في حالنا، فقد خرجنا من ملّتك.

- سأجعلك تندم على كلّ كلمة تقولها! ردّ في غضب وعكّازه موجّه نحوي.

قلت أسحب البساط تحت قدميه:

- هه! ماذا تريد؟ المرأة التي تتحدّث عنها هي الآن زوجتي.

قال بعد صمت وقد ألجمته المفاجأة:

- ومن أذن لك بذلك؟

- هذه الكلاب. والله لهي أحفظ منك للمعروف.

سرت همهمة تصاعد خلالها اللغط، وصرخ الكبير وقد تولاّه انفعال تقلّصت له عضلات وجهه:

- أيها الزّاني! كيف سوّلت لك نفسك إقامة علاقة غير شرعيّة مع هذه المرأة؟ سوف تحاسب على مروقك واستهتارك!

وأشار إلى الرجال برأسه وقد تبدّى الغضب في وجهه كالسّحاب المظلم، فاحتدمت وقدة الجمر في نظراتهم، وانقضّ الشرّ على نفوسهم، ولوّحوا بعصيّهم وهم يقذفونني بشتائم الفحش والدّعارة، فاشتعل لصراخهم النّباح واختلطت الأصوات، وما كادوا يندفعون نحوي حتى دوّت طلقة ناريّة أصابت أحدهم في ذراعه وأوقعت منه عصاه، فصاح صيحة ألَمٍ تجمّد إثرها الآخرون وارتسم على وجوههم الملتاحة ذعر مفاجئ، واهتزّ الكبير هزّة عنيفة وقد امتلأت عيناه الجاحظتان بالرّعب، ودارت الكلاب حول نفسها في هلع وهي لا تكفّ عن النباح. وقبل أن يفهموا ما حاق برفيقهم وهم يرونه يرتدّ ممسكا ذراعه النازفة، ثانيًا شفتيه داخل فمه من شدّة الألم، انطلقت رصاصة ثانية أصابت رجلا آخر في أعلى فخذه، ففزعت نفوسهم وطاشت عقولهم ورموا بعصيّهم، ولاذوا بالفرار يجرّون أذيالهم ويلمّون أشلاءهم وينشدون الخلاص، ومسرور وميمونة يلاحقانهم وينهشان أدبارهم حتى ركبوا السيارة هاربين.

جرت الكلاب خلف السيّارة الهاربة حينًا، ثم توقّفت دون أن تنقطع عن النباح، كأنها تشتم الهاربين وتعيّرهم، ثم استدارت تجري عائدة، فازداد الذّعر اندياحا على ملامح الكبير، وتحرك في اضطراب يلوذ بي من أنيابها ويحتمي خلفي، وقد ألَمّ به خزي كامل، وتفصّد من جبينه عرق غزير، وشمل أطرافه ارتجاف، وإذا بشامة تقبل بخطى سريعة غاضبة، وخصل شعرها تتطاير في الهواء، والمسدّس

في قبضتها توجّهه نحو الكبير، والشّرر يقدح من عينيها، والرجل يقلّب نظرات فزعة ما بين شامة والكلاب المقبلة في نباح يدنو ويزداد هياجا، ويدور حولي يمنة وشِمالا، لا يدري أيّهما يتّقي.

صحت في شامة وهي توجّه السلاح إلى صدر الكبير:

- ماذا تفعلين؟

قالت بصوت تجمّعت فيه نبرات الغِلّ والحنق:

- سأخفف الأرض من ثقل آثامه وشروره!

ملت عليها أهدّئها وأحول بجسدي بينها وبين الكبير:

- دعيه! لا تلوّثي يديك بدم فاسد.

وإذا به يعرض صدره ويقول وهو يغالب رعدة الخوف:

- اضرِبي! فلن يقولَ أحد إنه رأى الكبير، سيدَ عربانيا، يُبدي النّدم ويلثم القدم!

تلوّت بانفعال وهي تمدّ بصرها من فوق كتفيّ وتحاول التملّص، ثم قالت في غيظ شديد:

- أرأيت؟

قلت أمنعها، ونباح الكلاب يزداد ويحتدّ ويختلط بصوتينا، والكبير يشقّ الهواء بعكّازه يذود عن نفسه ما استطاع، ويعوذ بي منها حتى يكاد جسده يلامس جسدي:

- لا تتركي الغضب يملك عليك بصيرتك. عندي له حلّ آخر.

نهرت الكلاب فتراجعت وخنست وسكن حسّها إلا هرير

وإنِ ظل يتراوح في خفوت، وهي تلهث مادّةً ألسنتها. ثم التفتّ إلى الكبير وهو ينشّف عرقه بمنديله القذر المصفر، وخاطبته ولم يهدأ بعد روعه:

- سأمنع عنك الكلاب خمس دقائق. لا أكثر.

انتفض وصاح مرتاعا وقد امتلأت عيناه بالرعب، وفمه بالظمأ:

- لا! إلاّ الكلاب!

- بلى. هي وحدها التي تستطيع أن تنسيَك هوس الحكم. فما دواء المسعور إلا النّهش بالأنياب.

تراجع قليلا، وهو ينظر إليّ نظرة فيها توسّلٌ جهدَ في مغالبته، فأردفت مشيرا إلى المسرب خلفه:

- اجرِ، إن كنت قادرا على الجري فقد ابتدأ العدّ التنازلي.

وجمت نفسه وازدرد ريقه الجافّ وهو يغمغم:

- ولكن... لكن لا طاقة لي على الخلاص منها!

قلت، أنكأ جرحه، وأستحلي تعذيبه:

- كيف، وأنت لا تزال قادرا على الجريِ وراء السلطة؟ هيّا. اجرِ، فقد ضاعت منك دقيقة.

جرت في جسده رعشة، وهو يقرأ الإصرار في عينيّ وفي نذر الوعيد التي ينضح بها صوتي، وينظر إلى الكلاب خلسة كأنه يخاف أن يستثيرها بنظرة، وهي تهرّ مكشّرة عن أنيابها، وشامة واقفة كالعود الصّلب المتين، ترنو إليه كما يرنو المرء إلى كوم من حطب يابس يوشك

أن تضرم فيه النّار. رأيته يتقهقر ببطء وارتباك، وقد اقشعرّ بدنه وتاه عقله، ثم يولّي الدّبر حثيثا، ويوسّع خطاه قدر جهده ويسرع في عجلة مضطربة، قبل أن يقع على الأرض منكفئا على وجهه وسط الحشائش والأشواك. نهض بسرعة فلوى عنقه متلفّتا خلفه في رعب، ثم تناول عكّازه ومضى في هرولة مضحكة يكاد لا يستقيم خطوة حتى يخرّ على الأرض.

وما كاد يبلغ الطريق حتى تعالت في الفضاء أصوات وضجيج وهدير محرّكات تقترب وتزداد جلاء، وسرعان ما ظهرت شاحنات عسكريّة داكنة الخضرة على متنها جنود، وخلفها جمهرة من الناس ترفع الأعلام والرايات وتطلق الهتاف والنّشيد.

- من هؤلاء؟ سألت شامة وهي تمدّ البصر نحو القادمين.

- لا أدري. سأستطلع الأمر.

صاحت قبل أن أتحرّك:

- لا تذهب. لعلهم جنود الكبير وأنصاره.

- لا أعتقد.

وعدوت فعدت الكلاب خلفي حتى بلغنا الطريق. رأيت الكبير يرفع يديه ملوّحا بعكازه يستوقف الموكب، وسمعته يصرخ بصوت متهدّج:

- أنا الكبير! توقّفوا!

فتمرّ به الشاحنات في هدير صاخب ودويّ مزعج، وبعض جنودها يرفعون نحوه شارة النّصر مبتسمين، وهم يحسبون أنه

يبادرهم بالتحية احتفاء بقدومهم. ثم اتجه إلى الجمع الزاحف وخالط صفوفه، فطغى على صوته اللغط والهتاف والصّياح.

وسألت أحدهم عن الأمر فأجاب:

- هذه طلائع الحاكم الجديد.

قلت:

- من هو؟

قال في ما يشبه الخيلاء:

- صالح الإمام... وقد تعهّد بإعادة توحيد ولايات عربانيا، ووعد بالديمقراطية والعدل والحرية والمساواة، وكلّ الأشياء الجميلة... طعام لكل فم، دواء لكل مريض، بيت لكل مواطن، عمل لكل ساعد، كتاب لكل طالب...

انفجرت خلفنا ضحكة عالية لم يتخلّف عنها أحد. التفتنا فإذا رجال تحلّقوا حول الكبير، وقد سكنت الأصوات فجأة وانصبّت عليه العيون ومالت إليه الأسماع، وهو يدور في وسطهم مثل حاوٍ ويصرخ بملء صوته:

- أنا الكبير! كيف لا تعرفونني! أنا سيّد عربانيا!

زادت ضجة الضحك علُوّا، وإذا برجل متين الأساس طويل القامة أجرد الشّعر، في حركاته اتّزان، وفي صوته امتلاء، وفي قسماته جدّ جاهم، يشير إلى جماعته أن يهدؤوا، ويقول له:

- أيها الشيخ، تعالَ معنا، وسوف نوفّر لك مكانا تجد فيه الرّاحة والرّعاية الصحيّة.

هاج الكبير وماج، يغالبُ بصوته ضحكات لم تفتر:

- قلت لكم أنا الكبير سيّد عربانيا!

علّق أفراد من جوانب الجمع في إشفاق:

- مسكين!

- المصائب أفقدته صوابه.

- دعوه، لعلّه يجد الرّاحة في هذا الخلاء، فيستعيد عقله.

- وماذا بقي من عمره؟ سيدركه الموت قبل أن يدرك الصّواب.

صاح الكبير محتدًا:

- سيكون مصيركم القصاص إن لم تسمعوني!

وإذا بالرجل الأوّل يقول له بصوت فيه تأفّف وفيه استياء:

- لو كنت الكبير كما تزعم، أيها العجوز، لأعدمناك في الحال، رغم سنّك، لكي نثأر لأنفسنا وللبلاد جمعاء. ولكنّ ذلك الخائن فرّ إلى مكان مجهول.

تجاوبت الأطراف بالصّياح واللغط والغوغاء، وعادت الضّجة أعلى وأعنف، وأعرض الجمع عنه، واستأنفوا مسيرتهم يرفعون عقيرتهم بالهتاف والنشيد، ويلحقون بمن سبق، وظلّ الكبير تائها وحده، تحت شمس يتّقد قرصها الحارق في سماء جَلواء لا أثر فيها لغمام، وقد تيبّست شفتاه، وذبل وجهه، وابيضّ لسانه، وزاغت نظراته حتى خلت أنّ الأرض توشك أن تميد به. ثم تملّكه الرّعب حين رآني صحبة الكلاب، فثبت في مكانه كأنما دُقّ بمسامير، ولم يستطع أن يحوّل عنا نظره، لعله قدّر أنّه ما عاد لديه مجال للفرار،

أو ربما فَراهُ اليأس فَريًا مزّق فؤاده وشتّت عقله، فقرّر إهراق الرّمق الأخير لحياة مثقلة بالآثام عسى أن يشهد الرّاحة الأبدية، أو ربما أدرك أنّي لو كنت أريد به شرّا، لوشيت به وفضحت أمره.

بقينا نترامق عن بعد، وقد لمحت في نظراته الميّتة الخاسئة شيئا أعمق من اليأس، ولعله رأى في وقفتي الموتَ يرصده، والكلاب جنبي متحفّزة لا يحول بينها وبين الهجوم عليه وتمزيقه سوى لفظة أو إشارة. ومرّ بي خطفا، مثل لمع البرق، ذلك اللقاء البعيد في مكتبه كشريط تداعت صوره في لمح البصر، ووازنت في شيء من المرارة بين ماضيه وحاضره. رجل كان يحسّ أنه مركز العالم، فإذا هو أشبه بهباءة تافهة في خلاء قفر، وقد بدا وسط ذلك الفضاء الشّاسع مثل قطرة ماء في بحر، لا تفيد البحر في شيء إن بقيت أو تبخّرت. كان يحسب أن لن يقدرَ عليه أحد، فإذا هو دون هذه الكلاب قدرة، عاجز عن صدّها لو اندفعت.

تزاحمت الخواطر في رأسي، ثم تنبّهت فجأة إلى أنّ هذا الموقف الذي جعلني وجها لوجه مع الكبير يذكّر بمواجهتنا السابقة، مع فارق جوهري هو أنّ الأمر والنّهي في هذه المرّة من نصيبي. ووجدتني في وضع عاد بي إلى ما كنت أمقته لدى القدامى، من أنه ليس شيء ألذّ ولا أسرّ من عزّ الأمر والنّهي ومن الظفر بالأعداء، وساروا عليه جيلا بعد جيل كالكتاب المسطور.

كان الكبير لا يزال مسمّرا في وضعه ذاك، كأنه يريد أن يقتحم الموت قبل أوانه. كان يخيّل لمن يراه، في تلك الهيئة المشوّشة والثّياب

الملطّخة والنّظرات الزّائغة، أنه مجنون أو بائس أو شريد، أو كلّ ذلك معا، وقد فقد كلّ شيء، فلا بيت يؤويه، ولا ظهر يحميه، ولا عين تبكيه. حتى الحلم الهزيل الذي كان يراوده بجمع شتات عربانيا واستعادة عزّه ومجده تلاشى.

ناديت الكلاب وأخذت طريق العودة دون التفات، والأفكار في رأسي تمور وتصطخب، والشّمس فوقي ساطعة لاهبة تسفح الوجه بلفح حارق. كانت شامة لا تزال في مكانها ترقبني. طافت الكلاب حولها، ثم لوت أذيالها وانصرفت، وغابت خلف سياج البستان. مدّت شامة عنقها وبصرها وأشارت برأسها خلفي، فالتفتّ أنظر إلى حيث كانت تنظر، فإذا الكبير في مكانه لم يبرحه، وعيناه باتجاهنا، لعلّه يريد أن يبلغني أنه مدين لي بحياته، أو ربما يملأ عينيه للمرّة الأخيرة منّا، نحن اللذَين يعرفانه ولا يزالان يعترفان بأنه هو.

ظل يتردّد يمنة ويسرة كالحائر لا يدري أي وجهة يقصد، ثم مشى بخطى ثقيلة متضعضعة كأنه يقتلع قدميه من الأرض، وتناءى طيفه وتضاءل مثل نقطة سوداء في المدى البعيد، ثم غاب عن الأنظار، ولم نره بعد ذلك أبدا.

عندما أخبرت شامة بما حدث لم تعاتبني، فقد أدركت مثلي أنّ تلك الجموع جاءت تنعى موت الكبير وتشهد جنازته وتدقّ مسمارا في نعشه. ثم جرى بيننا حديث عما يروّجه أنصار صالح الإمام، ذاك الذي خاض رجال الكبير في عرضه وشرفه، وانتقصوا منه وتآمروا عليه حتى أودعوه السجن، فانفرجت ملامح شامة وأسفرت، وهي

تسمع ما وعد به الحاكم الجديد. ثم انطفأت نشوتها، وعلا وجهَها قلق وحيرة حينما قلت:

- الكبير أيضا وعد بذلك أوّل وصوله إلى الحكم.

وقلت أيضا:

- لا بدّ أن أبدأ في تحريض النّاس.

رمتني بنظرة متفحّصة يداخلها اندهاش وهي تسأل:

- تحرّضهم! تحرّضهم على أيّ شيء؟

- على أن نكون للحاكم الجديد مثل سيف ديموقليدس، حتى يظلّ وفيّا لوعوده ولا يحيد عن السّراط.

هزّت منكبيها وقالت وهي تشيح:

- وهل تعتقد أن النّاس يقدرون على منعه لو حاد؟

- إذا تصدّوا لانحرافه من البداية، فالحاكم مثل الخليّة السرطانية، إذا لم تعالَج منذ الأعراض الأولى، استشرت في خلايا الجسد وعمّت وأهلكت صاحبها.

بدت لحظةً ساهمة تمدّ بصرها عبر النافذة دون تركيز كأنها ترتّب ما يزدحم في ذهنها، ثم قالت تسألني:

- أتظن أنّ صالح الإمام سينقلب علينا كما انقلب الكبير؟

- الخوف ليس من صالح الإمام وحده، بل من الشّعب أيضا.

اتقدت في عينيها أمارات الدّهشة وقالت وهي تتفحصني بنظرة مستريبة:

- هه! ماذا قلت؟

- لا تنسَي أننا أمّة تسيّرها العاطفة، نحبّ بعنف، ونكره بعنف.
وفي غياب الاقتراع، يأتي الحاكم عقب انقلاب، فنرى فيه المنقذ الذي جاء ليرمّم ما قوّضه سلفه، الذي لا يكون في أذهاننا إلا من النّوع الطّالح، فنحبّه، ثم نجلّه، ثم نكبره، ثم نؤلّهه، ونحن نمنحه ثقة عمياء ونسلمه قيادنا ذاهلين، فيتصرّف في المصائر كما يهوى، وحينما نفيق من ذهول الحلم، نكتشف أنّ الوعود محض أوهام، وأنّ الترميم لم يبرح نقطة البدء، وأنّ المنقذ قد أخذ حجمًا غير الذي قدّرنا، ووجهة غير التي رسمنا، وسياسة غير التي أمّلنا، وإذا نحن نذعن لطاغية جديد، صنعناه بأيدينا، ونفخناه بأفواهنا، وزوّدناه بالسّيف والنّطع اللذين سيتلقّيان رقابنا.

وضعت يدها على خدّها، فانثنى شعرها، وتهاوى على جانبي وجهها. نترته في حركة محبّبة لا تتقنها غير النّساء، وتعلّق بصرها بفمي وأنا أردّد بيتا لخليل مطران:

- كلّ شعبٍ صانعٌ نيرونَهُ   قيصرٌ قيلَ لهُ أم قيلَ كِسرى

ذكّرني بتلك القصيدة الطّويلة التي كانت سببا في فصلي عن التّدريس، قبل عبدون، برّد الله ثراه.

قالت بعد صمت وتفكير:

- فكّر قبل ذلك في البيت.

- ما به؟

- قد يعود أصحابه فنجد أنفسنا في الخلاء.

ربّتُّ على ذراعها في رفق وقلت:

- اطمئنّي. الآن وقد بدأ النّاس يعودون، سأشرع في بيع ما نجنيه من البستان ونفكّر في اكتراء منزل، أو شراء بيت ولو قديم، ونعدّ العدّة لطفلنا، عسى أن يشهد غدا أجمل وينعم بحياة أفضل.

وجاءت الأخبار منذ الأيام الأولى من عهد الإمام لتزرع بذرة الريبة في صدري، وتدعم ما كنت أخشاه، وتحضّني على المضيّ في ما اعتزمت، فقد بدأت فئة من النّاس تروّج عن الحاكم الجديد كلاما عجيبا أشبه بالخرافة، وتصفه بأوصاف كأنه من الأنبياء والمرسَلين، والبلاد لم تشهد بعد وحدتها الموعودة، والمدن لا تزال أنقاضها تنهض من سبات، والأهالي الذين بدؤوا يتقاطرون على مواطنهم لا يجدون عملا ولا مأوى، كعهدهم زمن الكبير.

ثم تناقل الناس خبر شيخ غريب، يجلس كلّ يوم عند مفترق مسارب ريفية في مكان مقفر، مفتوح للشّمس والرّيح والعجاج، فيقتعد كوم حجارة خلف جرّتين يعرض على العابرين ماء لوجه الله، فإذا مدّ عابر السّبيل يده إلى إحدى الجرتين، أمره الشيخ أن يشرب من الجرّة الأخرى. لا شغل له كامل النّهار، في ما يروي الناس، إلاّ أن يأمر المقبل على الجرّة التي على يمينه بأن يشرب من تلك التي على يساره، أو يأمر الرّاغب في شربة ماء من الجرّة التي على يساره بأن يكرع من تلك التي على يمينه. ويقولون أيضا إنّ الغضب كان يستولي عليه إذا رفض أحد العابرين الامتثال لأمره. حينئذ، يقول الناس، يفزّ واقفا كالرّمح، ويصرخ بصوت ملكت نبراته سورة

الغضب وهو يطاعن الهواء بعكّازه، بأنه الآمر النّاهي، الذي اعتاد أن يأمر فيُطاع، وينهى فيُهاب. وأحيانا، في ما يحكي الناس في المجالس للتندر والسّمر، كان يسرّ لمن يريد أن يسمعه أنه الكبير، سيّد عربانيا، وسيّد الخلق أجمعين، وأنه عائد في غد أو بعده لطرد الغاصب وإنقاذ البلاد.

باريس 25. 12. 1995 - كراي 7. 4. 2001

أبو بكر العيادي

آخر الرعيّة

- «آخر الرعيّة» رواية جريئة، تعري الطغيان والطغاة بأسلوب فاخر، ولغة راقية تتمثل التّراث وتتجاوزه إلى أتون الحاضر.

محمد الخالدي

- «آخر الرعيّة» جواب سليم على مسألة الحداثة في الأدب العربي بمراجعه وثرواته الطائلة وتشعّبه الحالي، الباحث عن أساليب ربما كانت سهلة على الكاتب الجادّ، ولكنّه لا يراها.

طاهر البكري

- «آخر الرعيّة» قدّمت إضافة جارحة إلى روايات الدّكتاتور العربي وغير العربي، وتميّزت هذه الإضافة خاصّة باللغة الروائية التي استطاعت أن تتعدّد، وهي تفجّر نسبها التراثي الذي وسم قصص العيادي ورواياته.

نبيل سليمان





ISBN: 978-9938-833-65-2
